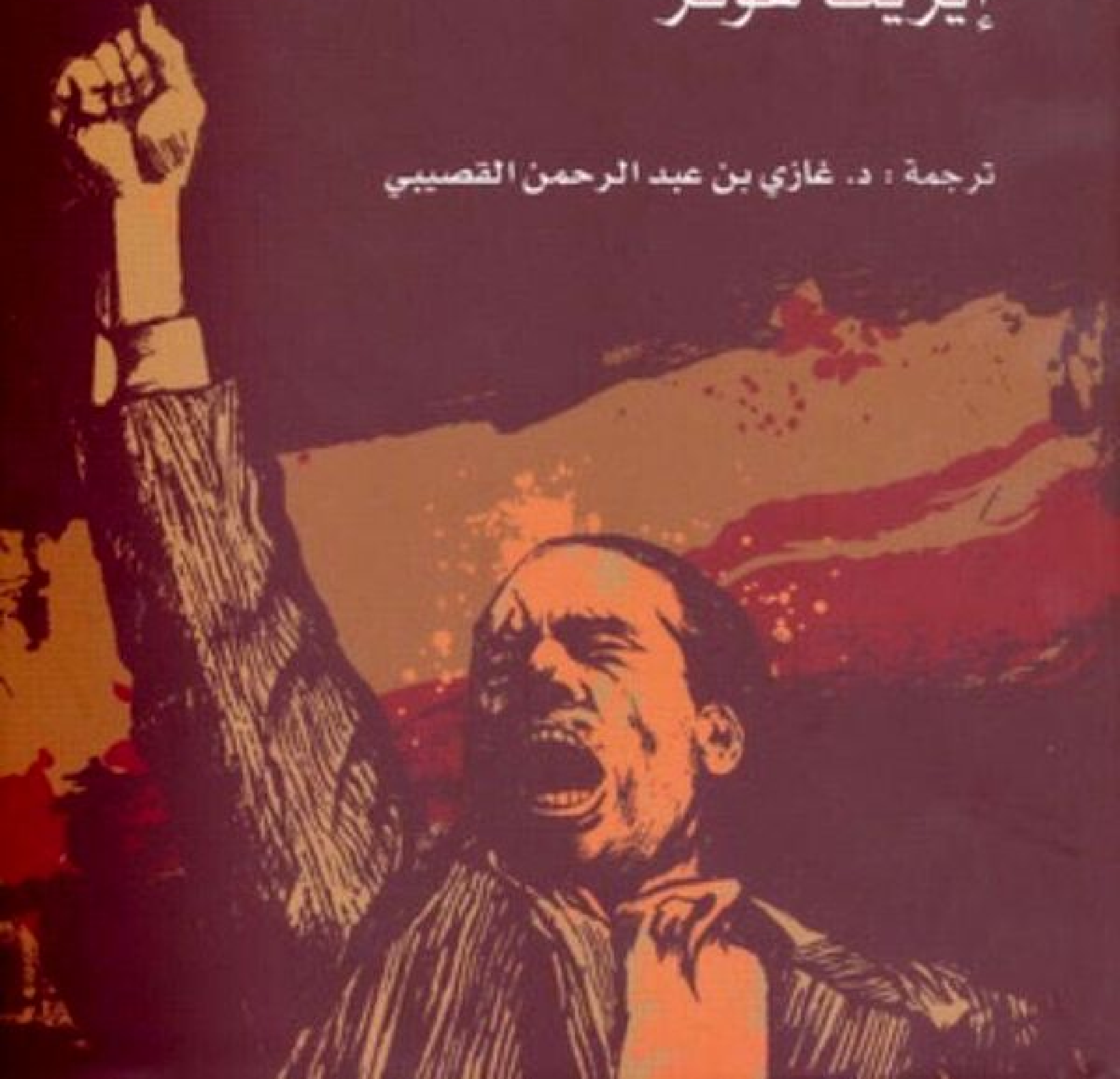
المؤمن الصادق

أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية

إيريك هوفر

ترجمة : د. غازي بن عبد الرحمن القصيبي



المؤمن الصادق

أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية

المؤلف: إيريك هوفر

ترجمة: د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي

الطبعة الأولى – ٢٠١٠

إهداء

إلى مارجريت أندرسون،

التي لم يكن بالإمكان كتابة هذا الكتاب لولا يدها التي امتدت عبر القارة؛ لتحفزني.

المؤلف

يود الإنسان أن يكون عظيما ويرى أنه صغير، ويود أن يكون سعيدا ويرى أنه شقي، ويود أن يكون موضع الحب والتقدير من الناس، ويرى أن أخطاءه لا تجلب سوى كراهيتهم واحتقارهم.

إن الحرج التي يقع فيه نتيجة هذا التناقض يولد لديه أسوأ النزاعات الإجرامية التي يمكن تخيلها، ذلك أنه يبدأ في كره الحقيقة التي تدينه وتربيه عيبه.

باسكال[١]

Penisees

واستخدموا القاذورات سلاحا لهم.

العهد القديم

Genesis

---

[١] نبغ بليز باسكال الفرنسي (١٦٢٣ – ١٦٦٢م) منذ صباه في الرياضيات والطبيعة والهندسة، واخترع أول حاسبة ميكانيكية، ثم تحول سنة ١٦٥٠ م، على إثر حادث نجا منه، إلى دراسة الدين وكتب عديدًا من المقالات الفلسفية الدينية التي ضمها أشهر مؤلفاته Penisees (المترجم).

الفهرس

مقدمة المترجم

أقدمت على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية برغم أنه صدر في منتصف القرن الميلادي المنصرم، وبرغم أنه لم يحظ بقدر كبير من الانتشار، إلا أني وجدت فيه جوابا شافيًا عن سؤال شغلني منذ أن بدأت ظاهرة الإرهاب تشغل العالم، وهو: «لماذا يصبح الإرهابي إرهابيا؟».

رجعت إلى عدد من المصادر، وبحثت الأمر مع عدد من الخبراء، واتضح لي أنه على الرغم من وجود كم هائل من المعلومات عن الإرهاب، تنظيماته وقادته وأساليبه وأدبياته وتمويله، إلا أنه لا توجد كتابات تضيء عقل الإرهابي من الداخل، وتتيح لنا فرصة التعرف على هذا العالم العجيب المخيف.

ثم شاءت المصادفة أن أتعرف على هذا الكتاب (ولا بد هنا من تسجيل الفضل للصديق الدكتور علي بن طلال الجهني الذي أرسله إلي). فوجئت بأنني عثرت، أخيرا، على ضالتي، وحيث لم أتوقع: في كتاب لم ترد فيه كلمة الإرهاب، ونشر في زمن لم تكن فيه ظاهرة الإرهاب معروفة.

إلا أن الإرهاب وليد التطرف والكتاب معنيّ بالتطرف: جذوره وبذوره. والمعادلة التي يعرضها المؤلف بسيطة ومقنعة في الوقت ذاته، وهي تبدأ بالعقل المحبط. يرى الإنسان المحبط عيبًا في كل ما حوله ومن حوله، وينسب كل مشكلاته إلى فساد عالمه، ويتوق إلى التخلص من نفسه المحبطة وصهرها في كيان نقي جديد. وهنا يجيء دور الجماعة الثورية الراديكالية التي تستغل ما ينوء به المحبط من مرارة وكراهية وحقد، فتسمعه ما يشتهي أن

يسمع، وتتعاطف مع ظلاماته، وتقوده إلى الكيان الجديد الذي طالما حن إلى الانصهار فيه. من هذا اللقاء الحاسم بين عقلية الفرد المحبط الضائع وبين عقلية القائد الإجرامي المنظم ينشأ التطرف، ومن التطرف ينبت الإرهاب.

إنني أرجو أن يكون نشر الكتاب باللغة العربية مقدمة لعملين لا بد منهما: أما أولهما، فمتروك للباحثين الذين يجب أن يعرضوا تحليل المؤلف على واقع الإرهاب المعاصر وأن يتركوا للدراسات الميدانية الدقيقة أن تصدّق أو تكذب تحليله (وفي رأيي أنها ستصدّقه!) وأمّا ثانيهما، وهو أهم وأخطر، فيقع على عاتق الدول العربية التي يجب أن تمتلئ بالفرص، وتزدهر بالأنشطة، وتبوح بمؤسسات المجتمع المدني النشطة – على نحو يقضي على الإحباط بين الشباب، أو على جزء كبير منه.

بزوال الإحباط يزول التطرف، وبزوال التطرف ينتهي الإرهاب. هذا – في رأيي – هو الأسلوب الوحيد الناجع لمشكلة تقض مضاجع العالم كله.

غازي بين عبد الرحمن القصيبي

الرياض

١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م

مقدمة المؤلف

يتعامل هذا الكتاب مع خصائص تشترك فيها كل الحركات الجماهيرية، سواء أكانت دينية أم اجتماعية أم قومية. ولا يزعم الكتاب أن هذه الحركات متماثلة، ولكنه يذهب إلى أنها تشترك في صفات رئيسة تخلق بينها نوعًا من الشبه العائلي.

تولد كل الحركات الجماهيرية في نفوس أتباعها استعدادًا للموت وانحيازا إلى العمل الجماعي، وجميعها، بصرف النظر عن المذهب الذي تدعو إليه، أو البرنامج الذي تعنيه، تولد التطرّف والحماسة والأمل المتقد والكراهية وعدم التسامح، وجميعها قادرة على تفجير طاقات قوية من الحراك في بعض مناحي الحياة، وجميعها تتطلب من أتباعها الإيمان الأعمى والولاء المطلق.

وجميع هذه الحركات، مهما كانت اختلافاتها المذهبية وأهدافها، تستقطب أتباعها الجدد من النماذج البشرية نفسها، وجميعها تستميل الأنماط والعقول نفسها.

على الرغم من أن هناك فروقا واضحة بين المسيحي المتطرّف، والمسلم المتطرف، والقومي المتطرف، والشيوعي المتطرّف، والنازي المتطرّف، إلا أنه يبقى صحيحا أن التطرّف الذي حرك هؤلاء كلهم هو تطرف ذو طبيعة واحدة. وتصدق هذه الملاحظة على القوة التي تدفعهم إلى التوسع ومحاولة السيطرة على العالم. هنالك درجة من التماثل بين هذه الجماعات تتجلى في إخلاصها للحركة، وفي إيمانها، وفي سعيها إلى السلطة، وفي وحدتها، وفي استعدادها للتضحية بالنفس. وعندما اكتشف باسكال الأسباب التي أدت إلى نجاح العقيدة المسيحية،

فإنه في الوقت نفسه، وضع يده على الأسباب التي تؤدي إلى نجاح العقائد الشيوعية والنازية والقومية.

مهما كانت القضايا المقدمة التي يموت الناس من أجلها، فإنهم، على الأرجح، يموتون للسبب نفسه.

يقصر هذا الكتاب اهتمامه، أساسا، على المرحلة النشطة الدعوية إلى الحركة الجماهيرية. وتتميز هذه المرحلة، أساسا، بسيطرة المؤمن الصادق – الرجل ذي الإيمان المتطرّف المستعد للتضحية بنفسه في سبيل القضية المقدّسة – ويحاول الكتاب تحليل البذور والجذور التي تغذي طبيعة هذا الرجل. ويستعين الكتاب في تحليله بفرضية محددة. انطلاقا من الحقيقة التي تقول: إن المحبطين[٢] يشكلون غالبية الأتباع الجدد في كل الحركات الجماهيرية، وإنهم ينضمّون إليها بإرادتهم الحرة، يفترض الكتاب:

أولاً: إن الإحباط في حد ذاته، ومن دون دعوة أو محاولة للاستقطاب من الخارج، يكفي لتوليد معظم خصائص المؤمن الصادق.

ثانيًا: إن الأسلوب الفاعل في استقطاب الأتباع للحركة يعتمد أساسا على تشجيع النزاعات والاتجاهات التي تملأ عقل المحبط.

[٢] لا تستخدم كلمة «المحبط» في هذا الكتاب بوصفها تشخيصا طبيًا إكلينيكيًا، وإنما يقصد بها الناس الذين يشعرون، لسبب أو لآخر، أن حياتهم ميؤوس منها، وضاعت هباء.

ولكي نمتحن صحة هذه الفرضية كان لابدّ من تحليل العلل التي تصيب المحبطين، وردود فعلهم إزاءها، والدرجة التي تتطابق فيها ردود الفعل هذه مع ردود فعل «المؤمن الصادق»، وأخيرًا، الوسيلة التي تستهل ردود الفعل هذه عبرها قيام الحركة الجماهيرية وانتشارها.

كما كان من الضروري فحص أساليب الحركات المعاصرة التي طوّرت أساليب ناجعة للتبشير بمبادئها واستخدمتها بفاعلية، لنرى إذا كان يمكن القول، حقا: إن الحركات الجماهيرية في مرحلتها الدعوية تعمل على إيجاد عقل جماعي محبط، وإنها بالفعل، تحقق أهدافها عندما تجعلها متفقة مع نزعات المحبطين.

من الضروري لمعظمنا هذه الأيام[٣] أن يملك نظرة نفاذة في دوافع «المؤمن الصادق» وردود فعله: برغم أننا لا نعيش في عصر الإيمان إلا أن هذا لا ينفي وجود ضرب مر التدين تمثله ظاهرة «المؤمن الصادق». إن «المؤمنين الصادقين» يزحفون في كل مكان، ويحاولون عن طريق الإقناع أو العنف، صياغة العالم على شاكلتهم. سواء كنا ننوي الوقوف مع «المؤمن الصادق» أو ضده، فمن الضروري أن نعرف كل ما يمكن أن نعرفه عن طبيعته وما يستطيع أن يفعله.

ولعله من نافلة القول إضافة كلمة تحذيرية، عندما نتحدث عن شبَه عائليّ بين الحركات الجماهيرية فنحن نعني «العائلة» بمعنى واسع جدًا. إن ثمار الطماطم وثمارا أخرى سامة شبيهة بها تنتمي إلى «العائلة» نفسها، برغم أن الأولى طعام مغذّ والثانية سم قاتل. ومع ذلك فالشبه

[٣] من المهم أن يذكر القارئ، هنا، وخلال الكتاب كله أن المؤلف نشر كتابه سنة ١٩٥١م، والحديث عن هذه الأيام، في هذه المدة يشير إلى تلك المرحلة (المترجم).

بين ثمار الطماطم والثمار السامة، من النواحي العضوية والتشريحية والشكلية، يجعل خبير النباتات، وحتى المراقب العادي، يصنفها ضمن «العائلة» نفسها. وافترضنا أن الحركات الجماهيرية كلها تحتوي على خصائص مشتركة، لا يعني بأي حال من الأحوال، أن هذه الحركات متشابهة في الخير والشرّ. لا يصدر هذا الكتاب أحكامًا ولا ينحاز إلى مهنة. كل ما يحاول الكتاب فعله هو أن يشرح، والشروح المقدمة هنا تجيء في شكل نظريات، ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد اقتراحات وآراء، حتى عندما تصاغ على نحو قاطع، ولعل بوسعي أن أكرر هنا ما قاله مونتين[٤] وكل ما أقوله هنا هو من قبيل النقاش، لا النصح. وما كنت لأتكلم بهذه الجرأة لو كنت متأكدًا أن كلامي سيؤخذ على «علّاته».

[٤] كان مايكل دي مونتين (١٥٣٣–١٥٩٢ م) من أهم الكتاب الفرنسيين في عصره واشتهر بقدرته على صياغة أفكار معقدة في مقالات سهلة مفهومة (المترجم).

القسم الأول: جاذبية الحركات الجماهيرية

الفصل الأول: الرغبة في التغيير

١

من البدهي أن كثيرًا من الذين ينضمّون إلى حركة ثورية صاعدة يتطلعون إلى تغيير مفاجئ كبير في أوضاعهم المعيشية.

إن الحركات الثورية، بعبارة أخرى هي أداة واضحة من أدوات التغيير.

إلا أنه من الصحيح أيضا، وإن لم يكن من البدهي أن الحركات الدينية والقومية يمكن أن تكون، هي الأخرى، وسائل للتغيير.

من الواضح أن نوعًا من الحماسة والانفعال ضروري لتحقيق أي تغيير كبير وسريع. ويستوي أن تجيء هذه الحماسة من توقع ثروات هائلة، أو من الانخراط في حركة جماهيرية. في الولايات المتحدة كانت التغييرات المثيرة منذ الحرب الأهلية تتم في جو مشبع بحماسة أوجدتها الفرص المتاحة للفرد لتحسين وضعه. عندما تتقدم فرص تطوير الذات، أولا يسمح لها بالعمل كقوة محفزة، يصبح من الضروري إيجاد مصادر بديلة للحماسة إذا كنا بصدد تغييرات أساسية، مثل إيقاظ مجتمع نائم وتطويره، أو إدخال إصلاحات جذرية على طبيعة مجتمع ما وأنماط حياته، وإبقاء هذه المصادة حية نشطة. ومن هنا يمكن النظر إلى كل من الحركات الدينية والثورية والقومية بوصفها معامل لتوليد هذه الحماسة العامة.

كانت الحركات الدينية في الماضي وسائل واضحة للتغيير. وما يميز دينا ما من محافظة إنما يجيء بعد جمود القوى الحيوية التي واكبت ولادته. كانت الحركات الدينية الصاعدة تدعو

إلى التغيير الشامل، وإلى التجريب، وكانت منفتحة على آراء وأساليب من كل اتجاه. كان الإسلام عند ظهوره حركة تنظيمية وتحديثية. وشكلت المسيحية تغييرًا حضاريا وتحديثيًا بين قبائل أوروبا البدائية. كانت الحروب الصليبية ثم حركة الإصلاح البروتستانية[٥] عوامل رئيسة في هذا العالم الغربي بعد جمود القرون الوسطى.

أما في العصور الحديثة، فقد كانت الحركات الجماهيرية التي استهدفت إحداث تغيير واسع شامل حركات ثورية وقومية، أو حركات تشترك في هاتين الصفتين. كان قيصر روسيا بيتر الكبير[٦] لا يختلف في إخلاصه للمبدأ وقوته وقسوته عن كثير من الزعماء الثوريين والقوميين، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه الرئيس، وهو تحويل روسيا إلى دولة غربية، كان سبب فشله أنه لم يستطع أن يبث في الجماهير الروسية الحماسة التي تمتلك الوجدان، إما لعجزه عن القيام بذلك أو لاعتقاده بعدم أهمية هذا العمل. في ضوء ذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن الثوار البلاشفة الذين قضوا على آخر قيصر من أسرة رومانوف[٧] كانوا يشعرون بشيء من الألفة مع بيتر، برغم انتمائه إلى الأسرة المالكة نفسها. وليس من المستبعد أن ينظر التاريخ إلى الثورة البلشفية بوصفها محاولة لتحديث سدس مساحة العالم بقدر ما كانت محاولة لبناء اقتصاد شيوعي.

[٥] بدأت حركة الإصلاح الديني، التي عرفت فيما بعد بالبروتستانية، سنة ١٥١٧م على يد الأستاذ الجامعي والقس الألماني مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦م) وانتقدت الحركة كثيرًا من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية، مثل صكوك الغفران، وتقديس مريم العذراء، والاعتقاد بشفاعة القديسين عند الله، وكانت هناك حركات مماثلة في عدد من الدول الأوروبية، انتهت بنشوء عدة مذاهب بأسماء مختلفة تنضوي جميعها تحت راية البروتستانية (المترجم).

[٦] يعدّ بيتر الكبير (١٦٧٢ – ١٧٢٥م) أعظم القياصرة الروس، وقد حكم روسيا سنة ١٦٨٢م حتى وفاته، وفي عهده تحولت روسيا إلى أمبراطورية وقوة أوروبية رئيسة (المترجم).

[٧] العائلة القيصرية المالكة التي حكمت روسيا من سنة ١٦١٣ م إلى سنة ١٩١٧ م (المترجم).

لقد تحولت الثورتان الفرنسية والروسية إلى حركتين قوميتين، وهذه الحقيقة تدل على أن القومية، في العصور الحديثة، أصبحت المصدر الأول لتوليد الحماسة الجماهيرية، كما تدل على أنه لا بد من استثمار الفوران القومي إذا أريد للتغييرات الجذرية التي استهدفتها الثورة أن تتحقق.

ومن هنا للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الصعوبات التي تواجهها الحكومة العمالية البريطانية الراهنة مرجعها أنها أرادت تغيير الاقتصاد وأسلوب الحياة لقرابة ٤٩ مليون مواطن في جو خال من الانفعال والحماسة. شعر زعماء حزب العمال بالتقزز من الأساليب التي لجأت إليها الحركات الجماهيرية المعاصرة، ولهذا أبقوا حزبهم بعيدًا عن الحماسة الثورية، إلا أن الاحتمال ما زال قائمًا في أنهم سيلجؤون إلى إثارة التطرف القومي، بحيث «تصبح الاشتراكية قومية، والقومية اشتراكية»[٨].

إن نجاح اليابان الأسطوري في التحوّل إلى دولة حديثة لم يكن ليتحقق لولا روح الصحوة في القومية اليابانية. كما أنه من الصحيح «على الأرجح» أن التحديث الذي طال بعض الدول الأوروبية، وعلى الأخص ألمانيا، تسارع بسبب شيوع الغليان القومي. ولنا، بمتابعة الإرهاصات المعاصرة، أن نتوقع أن نهضة آسيا لن تتحقق إلا عبر الحركات القومية. في تركيا كان تصاعد حركة قومية تركية حقيقية سبب نجاح كمال أتاتورك في تحديث الدولة بين عشية

---

[8] E. H. Carr, Nationalism And After, (New York: Mac Millan Company, 1945), P20

وضحاها[٩] أما في مصر، التي لم تعرف حركات جماهيرية، فقد كان التحديث بطيئا ومتقطعًا برغم أن حكامها رحبوا، منذ عهد محمد علي بالأفكار الغربية، وعلى الرغم من أن صلاتها بالغرب كانت وثيقة ومتنوّعة. والصهيونية تقدم نفسها لأتباعها على أنها تطوير لدولة متخلفة سيحوّل أصحاب الدكاكين الصغيرة إلى زراع وعمال وجنود. ولو استطاع تشانج كاي شيك[١٠] أن يبدأ حركة جماهيرية فعلية، أو على الأقل، لو تمكن من الحفاظ على الحماسة القومية التي أشعلها الغزو الياباني، لكان الآن الشخص الذي يطوّر الصين.

إلا أن فشله هذا هو الذي مكن عباقرة «القدسنة» أي تحويل أي أهداف عملية إلى قضية مقدّسة، من تنحيته جانبا. وليس من الصعب أن نفهم لماذا كان من المتعذر على أمريكا وبريطانيا (أو أي ديمقراطية غربية) أن تقوم بدور بارز في إيقاظ الأمم الآسيوية من تخلفها وجمودها: الديمقراطيات الغربية لا تريد ولا تستطيع لو أرادت إشعال الصحوة القومية بين ملايين آسيا. إن إسهام الديمقراطيات الغربية في يقظة الشرق كانت غير مباشرة وغير مقصودة: لقد أثارت النقمة ضد الغرب، وهذه النقمة هي التي تحرّك الشرق الآن، بعد قرون من الجمود.

---

[٩] بدأ مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ – ١٩٣٨م) حياته العملية ضابطا في الجيش العثماني، وأبدى كفاءة عالية قادته إلى انتصارات عسكرية، أهمها انتصاره على جيش الحلفاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى. في سنة ١٩٢٣ م أعلن إلغاء الخلافة وأصبح أول رئيس للجمهورية التركية وخلال مدة حكمه تخلص من كل التقاليد العثمانية وحول تركيا إلى علمانية على النسق الأوروبي (المترجم).

[١٠] رأس تشانج كاي شيك (١٨٨٧م – ١٩٧٥م) المجلس العسكري في جمهورية الصين الوطنية، وعند وفاة الزعيم الصيني سن. يات. سن تولى الزعامة وقاد المقاومة ضد الغزاة اليابانيين، إلا أنه خسر الحرب الأهلية التي اندلعت مع الشيوعيين سنة ١٩٤٥م، واضطر إلى اللجوء إلى جزيرة تايوان، حيث أقام حكومة منفى. (المترجم).

على الرغم من أن الرغبة في التغيير قد لا تكون عميقة وقوية، من المفيد أن نحلل هذه الرغبة عسى أن تلقي بعض الضوء على الطريقة التي تعمل بها الحركات الجماهيرية، ومن هنا فسوف يكون سؤالنا اللاحق عن طبيعة الرغبة في التغيير.

٢

تكمن فينا جميعا نزعة إلى البحث، خارج أنفسنا، عن العوامل التي تصوغ حياتنا، يرتبط النجاح أو الفشل، عادة في أذهاننا بما يدور حولنا. وهكذا ترى أن الأشخاص الراضين عن أنفسهم يعدّون هذا العالم طيبًا ويحاولون المحافظة عليه، بينما نجد المحبطين يفضلون التغيير الجذري.

إن النزعة إلى البحث عن أسباب خارج أنفسنا تستمر، حتى عندما يكون من الواضح أن وضعنا هو نتيجة عوامل داخلية، كقدرتنا أو شخصيتنا أو مظهرنا أو صحتنا، وهلم جرّا. يقول ثورو[١١]: عندما يشكو المرء شيئا يحول بينه وبين القيام بواجباته، حتى عندما يجد ألما في أمعائه... فإنه يبادر إلى محاولة لإصلاح العالم[١٢].

من المفهوم أن الفاشلين ينزعون إلى تحميل العالم جريرة فشلهم. إلا أنه من العجيب أن الناجحين، بدورهم، مهما كان اعتزازهم بحصافتهم وخبرتهم وتوفيرهم، وبقية هذه الخصال الحميدة، يؤمنون، في قرارة أنفسهم، أن نجاحهم جاء نتيجة المصادفات والحظ

---

[١١] كان هنري ديفيد ثورو (١٨١٧ – ١٨٦٢م) كاتبًا وفيلسوفا أمريكيا، وكانت مقالاته عن البيئة وحمايتها رائدة في بابها ومهدت الطريق للاهتمام المعاصر بالبيئة (المترجم).

[12] Henry David Thoreu, Walden, Modern Library Edition (New York: Random House 1937), P. 69.

السعيد. إن ثقة أكثر الناس نجاحًا في أنفسهم ثقة ناقصة؛ لأنهم ليسوا متأكدين من أنهم يعرفون كل العوامل التي كانت وراء نجاحهم.

يبدو العالم الخارجي، من وجهة نظر هؤلاء، آلة تدور على نحو يستحيل ضبطه أو توقعه، وما دامت هذه الآلة تدور في صالحهم فإنهم يتجنبون العبث بها. وهكذا نرى أن الرغبة في التغيير والرغبة في مقاومة التغيير تنبعان من المصدر نفسه: الإيمان بتأثير العوامل الخارجية.

٣

إن عدم الرضا، في حد ذاته، لا يخلق بالضرورة رغبة في التغيير: لا بدّ من وجود عوامل أخرى قبل أن يتحول عدم الرضا إلى تذمّر، وأحد هذه العوامل هو الإحساس بالقوّة.

إن الذين يخافون محيطهم لا يفكرون في التغيير مهما كان وضعهم بائسا. عندما يكون نمط حياتنا مضطربا واهيا إلى درجة تمنعنا من التحكم في ظروفنا المعيشية، فسبيلنا الاحتماء بما هو مألوف. إننا نقاوم شعورنا بالخوف بإخضاع وجودنا لروتين ثابت، ونوهم أنفسنا أننا نستطيع، بهذه الوسيلة، تجنب أي مفاجآت. وهكذا نجد الصيادين والبدو الرحل والمزارعين الذين يعتمدون على تقلبات الطقس، والفنانين الذين ينتظرون الإلهام، والرجل البدائي الذي يخشى محيطه، يخافون التغيير ويواجهون العالم، كما يواجهون قضاة يتحكمون في مصيرهم.

كما أن الفقراء فقرًا مدقعًا يرهبون محيطهم، ولا تراودهم رغبة في التغيير. تبدو الحياة خطرة عندما يتهددنا الجوع والبرد. من هنا نجد عند الفقراء نزعة محافظة بعمق النزعة المحافظة عند الأغنياء، وهذه النزعة لدى الطرفين عامل مهم في إبقاء الأوضاع القائمة.

إن الأشخاص الذين يندفعون لإحداث تغييرات واسعة يشعرون عادة، أنهم يمتلكون قوة لا تقهر، كان الجيل الذي صنع الثورة الفرنسية يؤمن إيمانا قاطعا بقوة العقل البشري الخارقة، وبالآفاق غير المحدودة المفتوحة أمام الذكاء البشري. يقول دي توكوفيل[١٣] عن هذه الحقبة: إن الإنسانية لم تشعر قبلها قط بهذا الاعتزاز بنفسها وهذه الثقة بقوتها. وجنبا إلى جنب مع هذه الثقة المفرطة بالنفس كان هناك ظمأ عالمي إلى التغيير سكن كل العقول بسهولة[١٤] ومن ناحية أخرى، كان لدى لينين[١٥] والبلاشفة الذين انطلقوا بلا حذر يخلقون الفوضى التي تستهدف إيجاد عالم جديد إيمان أعمى بقوة المذهب الماركسي. أما النازيون فلم يكن لديهم مذهب يماثل المذهب الماركسي قوة، ولكنهم آمنوا بقائد معصوم يقودهم إلى حياة جديدة. من المشكوك فيه أن تحقق النازية ما حققته من نجاح لولا الاعتقاد بأن الخطط العسكرية المبتكرة التي اتبعتها ألمانيا والدعاية الفاعلة جعلت ألمانيا قوة لا تقهر.

حتى الرغبة الواعية في التطور لا بد أن تكون مدعومة بالإيمان، الإيمان بطيبة الطبيعة البشرية والإيمان بقوة العلم المطلقة. وهذا النوع من الإيمان فيه شيء من التحدي وشيء من الهرطقة،

---

[١٣] كان أليكس دي توكوفيل (١٨٠٥ – ١٨٥٩م) مفكرًا سياسيا ومؤرخا فرنسيًا، اشتهر بكتاباته العميقة عن الديمقراطية الأمريكية والثورة الفرنسية (المترجم).

[١٤] ALEXTS de Tocqueville, On the State of Society In Franch Before the Revolution of 1789 (London: John Murray, 1888), PP 198 – 199.

[١٥] كان فلاديمير لينين (١٨٧٠ – ١٩٢٤م) زعيمًا شيوعيًا بارزا، قاد ثورة أكتوبر ١٩١٩م في روسيا وأصبح أول رئيس للدولة الثورية في سنة ١٩٢٢م، وتعرف نظرياته التي أسهمت في إثراء النظرية الماركسية باسم «اللينينية» (المترجم).

شأنه شأن إيمان الذين يقول عنهم العهد القديم: «بنوا مدينة وصرحًا يصل إلى السماء، وتصوروا أنه لا شيء مما حلموا به يمكن أن يستعصي عليهم"[16].

[16] Genesis ll: 4: 6

٤

قد يبدو، للوهلة الأولى أن امتلاك القوة سيؤدي، في حد ذاته، إلى موقف يتحدّى العالم ويتطلع إلى التغيير، إلا أن الأمور لا تسير، بالضرورة، على هذا النحو. قد يكون القوي وديعا وداعة الضعيف. ما يهم ليس امتلاك القوة، ولكن الإيمان المطلق بالمستقبل. عندما يغيب هذا الإيمان تصبح القوة داعمة للأوضاع القائمة ومناهضة للتغيير. وعلى العكس، عندما يكون هنالك أمل لا حدود له في المستقبل فإن الأمل، حتى عندما يفتقر إلى القوة، يمكن أن يقود إلى مغامرات يائسة. سبب ذلك أن المشحونين بالأمل يستمدون القوة من أغرب المصادر، من شعار أو كلمة. إن الأمل الفاعل المحرك لا بد أن يكون أملاً في المستقبل. وهكذا نجد أن المذهب الفاعل، بالإضافة إلى كونه مصدرًا للقوة، لا بدّ أن يدّعي أنه يملك مفاتيح المستقبل.

إن الذين يحاولون تغيير أمة ما أو تغيير العالم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بتوليد التذمر واستثماره، أو بإثبات أهمية التغييرات المنشودة وضرورتها، أو بإجبار الناس على تغيير أسلوب حياتهم. على الراغبين في التغيير أن يوقدوا الآمال الجامحة، وليس من المهم أن ترتبط هذه الآمال بجنة سماوية، أو بجنة على الأرض، أو أن تنصب على نهب ثروات هائلة من دول أخرى، أو على السيطرة على العالم. إذا نجح الشيوعيون في الفوز بأوروبا وبجزء كبير من العالم، فلن يكون هذا لأنهم استطاعوا إشاعة التذمر والكراهية، ولكن لأنهم عرفوا كيف يشعلون في النفوس الآمال الجامحة.

٥

إن الفارق بين المحافظين والراديكاليين هو في الأساس فارق بين مواقفهم من المستقبل، يدفعنا الخوف من المستقبل إلى أن نتمسك بالحاضر، بينما يجعلنا الأمل في المستقبل متحمسين للتغيير. كل من الغني والفقير، والقوي والضعيف، والناجح والفاشل، قد يكون خائفا من المستقبل. عندما يبدو الحاضر في أعيننا مثاليًا، بحيث إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه هو استمراره في المستقبل، فإن التغيير بالنسبة لنا لا يعني سوى تدهور الوضع. ولهذا نجد رجالا حققوا الكثير من المنجزات، ورجالا يعيشون حياة مليئة نشطة يقفون، عادة، ضد أي تغيير جذري. والمحافظة التي تميز المرضى المقعدين وكبار السن تنبع بدورها من الخوف من المستقبل. يخشى هؤلاء أن يأتي المستقبل ومعه المزيد من علامات الضعف والوهن ويشعرون أن أي تغيير سوف يكون إلى الأسوأ. كما أن الفقراء فقرًا مدقعًا لا يشعرون بأي أمل في المستقبل الذي يبدو كما لو كان فخا منصوبا أمامهم عليهم أن يتحاشوه. عند هؤلاء كلهم لا يعني التغيير سوى المتاعب.

إلا أن الصورة تختلف تماما عندما يدخلها الأمل. لا تهمّ طبيعة الشخص الذي يحركه الأمل الجامح، قد يكون مثقفا متحمّسًا، أو مزارعًا يتوق إلى المزيد من الأرض، أو نبيلاً أرستقراطيًا، أو تاجرًا أو صانعًا أو عاملا بسيطا. كل هؤلاء يتحدون الحاضر، ويدمرونه عند الضرورة، ويخلقون العالم الجديد الذي يمكن أن يحقق آمالهم. وهكذا نجد أنه يمكن أن تكون هناك ثورات يقودها أغنياء، بالإضافة إلى ثورات يقودها فقراء بدأت في بريطانيا في

القرنين السادس والسابع عشر ثورة مُلاك[17] وكانت تستهدف تعزيز الملكيات الفردية وقصرها على ملاكها بدلا من بقاء جزء منها مشاعًا كما كان عليه الوضع. نتيجة هذه الحركة أصبحت صناعة الصوف طريقا إلى الرخاء، بينما أصبح الرعي أكثر جدوى من زرع المحاصيل. عندما قام المّلاك بطرد المزارعين العاملين لديهم، وأغلقوا أراضيهم في وجوه العامة، أحدثوا تغييرات عميقة في نسيج البلاد الاقتصادي والاجتماعي. «كان اللوردات والنبلاء يهدمون النظام الاجتماعي القائم، ويزيلون قوانين وأعرافا قديمة بالعنف حينًا، وبالضغط والتهديد أحيانًا»[18] كما قامت في إنجلترا ثورة أغنياء ثانية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي الثورة الصناعية[19]. ألهبت الاحتمالات المثيرة الجديدة التي تكشفت عنها الميكنة عقول الصناع والتجار، فقادوا ثورة لا تختلف في مداها وعنفها عن أي ثورة دينية. استطاع هؤلاء المواطنون الأغنياء خلال مدة قصيرة نسبيًا تغيير وجه الحياة في بريطانيا تغييرًا كاملا.

عندما تصطرع الآمال والأحلام الصاخبة في الشوارع، فعلى المواطنين المسالمين أن يدخلوا بيوتهم ويغلقوا أبوابهم ونوافذهم، حتى تنتهي الفورة. هناك فرق شاسع بين الآمال التي

---

[17] أدت هذه «الثورة» إلى تشريد مئات الآلاف من الفلاحين وحرمانهم مصدر دخلهم الوحيد، كما أدت إلى ارتقاء الملاك الزراعيين قمة الهرم الاقتصادي والسياسي، وبقيت آثارها مدة طويلة: في أواخر القرن التاسع عشر كان قرابة ألفي شخص يملكون نصف الأراضي الزراعية في إنجلترا وويلز (المترجم).

[18] Karl Polanyi, The Great Transformation (Ney York: Farrar And Rinc Hart, INC, 1944), P.35.

[19] بدأت الثورة الصناعية بميكنة صناعة النسيج، ثم انتقلت إلى صناعة الحديد، وقادت إلى التوسع في استخدام الطاقة البخارية وانتقلت من إنجلترا إلى بقية أنحاء العالم الغربي، ثم إلى بقية أنحاء العالم، حيث اتخذت اسم «التصنيع» (المترجم).

تبدو رقيقة نبيلة وبين الأفعال الفظيعة التي تتبعها. تخطر الآمال كفتيات رائعات الجمال يرقصن ويغنين إلا أنه سرعان ما يتبعهن جيش رهيب يحمل الموت والخراب.

٦

لا بدّ لكي يندفع الرجال في مغامرة تستهدف تغييرًا شاملا من توفر عدة شروط. لا بد أن يشعروا بالتذمّر من غير أن يكونوا فقراء فقرًا مدقعًا. ويجب أن يكون لديهم الشعور بأنهم عبر اعتناق العقيدة الصحيحة أو اتباع الزعيم الملهم، أو اعتناق أساليب جديدة في العمل الثوري، سيصبحون قوة لا تقهر. بالإضافة إلى ذلك كله، يجب أن تكون لديهم تطلعات جامحة إلى المنجزات التي ستجيئ مع المستقبل. وفي النهاية، يجب أن يكونوا جاهلين جهلا تامًا العقبات التي ستعترض طريقهم. لم يكن لدى الرجال الذين أشعلوا الثورة الفرنسية أي قدر من الخبرة السياسية. والشيء نفسه يصدق على البلاشفة والنازيين والثوار في آسيا. أما الرجال المجربون ذوو الخبرة فيأتي دورهم في مرحلة لاحقة: لا ينضم هؤلاء إلى الحركة إلا بعد التحقق من نجاحها. ولعل خبرة المواطنين الإنجليز السياسية هي التي تجعلهم بمنأى عن الحركات الثورية.

الفصل الثاني: الرغبة في بدائل

٧

هناك فارق أساسي بين جاذبية الحركات الجماهيرية وجاذبية المنظمات العملية (كالأحزاب السياسية التقليدية والنقابات وتجمعات المهن الحرة).

تقدم المنظمة العملية لأعضائها فرصًا لتطوير الذات، وتكمن جاذبيتها في تحقيق المصلحة الذاتية لأعضائها. وعلى النقيض من ذلك، نرى أن الحركة الجماهيرية، خاصة في مرحلتها الأولى النشطة، لا تجذب أولئك الذين يحبون أنفسهم، ويحرصون على تطويرها، بل تستميل أولئك الذين يودون أن يتخلصوا من أنفسهم نهائيا. تستطيع الحركة الجماهيرية أن تجذب أتباعا وتحتفظ بهم، لا لأنها تلبي الحاجة إلى تطوير الذات، ولكن لأنها تلبي الشوق إلى الخلاص من الذات.

يصعب على الذين يعتقدون أن حياتهم فسدت تمامًا أن يستهويهم تطوير أنفسهم: مهما كان احتمال حصولهم على فرص أفضل، فإن هذا لا يحفزهم إلى بذل جهود خارقة، ولا يدفعهم إلى الولاء الأعمى. يعدّ هؤلاء المصلحة الفردية شيئا مشبوها شريرًا، لا يتسم بالنزاهة، ولا يمكن أن يجلب الحظ. وكل ما يبذل لتطوير الذات يبدو في نظر هؤلاء عملا محكوما عليه بالفشل: لا شيء ينطلق من النفس (التي يكرهونها) يمكن أن يكون جيدًا ونبيلا. إن شوقهم العميق ينصب على حياة جديدة، وميلاد جديد، وثقة جديدة، أو على الأقل أمل جديد، ومعنى جديد لقيم الحياة، وهذا كله لا يتحقق إلا بالانتماء إلى قضية مقدّسة. إذا انضم هؤلاء

الأعضاء إلى الحركة مؤمنين بها فإنهم سيولدون ولادة جديدة في مجتمعنا الجديد المترابط. حتى عندما يكتفون بالتعاطف مع الحركة، فإن التماهي مع جهود الحركة ومنجزاتها ومستقبلها يمنحهم الشعور بالكرامة والثقة.

إن المحبطين يجدون في الحركة الجماهيرية بدائل: إما لأنفسهم بأكملها أو لبعض مكوناتها، الأمر الذي لا يستطيعون تحقيقه بإمكانياتهم الفردية.

قد نجد بين الأتباع الذين يبادرون إلى الانضمام إلى حركة جماهيرية عددًا من المغامرين الطامعين في تحسين أوضاعهم والحصول على الشهرة أو القوة. وفي الوقت نفسه، قد نجد درجة من الإخلاص الذي ينكر الذات والولاء الأعم عند بعض الذين يلتحقون بالشركات والأحزاب السياسية التقليدية وبقية المنظمات العملية. إلا أن الحقيقة هي أن المنظمة العملية لا تستطيع البقاء ما لم تلب المصالح الفردية لأتباعها، بينما تعتمد قوة الحركة الجماهيرية وحيويتها على قدرتها على تلبية رغبة أتباعها في محو الذات. وعندما تبدأ حركة جماهيرية في اجتذاب أناس لا تهمهم سوى مصالحهم الذاتية، فمعنى هذا أنها اجتازت مرحلتها الأولى النشطة، بمعنى أنها لم تعد معنية بإيجاد عالم جديد، بل بالحفاظ على الأوضاع الراهنة التي أوجدتها وحمايتها. يقول هتلر[20] «كلما زادت الوظائف والمناصب التي تقدمها الحركة كلما انخفض مستوى الأتباع الذين ينضمون إليها، وفي النهاية سيكون السياسيون الانتهازيون

[20] أسس أدولف هتلر (١٨٨٩ – ١٩٤٥م) الحزب النازي الذي تبنى شعارات معادية لليهود وللشيوعية، ووصل إلى السلطة في انتخابات حرة سنة ١٩٣٣م، وبعدها حول هتلر ألمانيا إلى ديكتاتورية مطلقة مدججة بالسلاح وأدى غزوه لبولندا سنة ١٩٣٩ م إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية التي انتهت بانتصار الحلفاء وانتحار هتلر. وقد كان هتلر مسؤولا عن جرائم كثيرة ضد الإنسانية أبشعها إبادة ملايين اليهود في حمامات الغاز (المترجم).

من الكثرة، بحيث لا يستطيع المجاهد القديم النزيه أن يتعرّف على حركته القديمة... وعندما يحدث هذا فإن رسالة هذه الحركة تكون قل انتهت»[٢١].

٨

إن الإيمان بقضية مقدّسة هو– إلى درجة كبيرة – محاولة للتعويض عن الإيمان الذي فقدناه بأنفسنا.

٩

كلما استحال على الإنسان أن يدعي التفوق لنفسه، كلما سهل عليه أن يدّعى التفوق لأمته، أو لدينه أو لعرقه، أو لقضيته المقدّسة.

١٠

ينزع الرجل إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة، عندما تكون جديرة بالاهتمام. أما عندما لا تكون لديه شؤون خاصة حقيقية، فإنه ينزع إلى نسيان شؤونه التي فقدت معناها والاهتمام بشؤون الآخرين الخاصة. يعبر هذا الاهتمام عن نفسه بالغيبة والتجسس والفضول، كما أنه يتجه إلى اهتمام غير طبيعي بالشؤون المجتمعية والقومية والعرقية. إننا عندما نهرب من أنفسنا نلقي بثقلنا على عاتق جارنا، أو نطبق على عنقه.

١١

[21] Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943), P. 105.

إن اعتقادنا أن لدينا واجبًا مقدّسًا إزاء الآخرين كثيرًا ما يكون طوق النجاة، الذي نحاول بواسطته إنقاذ أنفسنا من الغرق. وعندما نمد يدنا نحو الآخر فنحن، في حقيقة الأمر، نبحث عن يد تنتشلنا. عندما تشغلنا واجباتنا المقدّسة نهمل حياتنا ونتركها خاوية بلا معنى. ولا شك في أننا عندما نستبدل بأنفسنا المنكفئة على ذاتها حياة بعيدة عن الأنانية نكون قد حققنا قدرًا كبيرًا من احترام الذات. إن غرور منكري الذات، حتى عندما يظهرون بمظهر التواضع، لا حدود له.

١٢

من أهم ما يجذب الناس إلى الحركة الجماهيرية أنها تقدم بديلًا للأمل الفردي الخائب، وهذه الجاذبية ذات فاعلية كبيرة في المجتمعات التي تؤمن بضرورة التطور، حيث يبدو الغد شيئا مثيرًا، كما يصبح الإحباط أمرًا فظيعا. يقول روشننج عن ألمانيا في المدة التي سبقت هتلر: إن الشعور بأننا وصلنا نقطة الصفر كان واحدًا من أصعب الأشياء التي قاسيناها بعد الحرب (العالمية الأولى) التي خسرناها[٢٢]. في المجتمعات الحديثة لا يمكن للناس أن يعيشوا بلا أمل، إلا إذا تم تخديرهم وإبقاؤهم مبهوري الأنفاس نتيجة الضغط المستمر. إن اليأس الذي تسببه البطالة لا ينبع من خوف الفقر فحسب، وإنما من مواجهة مستقبل من الفراغ. والعاطلون ينزعون إلى اتباع الذين يبيعونهم الأمل قبل اتباع الذين يقدمون لهم العون.

---

[22] Hermann Rauschning, The Conservative Revolution (New York: G. P. Putnam,S Sons, 1941), P.189.

كثيرا ما تُنتقد الحركات الجماهيرية؛ لأنها تخدّر أتباعها بأمل المستقبل، وتأخذ منهم متعة الحاضر. إلا أن الحاضر يبدو في نظر المحيط، قاسيًا لا تمكن معالجته حتى بالمتع وأسباب الراحة. إن الأمل هو السبيل الوحيد لإدخال القناعة والرضا في أذهان المحبطين[٢٣].

١٣

عندما نجد أن اهتماماتنا الذاتية واحتمالات المستقبل لا تستحق أن نعيش من أجلها، نصبح في حاجة ماسة إلى شيء منفصل عن أنفسنا نحيا له. إن الإخلاص لحركة ما وإعطاءها الولاء المطلق لا يعدو أن يكون محاولة للتعلق بشيء يمنح حياتنا الفاشلة معنى وقيمة[٢٤].

من هنا يجيء اعتناقنا البديل قويًا وعنيفا. إن بوسعنا أن نثق في أنفسنا ثقة محدودة، أما إيماننا بأمتنا أودِيننا أو عرقنا أو قضيتنا المقدّسة فيجيء عادة، مطلقا لا يقبل المساواة. إن البديل الذي نتبناه باعتدال لا يمكن أن يحل محل أنفسنا التي نود نسيانها ومحوها. لن نشعر أن لدينا شيئا نستحق العيش من أجله ما لم نكن مستعدين للموت في سبيله. هذا الاستعداد للتضحية بالنفس هو الذي يثبت لنا وللآخرين أن البديل الذي فضلناه على الحاضر الفاسد الفاشل هو، فعلا، أفضل بديل يمكن تصوّره.

---

[23] Thomas Gray, Letters, Vol.1, P.137. Quoted By Gamaliel Bradford, Bare Souls (New York Harper & Brothers, 1924), P. 71.

[٢٤] يصور توفيق الحكيم في روايته الشهيرة «عودة الروح» العلاقة بين الشعور بالفشل والنزعة الثورية، حسين يقول: «إن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قبل قليل ساكنين كأصحاب بنك أفلس تخنقهم الكآبة والضيق، كأنهم في سجن من نفوسهم لا يستطيعون منه خلاصًا. هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة (ثورة ١٩١٩م في مصر) تنفجر حتى انفجروا معها، وإذا هم يروحون ويغدون منهمكين فيها وفي حوادثها المتجدّدة المثيرة للحواس، وإذا هم قد ذهب انقباضهم ووحشتهم، وحل محله الاهتمام والكفاح والتحمس... عجبًا! أترى كان لا بد من الثورة لتصريف عواطف هؤلاء المنكوبين في عواطفهم؟!!». انظر: عودة الروح (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥م) ص ٤٢٧ (المترجم).

الفصل الثالث: التبادلية بين الحركات الجماهيرية

١٤

عندما يصبح الناس جاهزين للانضمام إلى حركة جماهيرية فإنهم، عادة، يصبحون جاهزين للالتحاق بأي حركة فاعلة، وليس بالضرورة إلى حركة بعقيدة معينة أو برنامج معين. في المدة التي سبقت صعود هتلر إلى الحكم كان من المستحيل أن يتوقع أحد هل سينضم الشباب المتوترون إلى الشيوعيين أو إلى النازيين. وفي أثناء غليان روسيا القيصرية كان اليهود والروس مستعدين للثورة على القيصر، وللانضمام إلى الصهيونية في الوقت نفسه: في العائلة الواحدة كان أحد الأبناء ينضم إلى الثوار والآخر إلى الصهاينة. ينقل الدكتور حاييم وايزمان[٢٥] عن أمه العبارة الآتية: «كل ما يمكن أن يحدث سوف يكون سارًا. إذا كان صموئيل (الابن الثوري) على حق، فسوف نكون سعداء في روسيا، وإذا كان حاييم (الابن الصهيوني) على حق، فسوف نذهب للعيش في فلسطين»[٢٦].

هذا الاستعداد للتحول لا ينتهي، بالضرورة، عند اعتناق المؤمن الصادق حركة ما. عندما تكون هناك حركات جماهيرية متنافسة نجد حالات كثيرة من نقل الولاء من حركة إلى أخرى. إن المعجزة التي حولت «شاؤول» كاره المسيحيين إلى بولّ المسيحي الصادق تتكرر في تاريخ الحركات الجماهيرية. وفي هذا العصر تنظر كل حركة جماهيرية إلى أتباع الحركات

[٢٥] كان حاييم وايزمان (١٨٧٤ – ١٩٥٢م) من رواد الحركة الصهيونية، وقد كان أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية، كما كان أول رئيس لإسرائيل وكانت رئاسته فيما بين ١٩٤٩ – ١٩٥٢م (المترجم).

[26] Chaim Weismann, Trial And Error (New York: Harper & Brothers, 1949), P.13.

الأخرى بوصفهم أعضاء محتملين يمكن نقل ولائهم. كان هتلر يعدّ الشيوعيين الألمان أتباعًا محتملين للنازية: «إن الديمقراطي الاشتراكي، سواء كان صغيرًا أو نقابيًا قياديًا، لن يتحوّل إلى نازي، أما الشيوعي فبإمكانه، دوما، التحول»[٢٧]. قال الزعيم النازي روم: إن بوسعه تحويل أشد الشيوعيين احمرارًا إلى نازي متعصب خلال أربعة أسابيع[٢٨]. ومن ناحية أخرى كان الشيوعي كارل إديك يعدّ لابسي القمصان البنية النازيين مددًا احتياطيا يمكن أن يتحول إلى الحزب الشيوعي[٢٩].

وحيث إن كل الحركات الجماهيرية تستمد أتباعها من الأنماط البشرية نفسها وتجذب النوعية نفسها من العقول، فإن بوسعنا أن نستنتج ما يأتي:

(أ) جميع الحركات الجماهيرية متنافسة فيما بينها ومغنم واحدة منها لا بدّ أن يكون مغرم الأخرى.

(ب) جميع الحركات الجماهيرية تبادلية، بوسع أي حركة منها أن تحول نفسها، بسهولة، إلى حركة أخرى. يمكن للحركة الدينية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية أو حركة قومية، كما أنه يمكن للثورة الاجتماعية أن تتحول إلى حركة قومية متطرفة أو إلى حركة دينية، ويمكن للحركة القومية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية، أو إلى حركة دينية.

[27] Hermann Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P, Putnam.s Sons, 1940), P. 134.

[28] Konrad Heiden, Der Fuehrer (Boston: Houghtion Mifflin Company, 1944), P.30.

[29] Fritz August Voigt, Unto Caesar (G. P. Putnam.s Sons, 1938), P.283.

يندر أن تكون للحركة الجماهيرية طبيعة واحدة، فهي كثيرًا ما تظهر خصائص من حركات أخرى، وأحيانا خصائص من حركتين أو ثلاث في الوقت نفسه. كانت هجرة اليهود القدماء من مصر ثورة عبيد وحركة دينية وحركة قومية. وكانت القومية اليابانية المتطرفة ذات طابع ديني. أما الثورة الفرنسية، فقد شكلت دينا جديدًا. كانت لهذا الدين عقيدته، مبادئ الثورة الخالدة: الحرية والإخاء والمساواة. وكانت له طقوس عبادة هي مزيج من الطقوس الكاثوليكية والمهرجانات الشعبية. وكان لهذا الدين قدّيسوه: أبطال الحرية وشهداؤها[٣٠] وفي الوقت نفسه كانت الثورة الفرنسية حركة قومية. قررت الجمعية التشريعية الفرنسية في ١٧٩٢م نصب محاريب في كل مكان تحمل هذه العبارة «ليحيا المواطن ويعيش ويموت من أجل وطن الآباء والأجداد»[٣١].

وكان لحركات الإصلاح البروتستانتي جانب ثوري عبّر عن نفسه في حركات تمرد الفلاحين، كما كان لها، أيضا جانب قومي. قال لوثر: «نحن الألمان في نظر الإيطاليين مجرد خنازير، وهم يستغلوننا عن طريق الاحتيال، ويمتصون خيرات بلادنا حتى النخاع. استيقظي يا ألمانيا!»[٣٢].

والمظاهر الدينية للثورتين البلشفية والنازية واضحة للعيان. تحتل المطرقة والمنجل في الأولى، والصليب المعقوف في الثانية، المكانة نفسها التي يحتلها الصليب المسيحي. وطقوس المواكب

[30] Carl L. Becker, The Heavenly City of The Elgteenth. Century Philos Hers. Cnewhaven: Yale university Press, 1932) P 155.
[31] A. Mathiez, Les Origins Des Cultes Rervolutionnaire P 31 – Quoted By Carlton J. H. Hayes, Essays On Nationalism (New York: Macmillan Company, 1926) P.103.
[32] Frantz Funck– Brentano, Luther, (London: Jonathan Cape, ltd. 1939) P278

الحاشدة في الحركتين تحل محل المسارات الدينية. ولكل من الحركتين عقيدة، وقدّيسون، وأضرحة مقدّسة، كما أن الحركتين قوميتان بامتياز. كانت الثورة النازية قومية منذ البداية، أما الثورة البلشفية فأصبحت قومية في تطور لاحق.

تمثل الصهيونية حركة قومية وثورة اجتماعية، كما أنها في نظر اليهود الأرثوذكس حركة دينية أيضا. وللقومية الأيرلندية جذور دينية راسخة. والحركات الجماهيرية المعاصرة في آسيا هي في الوقت نفسه قوية وثورية[٣٣].

١٦

كثيرا ما يكون السبيل الوحيد لإيقاف حركة جماهيرية هو إيجاد حركة بديلة. يمكن إيقاف ثورة اجتماعية بتشجيع حركة دينية أو قومية. نجحت الكاثوليكية، في البلاد التي استطاعت أن تستقطب فيها الجماهير، في وقف الزحف الشيوعي. وفي اليابان كانت كل حركات الرفض الاجتماعي تمر عبر قناة القومية. وفي جنوب الولايات يحول التضامن العرقي بين البيض دون قيام ثورة اجتماعية من الفقراء على الأغنياء. وتصدق الملاحظة نفسها على الفرنسيين في كندا، والبوير في جنوب أفريقيا.

[٣٣] يبدو أن ملاحظات المؤلف عن الصفة المزدوجة للحركات الجماهيرية تنطبق، بحذافيرها، على الجماعات الأصولية المتطرفة، الحاضنة الطبيعية للإرهاب، فهي في حقيقة أمرها، برغم شعاراتها وادعاءاتها الإسلامية، حركات سياسية تستهدف الوصول إلى السلطة (المترجم).

إلا أن استبدال حركة بحركة عملية لا تنجح في كل الأحوال، وقد تكون باهظة الثمن[٣٤]، على الذين يريدون الحفاظ على الحاضر، كما هو ألّا يغامروا باللعب في الحركات الجماهيرية: حيث توجد حركة جماهيرية توجد مناهضة للوضع القائم. في إيطاليا وألمانيا، في مدة ما قبل الحرب العالمية الثانية تصرف رجال الأعمال بطريقة بدت لهم منطقية، فدعموا الفاشية والنازية لإيقاف المد الشيوعي، إلا أنهم بعملهم هذا سارعوا، برغم عقلانيتهم، في القضاء على أنفسهم.

هناك بدائل أكثر أمناً للحركات الجماهيرية. يمكننا القول، على وجه العموم: «إن أي مجهود يحول دون تشظي الذات، ويتيح فرصًا جديدة، وبدايات جديدة، سيساعد على تقليص الحركات الجماهيرية. سوف نناقش هذه البدائل في موضع لاحق، أمّا هنا فسنناقش بديلا غريبًا بعض الشيء، للحركات الجماهيرية هو الهجرة إلى الخارج».

١٧

تحقق الهجرة للمحيطين الأمل الذي يتوخونه عند الانضمام إلى حركة جماهيرية: التغيير والبداية الجديدة. والأشخاص الذين يسارعون إلى الانضمام إلى الحركات الجماهيرية سوف يسارعون إلى الهجرة لو أتيحت لهم الفرصة. من هنا يمكننا القول: إن الهجرة يمكن أن تكون بديلا للحركة الجماهيرية. لو رحبت الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية في أعقاب

[٣٤] يستحضر المرء تجربة الرئيس المصري أنور السادات، حينما حاول – في سبعينيات القرن الماضي ضرب التنظيمات الناصرية بتشجيع التنظيمات الأصولية، فكانت النتيجة وبالا عليه (المترجم).

الحرب العالمية الأولى بأعداد كثيفة من أوروبا لما قامت الحركات الفاشية والنازية. وفي الولايات المتحدة ساعد السماح بالهجرة إلى أنحاء القارة الضخمة على الاستقرار الاجتماعي.

ومع ذلك، نظرًا للشبه بين أتباع الحركات الجماهيرية والراغبين في الهجرة، فقد تكون الهجرة الجماعية ميدانا خصبًا للحركات الجماعية. يصعب أحيانا أن نحدد متى تبدأ الهجرة الجماعية، ومتى تبدأ الحركة الجماهيرية – أو أن نحدد من الذي بدأ قبل الآخر. تطورت هجرة اليهود القدماء من مصر إلى حركة دينية وقومية. أما هجرة القبائل البربرية (البدائية) في الأيام الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية فقد كانت أكثر من تنقُّل بشري. كانت هذه القبائل صغيرة العدد، ولكنها بمجرد غزو دولة ما كانت تستقطب إلى جانبها المظلومين والمتذمرين. في جميع مناحي الحياة «كان الأمر ثورة اجتماعية تغلفت بقناع الغزو الخارجي»[٣٥].

كل حركة جماهيرية هي، على نحو أو آخر، «هجرة»، حركة نحو «أرض الميعاد»[٣٦]. وعندما تسمح الظروف للحركة، فإنها تنطلق بالفعل إلى تلك الأرض. حدث هذا مع الجماعات البروتستانتية الأوروبية التي عدّت الولايات المتحدة أرض الميعاد الجديدة، وهاجرت إليها، كما حدث مع تدفق الصهاينة على فلسطين. تقوي الهجرة، عندما تكون بأعداد كبيرة، روح الحركة ووحدتها، وتلجأ الحركات الجماهيرية النشطة إلى الهجرة، عندما تكون بصدد غزو خارجي، أو حرب صليبية، أو الاستيطان في أراضٍ جديدة.

---

[٣٥] H.G Wells, the outlin of Histmry (New York: Macmillan Company, 1922) pp. 482 – 484.

[٣٦] تصدق ملاحظة المؤلف على عدد من الجماعات الأصولية المتطرفة التي تدعو أتباعها إلى «الهجرة» من العالم ومفاسده، وقد يستخدم بعضها كلمة الهجرة، كما في جماعة «التكفير والهجرة» المصرية (المترجم).

القسم الثاني: الأتباع المتوقعون

١٨

كثيرا ما يكون معيار الحكم على الأمة، أو أي تجمع بشري، هو وضع أقل أفرادها شأنا. على الرغم من أن هذا معيار ظالم إلا أن هناك ما يبرره. إن شخصية أي جماعة ومصيرها كثيرًا ما تحدّده العناصر الأقل قدرًا فيها.

إن الجزء الثابت من أي أمة هو وسطها، إلا أن هذا الوسط، الذي يتكوّن من المواطنين العاديين الطيبين، الذين يقومون بأعمالهم في المدن والأرياف، كثيرًا ما تتحكم فيه أقليتان، الصفوة من طرف، والغوغاء من طرف آخر[٣٧].

يؤدي الأشخاص المتفوقون عقليّا دورًا كبيرًا في قيادة الأمة، سواء في السياسة أو الأدب أو العلم أو التجارة أو الصناعة، إلا أن الأشخاص الذين يقفون في الجانب الآخر، الفاشلين والعاجزين عن التأقلم والمنبوذين والمجرمين، وكل الذين فقدوا توازنهم أو لم يكن لديهم توازن أصلا، يؤدون أيضًا دورًا كبيرًا. إن مسرحية التاريخ يمثلها عادة طرفان، الصفوة من جانب، والغوغاء من جانب آخر، دون مبالاة بالأغلبية التي تقع في الوسط.

إن السبب الذي يجعل الغوغاء يؤدون دورًا مهمًا في مسيرة الأمة هو أنهم لا يكنون أي احترام للأوضاع القائمة. إنهم يعدّون حياتهم فاسدة بلا أمل في العلاج، ويحملون النظرة نفسها إلى

[٣٧] هناك مثل بسيط يرينا كيف تتضافر أفضل العناصر وأسوؤها هو اللغة، تتقيد غالبية الأمة باللغة التقليدية الموجودة في القواميس. أما التجديد فيجيء من الصفوة، رجال الدولة والشعراء والكتاب والعلماء والمتخصصين، ومن الغوغاء الذين يبتكرون التعبيرات العامية (المترجم).

الأوضاع القائمة. ومن هنا فإنهم على استعداد، دومًا لتحطيم كل شيء ولنشر الفوضى والقلاقل. يتوق الغوغاء إلى صهر أنفسهم التي يعدّونها بلا معنى في مجهود جماعي خارق وإلى الانخراط في عمل جماعي موحد. إن الغوغاء دومًا في مقدمة الأتباع، سواء كنا بصدد ثورة أو هجرة جماعية أو حركات عرقية أو قومية، وهم من ثم يطبعون بطابعهم الحركات التي تغير طبيعة الأمم ومسار التاريخ.

إن المنبوذين والمهمشين هم المادة الخام التي يصنع منها مستقبل الأمة، أي إن الحجر المطروح في الشارع يصبح حجر الزاوية في بناء عالم جديد. إن الأمة التي تخلو من الغوغاء هي التي تتمتع بالنظام والسلام والاطمئنان، إلا أنها أمة تفتقر إلى خميرة التغيير. لم تكن سخرية من السخريات، أن المنبوذين في بلاد أوروبا هم الذين عبروا المحيط لبناء مجتمع جديد في القارة الأمريكية، بل كان هذا هو الشيء الطبيعي[٣٨].

١٩

على الرغم من أن المتذمرين يوجدون في كل مجالات الحياة، إلا أنهم يوجدون بكثرة في المجالات الآتية:

١ – الفقراء.

٢ – العاجزون عن التأقلم.

---

[٣٨] يمكن أن نضيف هنا أن عددًا كبيرًا من مستوطني أستراليا الأوائل كانوا مجرمين، نفتهم بريطانيا إلى القارة البعيدة (المترجم).

٣ – المنبوذون.

٤ – الأقليات.

٥ – المراهقون.

٦ – شديدو الطموح (سواء وجد طموحهم المجال، أم لم يجده).

٧ – الواقعون تحت تأثير رذيلة، أو عادة أرمانية.

٨ – العاجزون (جسديا أو عقليا).

٩ – المفرطون في الأنانية.

١٠ – الملولون.

١١ – مرتكبو المعاصي.

وفي الصفحات الآتية سوف نناقش بعض هذه الفئات.

الفصل الخامس: الفقراء

محدثو الفقر

٢٠

ليس كل الفقراء محبطين. بعض الفقراء الذين يعانون في الأحياء البائسة من المدن لا يشعرون بأي إحباط، بل إنهم يرتعدون؛ خوفا من العيش خارج المحيط التعس الذي ألفوه.

حتى الفقراء الأفضل حالا عندما يطول أمد فقرهم لا يفعلون شيئاً، ويشلّهم إحساسهم أن الأوضاع القائمة أشياء ثابتة يستحيل أن تتغير. يتطلب الأمر كارثة مروعة، مثل غزو خارجي أو وباء منتشر، لكي يتفهموا أن الأوضاع الدائمة يمكن أن يطولها التغيير.

عادة، ما يكون محدثو الفقر، الفقراء الذين لم يطل عهد فقرهم، هم الذين يشعرون بالإحباط؛ لأن ذكرى الأشياء التي فقدوها لا تزال حية في دمائهم. هؤلاء المحرومون هم الذين يسارعون إلى الالتحاق بأي حركة جماهيرية صاعدة. لقد كان محدثو الفقر المسؤولين عن نجاح الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر[٣٩]. خلال «ثورة الملاك» التي سبق أن أشرنا إليها، قام الآلاف من مالكي الأراضي الزراعية بطرد فلاحيهم من الأراضي التي كانوا يزرعونها وتحويلها إلى مراع. وتحوّل الفلاحون الأقوياء النشطون المتعلقون بالتربة التي كانوا

[٣٩] تغطي الثورة الإنجليزية المدة بين سنتي ١٦٤٠م إلى ١٦٦٠ م من تاريخ إنجلترا. بدأت الثورة بالخلاف بين الملك تشارلز الأول والبرلمان، وتطور الخلاف إلى حربين أهليتين صعد خلالهما نجم أوليفر كرومول (١٥٩٩ – ١٦٥٨م) الذي كان يقود قوات البرلمان، أدى انتصار كرومول إلى محاكمة تشارلز الأول وإعدامه، وتولى كرومول الحكم، وبوفاته سنة ١٦٥٨م عادت الاضطرابات التي انتهت برجوع الملكية وتنصيب تشارلز الثاني ملكا سنة ١٦٦٠ م (المترجم).

يستمدون منها رزقهم إلى عمال بأجور أو متسولين... وازدحمت الشوارع بالمعدمين»[40]. كان هذا الحشد من المحرومين هم أفراد جيش كرومول الشعبي الجديد.

وفي ألمانيا وإيطاليا تحول محدثو الفقر المنحدرون من الطبقة الوسطى المنهارة إلى دعاة رئيسين للثورتين النازية والفاشية. وأولئك الذين يمكن أن يتحولوا إلى ثوريين في بريطانيا المعاصرة ليسوا من العمال، بل من موظفي الخدمة المدنية ورجال الأعمال الذين تأثروا بالتأميم. هذه الطبقة تحتفظ بذكريات حية عن ماضيها المتصف بالغنى والهيمنة، وليس من المحتمل أن تتأقلم مع الأوضاع التي تكبلها وتحرمها أي نفوذ سياسي[41].

كانت هنالك، في الولايات المتحدة وفي الدول الأخرى، زيارات دورية منتظمة في أنواع جديدة من الفقراء، ولا شك في أن هذه الزيادات أسهمت في ظهور الحركات الجماهيرية وانتشارها. حتى وقت قريب، كان محدثو الفقر ينحدرون من طبقة الملاك، سواء في المدن أو الأرياف، إلا أنه مؤخرًا، ولأول مرة في التاريخ، تحول العمال العاديون إلى محدثي فقر.

عندما كان الذين يقومون بالأعمال اليدوية الشاقة يعيشون على حافة الكفاف، كانوا يعدّون أنفسهم ويعدّهم غيرهم، الفقراء «التقليديين». كانوا يعانون الفقر في أوقات الازدهار وأوقات الركود، ومن وجهة نظرهم لم يكن الكساد، مهما بلغت شدته، أمرًا غريبًا أو مزعجًا. إلا أنه مع ارتفاع مستوى المعيشة بين الناس أصبح للركود والبطالة معنى مختلف. يعدّ العامل

---

[40] Charles A. And Mary R. Beard. The Rise of American Civilization (New York: Macmillan Company, 1939) Pol. 1 P.24.

[41] لم تحدث ثورة في بريطانيا، ولكن الناخبين تحولوا من حزب العمال إلى حزب المحافظين في انتخابات سنة ١٩٥١م ولعل ما أشار إليه المؤلف كان له أثر في هذا التحوّل (المترجم).

في الدول الغربية البطالة أمرًا مهينا للكرامة. ويعتقد العامل في هذه الدول أنه تعرض للافتقار والأذى؛ نتيجة أوضاع قائمة ظالمة يجد نفسه مستعدًا للاستماع إلى الذين ينادون بالإطاحة بها.

الفقراء فقرًا مدقعًا

٢١

إن حياة الفقراء الذين يعيشون على حافة الجوع أبعد ما تكون عن الفراغ. إن الصراع اليومي المحموم في سبيل الحصول على الطعام والمأوى يجعلهم بلا دقيقة من الفراغ. أهداف هؤلاء الفقراء واضحة ومحددة: كل وجبة إنجاز؛ والنوم بمعدة ممتلئة انتصاراً، وأي وفر معجزة. ما حاجة هؤلاء إلى أهداف عليا تتجاوز الذات، تمنح حياتهم معناها؟ هؤلاء الفقراء محصنون ضد الحركات الجماهيرية. تصف إنجيلكا بالا بانوف تأثير الفقر المدقع على حماسة الثوريين الراديكاليين الذين توافدوا على موسكو على إثر الثورة البلشفية: «هنا وجدت رجالًا ونساءً تخلوا عن كل المزايا المادية، وعن حياتهم، وعن سعادتهم، وعن مشاعرهم العائلية لتحقيق أهدافهم المثالية، وجدتهم وقد باتوا ولا همَّ لهم سوى الصراع مع البرد والجوع»[٤٢].

لا تكون لدى الناس، عندما يكدحون من الشروق إلى الغروب لمجرد البقاء على قيد الحياة، ظلامات، ولا يملكون أي أحلام. كان من الأسباب التي أدت إلى عدم ثورة الجماهير في

---

[42] Angelica Bala Banoff, My Life AS ARebel (New York: Harper & Brothers, 1938), p.204.

الصين الجهد الهائل الذي بذلته لتحيا حياة الكفاف. إن الصراع اليومي للبقاء على قيد الحياة ويحفز على الجمود، لا على التمرد»[٤٣].

٢٢

إن البؤس، في حد ذاته، لا يقود، تلقائيا، إلى التذمّر. كما أن درجة التذمر غير مرتبطة بدرجة البؤس. يبلغ التذمر أعلى درجاته حين يكون البؤس محتملا، أي حين تتحسن الأوضاع على نحو يسمح بالاعتقاد بإمكان تحسنها أكثر فأكثر. فوجئ دي توكيفيل خلال دراسة حالة المجتمع في فرنسا قبل الثورة، حين اكتشف أنه «لم يشهد أي مدة من المدد التي أعقبت ثورة ١٧٨٨م رخاء شاملا كالذي شهدته مدة العشرين سنة التي سبقت قيام الثورة»[٤٤].

وقاده هذا إلى الاستنتاج الآتي: «ازداد تذمر الفرنسيين مع ازدياد رخائهم»[٤٥]. وفي كل من فرنسا وروسيا كان الفلاحون المتعطشون إلى الأرض يملكون ثلث الأراضي الزراعية عند اندلاع الثورة، وقد حصلوا على معظمها خلال جيل أو جيلين قبل الثورة[٤٦] ليس البؤس الفعلي، إذا هو الذي يدفع إلى الثورة، بل طعم الأشياء الطيبة القادمة ليس من الممكن أن تقدم ثورة شعبية في روسيا، إلا إذا بدأ الناس يتذوقون طعم الحياة السعيدة. لن يواجه الحزب الشيوعي خطرًا إلا عندما تتحسن الأوضاع الاقتصادية لمجموع الناس، وعندما تخف وطأة

---

[٤٣] Edward A. Ross, The Changing Chinese (New York: Century company, 1911), p. 92.

[٤٤] Alexis De Tocqueville. On the State of Society In Franch Before the Revolution of 1789) (London Cohn Murray, 1888, p. 149.

[٤٥] ibid, p. 152.

[٤٦] Lyford p. Edwards, the Natural History of Revolution (Chicago: University of Chicago press 1927) p.2.

القبضة الحديدية[47]. من المثير للانتباه أن اغتيال كيروف، صديق ستالين[48] المقرّب. حدث في ديسمبر من سنة ١٨٣٤م، أي بعد أن أعلن ستالين نهاية ناجحة للخطة الخمسية الأولى، وبداية مرحلة جديدة من الرخاء.

يبدو أن درجة التذمّر تتناسب عكسيًا مع درجة البعد عن الهدف المنشود: كلما اقتربنا من الهدف، كلما زاد التذمّر، وكلما ابتعدنا عنه كلما خف التذمّر. تصدق هذه الملاحظة على المحظوظين الذين اقتربوا من أرض الميعاد، كما تصدق على المحرومين الذين أبعدوا عن هذه الأرض التي لا يزالون يرونها بأعينهم. وتصدق الملاحظة على أولئك الذين يوشكون أن يصبحوا أغنياء، وعلى محدثي الفقر، وعلى الأرقاء الجدد.

٢٣

إن إحباطنا عندما نملك الكثير، ونريد المزيد يفوق إحباطنا عندما لا نملك شيئا ونريد القليل. ونحن أقل تذمرًا حين نفقد أشياء كثيرة منا، حين لا نفقد إلا شيئًا واحدًا.

٢٤

نحن نغامر في سبيل الحصول على الكماليات أكثر مما نغامر لكي نحصل على الضروريات. وكثيرًا ما يحدث أننا عندما نتخلى عن الكماليات نجد أنفسنا، وقد فقدنا الرغبة في الضروريات.

---

[47] ما توقعه المؤلف حدث بالفعل في الاتحاد السوفييتي، ولعله طبقا للتحليل نفسه، سيحدث في الصين (المترجم).

[48] كان جوزيف ستالين (١٨٧٩ – ١٩٥٢م) من قادة الحركة البلشفية في روسيا، وتمكن بعد موت لينين من الاستئثار التام بالسلطة، وتحول النظام إلى ديكتاتورية فردية مطلقة وارتكب ستالين الكثير من المجازر التي يقدر عدد ضحاياها بالملايين (المترجم).

٢٥

هناك أمل يشجع على الثورة، وأمل يشجع على الصبر، وهذا هو الفرق بين الأمل المباشر والأمل البعيد.

تبشر الحركات الجماهيرية الصاعدة بالأمل المباشر. لا شيء يحث أتباع هذه الحركات على التحرك مثل الاعتقاد أن الأمل على وشك التحقق. كانت المسيحية عند ظهورها تبشر بنهاية العالم الوشيكة وقدوم مملكة السماء. ولا يمكن تجاهل الدور الذي أدته الغنائم في حروب الإسلام، واليعاقبة في فرنسا وعدوا بحرية ومساواة يجيئان على الفور، بينما وعد البلاشفة الأوائل بالخبز والأرض. وعد هتلر أنصاره أن ينهي على الفور العبودية التي فرضتها معاهد فرساي، وأن يوجد عملا وحراكا للشعب كله. في وقت لاحق، عندما تصل الحركة إلى السلطة يبدأ التركيز على الهدف البعيد، على الحلم وعلى الرؤية. تنشغل الحركة التي وصلت إلى الحكم بالحفاظ على الوضع القائم، وتشجع الطاعة والصبر بعد أن كانت تدعو إلى الأعمال الفورية العفوية: «عندما نحلم بما لا نرى، فبوسعنا أن نصبر في انتظار تحقيقه»[٤٩].

لكل حركة تصل إلى السلطة هدفها البعيد، مخدّرها الذي يكبح اندفاع الجموع ويدعوها إلى التأقلم مع واقعها. وهكذا نجد أن الستالينية تحولت إلى أفيون الجماهير، نفس التعبير الذي سبق للستالينية أن استخدمته في وصف الأديان.

الفقراء الأحرار

[49] The Epistle of Daul the Apostle To the Romans 8: 25

الأرقاء فقراء، إلا أنه حين يكون الرق منتشرًا ومتجذّرًا لا يكون هناك احتمال أن تقوم حركة جماهيرية. إن المساواة المطلة بين الأرقاء، بالإضافة إلى الحياة الجماعية الحميمة في «قسم العبيد»، تزيل أي شعور بالإحباط الفردي. وفي المجتمع الذي تشيع فيه مؤسسة الرق لا تجد مشاغبين، إلا من الذين استرقوا حديثا، أو من الأرقاء المحرّرين، وفي الحالة الثانية نجد أن عبء الحرية هو سبب التذمّر.

إن الحرية تزيد الإحباط بقدر ما تخفضه. إن توافر حرية الاختيار تضع اللوم كله على عاتق الفرد، ولأن الحرية تساعد على تكرار المحاولة، فإنها تساعد على تكرار الفشل وما تبعه من إحباط. إلا أن الحرية تخفف من الإحباط، حين تفتح مجالات الحراك والعمل والتغيير والاحتجاج.

تصبح الحرية عبئا على الشخص، حين يفتقر إلى المواهب التي تمكنه من تحقيق أي شيء. أي معنى للحرية عندما يكون الشخص عديم الفاعلية؟ يلجأ الناس إلى الحركة الجماهيرية؛ ليتحرروا من ثقل المسؤولية الفردية، أو كما قال شاب نازي متحمّس «للتحرر من الحرّية»[٥٠]. لم يكن من باب النفاق أن يعلن المنضمون إلى الحركة النازية أنهم أبرياء من جميع الجرائم التي ارتكبتها الحركة. كانوا يشعرون بالظلم والاضطهاد عندما يطلب منهم أحد أن يتحملوا المسؤولية الشخصية. ألم ينضموا، أساسًا، إلى الحركة النازية للتخلص من المسؤولية؟

[50] I. A. R. Wylie. «the Quest of our Lives, Readers Digest, May 1948, p.2

إن أكثر البيئات صلاحية لنمو الحركات الجماهيرية هي المجتمعات التي تتمتع بقدر كبير من الحرية، ولكنها تفتقر إلى ما يزيل الإحباط. تجاوب فلاحو فرنسا مع نداء الثورة في القرن الثامن عشر؛ لأنهم بخلاف الفلاحين في ألمانيا والنمسا، لم يعودوا من رقيق الأرض، بل أصبحوا ملاكًا ومن المنطلق نفسه، يمكن القول: إن الثورة في روسيا لم تكن لتندلع لولم يصبح الفلاحون الروس ملاكا خلال جيل أو أكثر قبل قيام الثورة، الأمر الذي مكنهم من تذوق طعم الملكية الفردية.

٢٧

لا تطلق الحركات الجماهيرية، بما فيها الحركات التي تنطلق باسم الحرية في مواجهة نظام مستبد، الحريات الفردية في مرحلتها الأولى. ما دامت الحركة منهمكة في صراع مع النظام القائم، أو كانت بحاجة إلى الدفاع عن نفسها ضد أعداء داخليين أو خارجيين، فإن شغلها الشاغل هو الوحدة والتضحية بالنفس، الأمر الذي يعني حرمان الفرد من إرادته ومنطقه والمزايا التي يتمتع بها. وصف روبسبير[٥١] الحكومة الثورية بأنها «طغيان الحرية في مواجهة الاستبداد»[٥٢].

والنقطة التي تهمنا هنا هي أن الحركات الجماهيرية عندما تنسى أو تؤجّل الحريات الفردية لا تصطدم مع رغبات أتباعها المتحمسين. إن المتطرفين كما يقول رينان: يخافون الحرية أكثر من

[٥١] كان روبسبير (١٧٥٨ – ١٧٩٤م) قائدًا دمويا من قواد الثورة الفرنسية، ومات مغتالا (المترجم).

[52] Crane Brintion, A Decade of Revolution (New York: Harper And Brothers, 1934) p.161.

الاضطهاد[53]. ما يبدو صحيحًا هو أن أتباع الحركات الصاعدة يشعرون شعورًا قويًا بالحرّية برغم أنهم يعيشون ويتنفسون في جو صارم يفرض عليهم الالتزام المطلق بالقواعد والتعليمات. ويأتي هذا الشعور بالحرية من إفلاتهم مما يعكر صفو حياتهم الفردية من عقبات وأعباء وقنوط: يصبح هذا الإفلات، في نظرهم، إنقاذا وتطهيرًا. كما أن الشعور بحدوث تغيير عظيم يعطي إحساسيا بالحرّية على الرغم من أن التغيير يتم في جو من القمع. عندما تجتاز الحركة مرحلتها النشطة الأولى وتتحول إلى مؤسسة مستقرة يمكن للحرية الفردية أن تعود. بقدر ما يقصر أمد المرحلة النشطة بقدر ما يسود الانطباع بأن الحركة نفسها، لا نهايتها، هي التي أوجدت الحريات الفردية. يقوى هذا الانطباع ويتعزز بقدر قسوة الطغيان الذي أزاحته الحركة وحلت محله.

٢٨

إن الذين يشكون فشل حياتهم وقبحها يتوقون إلى المساواة أكثر من توقهم إلى الحرية. حتى عندما يضجون في طلب الحرية، فإن مطلبهم الحقيقي هو حرية المساواة والتماثل. إن الشوق إلى المساواة، جزئيا على الأقل، شوق إلى فقدان الهوية الشخصية: أن تصبح مجرد خيط في النسيج، مجرد خيط لا يختلف عن بقية الخيوط[54]. لا يستطيع أحد، في هذه الحالة، أن يميزنا عن غيرنا، أو أن يقارننا بغيرنا ويفضح عجزنا.

---

[53] Ernest Reman, the Hibbert Lectures, 1880 (London: Williams And Norgate, 1898), Rreface.

[54] Epictetus, Discourses, Book 1 chapter 2.

إن أكثر الناس صراخا في سبيل الحرية كثيرًا ما يكونون أقل الناس سعادة في مجتمع حر. إن المحبطين، الذين تحاصرهم عيوبهم، يعزون فشلهم إلى القيود والمعوقات الخارجية إلا أنهم، في حقيقة الأمر، يتمنون أن يزول مناخ الحرية المتاحة للجميع ويودون إلغاء المناقشة الحرة، وما ينتج عنها من امتحان دائم للفرد في المجتمع المفتوح.

٢٩

عندما توجد الحرية، بالفعل، تصبح المساواة مطلب الجماهير. وعندما توجد المساواة، بالفعل، تصبح الحرية مطلب أقلية صغيرة. إن المساواة بلا حرية تخلق نظامًا اجتماعيًا أكثر استقرارًا من الحرية بلا مساواة.

الفقراء المبدعون

٣٠

عندما يقترن الفقر بالإبداع فإنه يكون، عادة، خاليًا من الإحباط، وهذه الظاهرة تنطبق على الحرفي الفقير الماهر في حرفته، وعلى الكاتب الفقير، وعلى الفنان والعالم الفقيرين في ذروة إبداعهما. لا شيء يعزز ثقتنا بالنفس، ويساعدنا على العيش معها، كالقدرة المستمرة على الإبداع: أن نرى الأشياء تنمو وتكبر بين أيدينا يومًا بعد يوم. وليس من المستبعد أن يكون اختفاء الحرف اليدوية في الأوقات المعاصرة سببًا في تزايد الإحباط وفي انجذاب الفرد إلى الحركات الجماهيرية.

مما يثير الانتباه أن غياب القدرة الإبداعية لدى الفرد مؤشر على نزعة قوية تدفعه إلى الالتحاق بالحركات الجماهيرية، وهنا نرى بوضوح العلاقة بين الرغبة في الإفلات من الذات المحيطة والاستجابة للحركات الجماهيرية.

إن الكُتاب والفنانين والعلماء الذين يشعرون بالإحباط، بسبب نضوب قدراتهم الإبداعية الذاتية، ينضمّون، آجلاً أو عاجلا، إلى صفوف الوطنيين المتطرفين، والعنصريين، أو معتنقي القضايا المقدّسة. وربما كانت الظاهرة نفسها تنطبق على العاجزين جنسيًا.

الفقراء المترابطون

٣١

إن الفقراء الذين ينتمون إلى مجموعة مترابطة، سواء كانت قبيلة أو عائلة أو فئة عرقية أو دينية، لا يكادون يشعرون بالإحباط، ومن ثم لا يحسون برغبة في الانضمام إلى حركة جماهيرية. والفقير الذي ينتمي إلى مجموعة لا يحكم على نفسه بالفشل، ولا يعدّ نفسه مسؤولا بالكامل عن المعوقات التي تعترض مجرى حياته، الأمر الذي يجعله بمنأى عن الإحساس بالعجز. مثل هذا الشخص أقل استجابة للنداءات الثورية من الشخص المستقل تمامًا. لا بدّ أن تكون درجة البؤس والمعاناة مرتفعة جدًا؛ لتدفع الفقير المنتمي إلى مجموعة إلى الثورة. إن سبب الثورة في المجتمع الديكتاتوري عادة ما تكون تفكك الديكتاتورية التي تجبر الجميع على البقاء في مجموعة واحدة، لا النقمة على الطغيان ولا الإحساس بالألم.

من المحتمل أن روابط الأسرة القوية في الصين كانت السبب الذي أبقى جماهير الصين، عبر عصور طويلة محصنة ضد الحركات الجماهيرية. إن الأوروبي «الذي يموت في سبيل وطنه» يتصرّف على نحو لا يفهمه الصيني الذي ينظر إلى المسألة من زاوية مختلفة: هذا الموت في سبيل الوطن لا علاقة له بأسرته، ولا تستفيد منه، بل على العكس، تفقد من خلاله عضوا من أعضائها. ومن الناحية الأخرى فالصيني «يتقبل بسرور واعتزاز أن يموت عندما تستفيد أسرته من المبلغ الذي يدفع لها مقابل أن يعدم فرد من أفرادها بدلا من مجرم محكوم عليه بالإعدام»[55].

من الواضح، والحالة هذه، أن على الحركات الجماهيرية الصاعدة أن تلجأ إلى تحطيم كل الروابط بين الجماعات إذا أرادت أن يزداد أتباعها. إن المرشح الأمثل للانضواء تحت جناح الحركة هو الفرد الذي يقف وحيدًا من دون جماعة متماسكة يندمج فيها وتنصهر خلالها ذاته على نحو يجعله يعمى عما يسود ظروفه الشخصية من نقص وقبح وخواء. عندما تجد الحركات الجماهيرية روابط الأسرة والقبيلة والوطن، وما إليها، مفككة متآكلة، فإنها تسارع إلى جني الحصاد. أما عندما تجد هذه الروابط قوية متماسكة فإنها تلجأ، أولا: إلى تحطيمها وبعثرتها. ومن الناحية الأخرى، عندما نلاحظ أن الحركة البلشفية في روسيا تدعو إلى تعزيز روابط العائلة وتشجيع التماسك القومي والعرقي والديني، فمعنى هذا أن الحركة اجتازت مرحلتها الديناميكية الأولى، وتحوّلت إلى مؤسسة لها نمطها وأسلوبها لا يهمها شيء قدر ما

[55] Arthur J. Habbard, the Fate of Empires (New York: Longmans, Green, & Company, 1913), p. 170.

يهمها أن تحافظ على ما أنجزته. أما خارج روسيا، فنلاحظ أن الشيوعية التي ما زالت في بداية صعودها تعمل كل ما بوسعها لتفكيك عرى العائلة والروابط القومية والعرقية والدينية.

٣٢

إن موقف الحركات الجماهيرية الصاعدة من الأسرة جدير بالاهتمام والتأمل. أبدت هذه الحركات كلها في مراحلها الأولى عداء تجاه الأسرة، وقامت بكل ما تستطيع القيام به لتفكيكها[٥٦]. وفي هذا السبيل، لجأت إلى إضعاف السلطة الأبوية وإلى تسهيل الطلاق، وإلى تحمل المسؤولية عن إطعام الأطفال وتغذيتهم وتسليتهم وإلى تشجيع العلاقات غير المشروعة بين الجنسين.

وبالإضافة إلى هذا، أسهمت المباني المزدحمة وعمليات النفي والاعتقال والتخويف في إضعاف تأثير الأسرة. ومع ذلك فنحن نلاحظ أن أيًا من الحركات الجماهيرية المعاصرة لم تلجأ إلى إدانة الأسرة، كما فعلت المسيحية في بدايتها، وقد عبّر المسيح عن هذا الموقف بصراحة متناهية: «لقد جئت لأحرّض الرجل على أبيه، والابنة على أمها، وزوجة الابن على أم زوجها. سيكون أعداء الرجل من داخل منزله. والذي يحب أباه أكثر مما يحبني لن يكون جديرًا بي، والذي يحب ابنه أو ابنته أكثر مني لن يكون جديرًا بي»[٥٧]. وعندما قيل للمسيح:

---

[٥٦] عبد اللهّ ثابت كاتب سعودي استقطبته جماعة دينية متطرفة في صباه ومراهقته، ثم خرج منها وروى تجربته في كتاب مثير. يقول عبدالله: «كم كنت أكره عائلتي وبيتي الذي يعج بالموبقات والمعاصي، كما كان مشرفو المخيم يصفون أمثاله من البيوت، لقد كان مملوءًا بالفساد من تلفاز وصور وأصوات الأغاني وغيرها» ثم يقول: إنه خاصم أهله جميعًا وترك البيت والدراسة وكل شيء «لأعيش بإحدى الغرف التي يعيش فيها أحدهم. لقد كان بالنسبة لهم فرصة مناسبة لضمّي لهم إلى درجة يستحيل معها تركي لهم» عبدالله ثابت، الإرهابي ٢٠، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٦م (ص ٨٤ ـ ٨٥) (المترجم).

[57] Matthew 10: 35– 37.

إن أمه وإخوانه ينتظرونه في الشارع للحديث معه قال: «من هي أمي؟ من هم إخواني؟» ثم أشار بيده إلى حوارييه وقال: «انظروا إلى أمي وإخواني»[٥٨]. وعندما استأذنه أحد حوارييه ليذهب لدفن أبيه، قال: «اتبعني. ودع الموتى يدفنون موتاهم»[٥٩]. يبدو أن المسيح كان يشعر بالصراعات المروعة التي ستحدث داخل العائلة نتيجة إصرار حركته على التبشير وكراهية أعدائها بتطرف: «وسوف يقدّم الأخ أخاه للموت، وسيثور الأبناء على آبائهم ويسوقونهم إلى الموت»[٦٠] إنه حقا أمر غريب، وإن كان صحيحًا أن نجد الذي يدعو إلى الحب يدعو إلى كره الأم والأب والأخت والزوجة والأولاد[٦١] لقد هاجم أتباع كونفشيوس[٦٢] الحكيم الصيني موتى زو الذي دعا إلى حب الجميع، قائلين: إن هذا الحب الجماعي سوف يؤدّي إلى إضعاف الأسرة وتفكك المجتمع[٦٣]. إن المبشر الذي يجيء ويقول: «اتبعني»، يعمل، في حقيقة الأمر، على تفكيك الأسرة، وإن كان لا يشعر بنتائج عمله ولا يحس بأي عداء نحو الأسرة، ولا توجد لديه نية تحطمها. لقد قيل عندما كان القديس برنارد[٦٤] يعظ: إن تأثيره كان من القوة «بحيث إن الأمهات أخفين أولادهن منه، وأخفت الزوجات أزواجهن؛ حتى لا يبعدهم

---

[58] ibid, 12: 47-49.

[59] ibid, 8: 22.

[60] ibid, 10: 21.

[61] كل ما نقد المؤلف عن المسيح نابع من التصوّر المسيحي الذي لا يمت بصلة إلى التصور الإسلامي عن سيدنا عيسى عليه السلام، وإن كان لا يضيرنا أن نذكّر به أولئك الذين يتهمون الإسلام بأنه دين يحث على الكراهية (المترجم).

[62] فيلسوف صيني شهير عاش بين سنتي ٥٥١ و٤٧٩ ق. م، وكانت تعاليمه تحث على الترابط العائلي والاجتماعي (المترجم).

[63] Kenneth Scot Latourette, the Chinese, their History And Culture (New York: Macmillan Company, 1946) Vol. 1, p. 79.

[64] عاش بين سنتي ٩٢٣ – ١٠٠٩م (المترجم).

عن الأسرة. لقد حطم عددًا كبيرًا من الأسر، حتى إن الزوجات المهجورات اضطررن إلى إنشاء دير للعيش فيه»[65].

يمكن للمرء أن يتوقع أن تفكك عرى الأسرة، مهما كان سببه، يساعد على نشوء روح جماعية، ويخلق حافزا للاستجابة إلى نداء الحركات الثورية.

أدّى غزو اليابان الصين، بلا شك، إلى هدم روابط الأسرة الصينية، وساعد على نشوء الاستجابة للنداءات القومية والشيوعية. أما في العالم الصناعي، فقد تفككت عرى الأسرة بسبب العوامل الاقتصادية. من ناحية، أدى استقلال المرأة عن زوجها إلى تسهيل الطلاق. ومن ناحية ثانية، أدّى استقلال الأبناء عن آبائهم إلى إضعاف السلطة الأبوية، وساعد على تفكيك الأسرة في وقت مبكر. ومن ناحية ثالثة، أدى النزوح الكبير من الأرياف والقرى إلى الحواضر الصناعية الكبرى إلى إضعاف الروابط العائلية. كل هذه العوامل شاركت، عبر إضعاف الأسرة، في ظهور الحركات الجماهيرية في العصور الحديثة.

إن ما قام به هتلر من تهجير جنوني لشعوب بأكملها خلال الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى ما قام به من إبادة عنصرية، أدّى، بلا شك، إلى اضطراب هائل مسّ ملايين الأسر عبر جزء كبير من أوروبا. كما أن الهجمات الجوية الأمريكية على ألمانيا، وطرد تسعة ملايين ألماني من شرق أوروبا وجنوبها، والبطء في الإفراج عن سجناء الحرب الألمان عوامل تسببت في دمار داخل ألمانيا، كالدمار الذي نشرته ألمانيا، بقيادة هتلر، في أوروبا. من الصعب على المرء

[65] Brooks Adams, the Law of Civilization And Decay (New York: Alfred A. Kno pf, inc, 1943), p. 142.

أن يرى كيف يمكن لقارة تتناثر أسرها في كل مكان أن تخلد إلى نمط اجتماعي مستقر، حتى في ظل الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية[٦٦].

٣٣

لا ينشأ التململ الذي تشهده البلاد المتخلفة عندما تتصل بالحضارة الغربية من النقمة على الغربيين الذين يهيمنون على مقدّراتها ويستغلونها بقدر ما يعود إلى تهاوي التضامن القبلي وتآكل التضامن الاجتماعي.

إن نموذج تطوير الذات الذي تطرحه الحضارة الغربية أمام الشعوب المتخلفة يأتي ومعه وباء الإحباط الفردي. كل ما يجلبه الغرب من مزايا لا يعادل شعور الطمأنينة الذي كان الفرد يشعر به، وهو في أحضان بيئة مترابطة. حتى عندما يحصل المواطن المحلي الذي يقلد الغرب على ثروة، أو يتقن مهنة محترمة، فإنه يظل شقيا، يظل يشعر بالغربة واليتم، والحركات القومية في البلاد المستعمرة هي، إلى حد ما، محاولة لاستعادة الوجود الجماعي الذي سبق الاستعمار وللإفلات من الفردية الغربية.

حاولت الدول الغربية الاستعمارية أن تقدّم للسكان المحليين هدية الحرّية الفردية وما يتبعها من استقلال فردي، وحاولت تعليمهم الاعتماد على الذات، إلا أن المحصلة النهائية كانت شعور الفرد بالعزلة. ما حدث هو أن الفرد قُطع، وه ولم يزل غير ناضج وغير مستعد، من وجوده الجماعي المترابط وطلب منه أن يمارس ما وصفه خوميكاوف «بحرية العجز»[٦٧]. إن

---

[٦٦] استطاعت الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية أن تحول دون وقوع القلاقل الاجتماعية التي توقعها المؤلف في أوروبا (المترجم).

[67] Quoted By Nicolas Zernow, three Russian Prophets (Toronto: Macmillan Company, 1944), p. 63.

الرغبة المحمومة في الذوبان في الجماهير التي تشهدها الدول الغربية، كما تشهدها مستعمراتها هي تعبير عن محاولة يائسة للإفلات من وجود فردي بلا فاعلية وبلا معنى. ومن هنا فلا نستبعد أن الحركات القومية في آسيا، وبلا تأثير من روسيا، ستقود لا إلى حكم ديمقراطي، بل إلى الديكتاتورية[٦٨].

يجب على الدولة الاستعمارية أن تنمّي الترابط الاجتماعي وروح المساواة والإخاء بين السكان المحليين. بقدر ما يذوب الفرد، ويذيب ذاته في جماعة متماسكة بقدر ما يخف شعوره بالإحباط الفردي، ويمكن إيقاف نزعاته الثورية قبل أن تبدأ. إن سياسة فرّق تسد سياسة فاشلة، عندما تستهدف القضاء على كل الروابط بين أفراد الشعب المستعمر. إن تفكيك مجتمع القرية، أو مجتمع القبيلة، أو مجتمع الدولة، وتحويله إلى أفراد مستقلين لا يقضي على روح التمرد ضد المستعمر. إن القرية الفاعلة، حقا، هي التي تشجع قيام مجموعات مترابطة، عرقية ودينية واقتصادية، ثم إذكاء المنافسة والصراع فيما بينها.

حتى عندما نفترض وجود أحسن النوايا لدى الدولة الاستعمارية، عندما نفترض أن هدفها الوحيد هو نشر الرخاء والتقدم بين الشعوب المتخلفة، فإن على هذه الدولة تشجيع الروابط الاجتماعية. وهي تحسن صنعا إذا لم تركز على تطوير الفرد ووجهت جهودها الإصلاحية التطويرية عبر قنوات القبيلة والمجتمع على نحو يؤدي إلى تطوير هاتين المؤسستين. إن التحديث الناجح في شعب متخلف لا يمكن أن يتم إلا عبر إطار قوي من العمل الموحد.

---

[٦٨] ما توقعه المؤلف حدث بالفعل. (المترجم).

إن تطور اليابان المذهل لم يكن ليتم لولا المحيط المشحون بالعمل الجماعي والشعور بالانتماء القوي إلى الجماعة.

تتمثل ميزة روسيا السوفييتية كقوة استعمارية، بالإضافة إلى تحرّرها من العنصرية العرقية، في كونها تقدّم نموذجًا حيًا للعمل الموحد. عن طريق هذا النموذج تستطيع روسيا السوفييتية أن تزيل عمدًا كل الروابط الجماعية دون الخشية من ظهور ما يعقب زوالها من نقمة فردية وتمرّد. لا يترك الفرد السوفييتي بمفرده يكافح في بيئة غريبة، بل على العكس، يجد نفسه واحدًا من مجموعة متماسكة أشد ترابطا من العشيرة أو القبيلة التي كان ينتمي إليها.

إن تشجيع الترابط الاجتماعي كوسيلة لمنع التمرد في المستعمرات يمكن أن يستخدم في مجال آخر هو منع الاضطرابات العمالية داخل البلاد الصناعية الاستعمارية.

إن رب العمل الذي يودّ إبقاء عماله منهمكين في العمل، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من جهودهم لن يحقق هدفه بإثارة الفرقة بينهم وتحريض العامل على العامل. إن مصلحته تتطلب أن يشعر العمال أنهم جزء من مجموعة، وأن هذه المجموعة تشمل رب العمل نفسه. إن الشعور العميق بالتضامن، سواء كان عرقيا أو قوميًا أو دينيا، هو خير ضمانة ضد الاضطرابات العمّالية.

وحتى عندما يكون التضامن ذا طبيعة لا تسمح بإدخال رب العمل في دائرته، فإنه يقود إلى تعزيز الشعور بالرضا بين العمّال وزيادة فاعليتهم. إن التجربة تدل على أن الإنتاج يبلغ أعلى مستوياته، حين يشعر العمال أنهم أعضاء في فريق واحد، ويتصرفون على هذا الأساس، وأي

سياسة تستهدف تفكيك الفريق تؤدّي إلى نتائج وخيمة. إن ضرر الحوافز والمزايا المادية التي تقدم على أساس فردي أكثر من نفعها. الحوافز الجماعية وحدها التي تقدم المزايا المادية على أساس أداء الفريق بأكمله، بمن فيهم المراقب الذي يمثل رب العمل، هي التي تؤدي إلى رفع الإنتاجية وزيادة الشعور بالرضا بين العمّال[٦٩].

٣٤

لا تستميل الحركة الجماهيرية الصاعدة الأتباع وتحتفظ بولائهم اعتمادًا على عقيدتها أو وعودها، ولكن لأنها تتحوّل إلى ملجأ يأوي إليه الأفراد الهاربين من مشاعر القلق والخواء والضياع. وهي لا تعالج المحبطين المتذمرين بإعطائهم حقيقة مطلقة، أو بالقضاء على الصعوبات والظلامات التي جعلت حياتهم بائسة، ولكن بتحريرهم من نفوسهم الفاشلة وضمهم إلى مجموعة سعيدة شديدة الترابط.

من الواضح، إذا، أنه لكي تنجح الحركة الجماهيرية، فلا بد لها من تطوير تنظيم جماعي متماسك قادر على اجتذاب القادمين وصهرهم، ليس من المجدي عند تحليل حركة جماهيرية صاعدة أن تفحص عقيدتها، أو أن تتأكد من صدق وعودها: العامل الحاسم هو تنظيمها الجماعي الذي يستطيع صهر المحبطين فيه صهرًا كاملا. وعندما تتنافس عدة عقائد على ولاء الجماهير، فإن العقيدة التي ستنتصر هي العقيدة التي تتقن بناء الإطار الجماعي. وإذا عدنا إلى العصر اليوناني/ الروماني، فإننا سنجد أن المسيحية كانت وحدها، بين كل الأديان

[٦٩] Peter F. Drucker, «the way to Industrial Peace», Hapere Magazine, Nov. 1946, p. 392.

والفلسفات التي ظهرت، القادرة على إيجاد تنظيم جماعي. لم يمتلك أي من منافس الكنيسة تنظيمها القوي المتماسك، ولم يتمكن أحد غيرها من منح الأتباع الشعور بالانتماء إلى مجتمع موحّد مترابط[٧٠]. تمكنت الحركة البلشفية من التغلب على منافسيها من الحركات الماركسية، بفضل تنظيمها الجماعي المحكم. كما أن النازية استطاعت التغلب على كل الحركات الشعبية التي عاصرتها في ألمانيا في العشرينيات: لأن هتلر أدرك، في وقت مبكر، أنه لا يمكن أن تنجح حركة جماهيرية صاعدة من دون تنظيم جماعي فاعل. أدرك هتلر مدى شوق المحبطين إلى «الانتماء»، الذوبان في كيان جماعي موحد.

٣٥

إن البيئة المناسبة لظهور الحركات الجماهيرية وانتشارها هي البيئة التي عرفت في الماضي تنظيمًا جماعيًا تخلخل، لسبب أو لآخر. كانت الحقبة التي شهدت ظهور المسيحية وانتشارها حقبة «انتزع فيها كثير من الناس من جذورهم... واندمجت المدن/ الدول المتماسكة في إمبراطورية شاسعة واحدة.. وتعرضت الروابط السياسية والاجتماعية القديمة للضعف أو الانهيار»[٧١].

حققت المسيحية أعظم إنجازاتها في المدن الكبرى «حيث عاش الآلاف المقتلعون من جذورهم، من عبيد وأحرار وتجّار، بعد أن غادروا بيئاتهم التقليدية، مضطرين أو متطوعين»[٧٢]. أمّا في الريف، حيث ظلت الروابط الجماعية قوية، فإن الدين الجديد لم يتمكن

---

[70] Kenneth Scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper And Brothers, 1937), vol 1, p. 164.

[71] ibid, p.23.

[72] ibid, p.163.

من التغلغل. كان سكان القرى والمزارعون أكثر الناس تعلقا بمعتقداتهم القديمة[٧٣]. وهناك مثل مشابه يمكن أن نلاحظه في صعود الحركات القومية والاشتراكية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر: «ساعدت حركة السكان المستمرة، وما زامنها من زحف نحو المدن، خلال تلك العقود على إيجاد عدد هائل من الأشخاص المقتلعين من تربتهم التقليدية وولاءاتهم المحلية. أصبح هؤلاء، مدفوعين بمتاعبهم الاقتصادية ومشكلاتهم النفسية، ضحية للادعاءات الغوغائية، سواء كانت اشتراكية أو قومية، أو الاثنين معًا[٧٤].

يبدو أن القاعدة هي أنه بمجرّد أن يضعف نمط من التنظيم الجماعي تصبح الظروف مواتية لصعود حركة جماهيرية ونجاحها في إيجاد تنظيم جماعي أشد تماسكا وقوة من التنظيم المنهار. وعندما تخفف كنيسة ما من قبضتها يصبح من المتوقع نشوء حركات دينية جديدة. يلاحظ جورج هـ. ويلز أن حركة الإصلاح البروتستانتية لم تعترض على قوة الكنيسة، ولكن على ضعفها. لم تكن الحركات الموجهة ضد الكنيسة، سواء من داخلها أو خارجها، تستهدف الخلاص من السلطة الدينية، بقدر ما كانت تتوق إلى سيطرة دينية أقوى وأوسع نطاقا»[٧٥]. وعندما يضعف تأثير الدين بسبب الخلافات داخله، فإنه من المتوقع أن تكون الحركات الصاعدة اشتراكية أو قومية أو عرقية. إن الثورة الفرنسية، التي شكلت في الوقت نفسه حركة قومية، جاءت رد فعل، لا على طغيان الكنيسة الكاثوليكية والنظام القديم، بل على

---

[٧٣] يذهب المؤلف إلى أن كلمة Pagan الإنجليزية، التي تعني الوثني مشتقة من كلمة Pagani الرومانية، التي تعني القروي، وكلمة Heathen التي تعني الكافر، مشتقة من الكلمة الرومانية التي تعني الفلاح (المترجم).

[74] Carlton J. H. Hayes, A Generation of Materialism (New York: Harper And Brothers 1941) p. 254.

[75] H.G. Wells, the Outling of History (New York: Macmillan Company, 1922) p. 719.

ضعف هاتين المؤسستين وانعدام فاعليتهما. عندما يثور الناس في مجتمع ديكتاتوري، فإنهم لا يثورون على ظلم النظام، بل على ضعفه. عندما يكون الترابط قويا يصعب على الحركة الجماهيرية أن تجد مكانا. كانت روح التضامن بين اليهود، سواءً في فلسطين أو خارجها، سببًا من أسباب فشل المسيحية في الوصول إليهم. أدى تحطيم الهيكل إلى تقوية الروابط بينهم، إذ أصبح كل معبد محلي والعابدون فيه محط الولاء الذي كان يتجه في السابق إلى الهيكل. في وقت لاحق، عندما تمكنت المسيحية من عزل اليهود في أحياء منفصلة (الجيتو)، أعطت تضامنهم دفعة قوية وأسهمت، عن غير قصد، في إبقاء الديانة اليهودية حيّة عبر العصور. وعندما جاءت حركة التنوير[٧٦] في أوروبا هزت معتقدات اليهود التقليدية بقدر ما هزت جدران (الجيتو). فجأة، لأول مرة منذ عهود طويلة، وجد اليهودي نفسه يعيش بمفرده ويحس بالوحدة الشديدة في عالم معاد. لم يكن أمامه كيان جماعي يستطيع أن يندمج معه ويذيب فيه ذاته. تحولت المعابد إلى مؤسسات متهاوية بلا حياة، وحالت تقاليد ألفي سنة بينه وبين الاندماج في الكيانات المسيحية الجماعية. هكذا أصبح اليهودي المعاصر أكثر الناس وحدة وعزلة، ومن ثم أشدهم إحباطا. لا نستغرب، والحالة هذه، إذا وجدت الحركات الجماهيرية الصاعدة أتباعا كثيرين من اليهود. ولا نستغرب عندما ترى اليهودي يجوب الآفاق، بحثا عما يخفف إحباطه عبر التجارة أو الهجرة، أو عندما نراه منغمسا بكليته في جهود خارقة لكي يبرهن، عبر الإنجازات المادية أو الأعمال الإبداعية، عن قدراته الفردية. لم تبق سوى جماعة صغيرة واحدة يستطيع أن يوجدها بنفسه، هي الأسرة، وكان تعلقه بها شديدًا.

---

[٧٦] يقصد «بالتنوير» عادة، ما شهدته أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر من ثورات فكرية ناقشت الموروث واعتمدت المنطق أساسا لها، وطال تأثيرها الأديان والفلسفة والأدب والسياسة (المترجم).

إلا أن هتلر قضى على هذه الجماعة، في أوروبا على أي حال، عن طريق مراكز الاعتقال وحمامات الغاز، مما جعل اليهودي الأوروبي المرشح المثالي للانضمام إلى حركة جماهيرية. وفي هذه الظروف، في أحلك ساعاته سوادًا، جاءت الحركة الصهيونية مرحّبة بدمجه في كيانها الجماعي وإنقاذه من الشعور بالعزلة. تحولت إسرائيل، في نظر الصهاينة، إلى ملجأ من نوع جديد: أصبحت الوطن والعائلة، والمعبد ومرتادي المعبد، والأمة والحزب الثوري، كل هذا في وقت واحد.

إن تاريخ ألمانيا الحديث يزودنا بمثال مهم عن العلاقة بين الرابطة الجماعية القوية والاستجابة للحركات الجماهيرية. لم يكن هناك أي احتمال لقيام حركة ثورية حقيقية في ألمانيا القيصرية. كان الألمان راضين عن السلطة المركزية التي مثلها النظام القيصري، ولم يتخلخل حبهم للنظام حتى بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. لم تكن ثورة ١٩١٨م، ثورة حقيقية، بل مجرد حركة على السطح لم تتمتع بأي دعم شعبي. إلا أن جمهورية وايمار[٧٧] التي تلت الثورة لم تجلب لمعظم الألمان سوى الاستياء والإحباط. كانوا متعودين على الأوامر التي تأتي من أعلى، وعلى احترام السلطة، ولم يجدوا في النظام الديمقراطي سوى التسيب والفوضى. صدموا عندما اكتشفوا أن عليهم المساهمة في الحكومة واختيار الحزب، وعليهم أن يصدروا أحكامهم في الشؤون السياسية»[٧٨] كانوا يتطلعون إلى نظام جماعي مركزي شمولي ذي رأس واحد يغدق نظام القيصر حزما، وجاء «الرايخ» الثالث مستجيبا لتطلعاتهم. لم يكن النظام

---

[٧٧] أقامت ثورة ١٩١٨ م نظاما برلمانيا ديمقراطيًا، واستمد النظام اسمه من اسم المدينة التي وضع فيها الدستور (المترجم).

[78] Theodore A bel, why Hitler Came Into Power (New York: Prentice – Hall, 1938), p.150.

النازي بعد أن وطد أركانه في خطر من ثورة شعبية: ما دامت القيادة النازية مستعدة لاتخاذ القرارات كلها وتحمل المسؤوليات كلها. لم يكن هناك أي مجال لاستياء شعبي. لو أن النظام النازي خفف من وطأته لكان هنالك خطر حقيقي عليه. ما قاله دي توكيفيل عن الحكومة المستبدة ينطبق على كل الأنظمة الشمولية: تصل هذه الأنظمة إلى نقطة الخطر حين تبدأ في الإصلاح وتبدي نزعات ليبرالية[٧٩].

والمثال الأخير الذي يؤكد نظريتنا أن الكيانات المترابطة محصنة ضد الحركات الجماهيرية، وأن تهاويها يوجد البيئة المثالية لهذه الحركات هو العلاقة بين الجيش والحركات الجماهيرية. لا تكاد توجد حالة واحدة نجد فيها جيشا متماسكا يولد حركة دينية أو ثورية أو قومية. ومن الناحية الأخرى، فالجيش المفكك، سواء نتيجة قرار حكومي بتسريحه، أو لفرار الجنود نتيجة الإحباط، يشكل بيئة مثالية لمثل هذه الحركات. إن الرجل المسرّح لتوّه من الجيش مرشح مثالي للحركات الثورية[٨٠] ولهذا نجد الجنود المسرّحين من أوائل الذين انضموا إلى الحركات الجماهيرية المعاصرة. يشعر هذا الجندي السابق بالغربة والضياع في مجتمع مدني متسيب وتنغصّ مسؤولية الاستقلال الفردي عليه حياته. يتطلع هذا الرجل إلى اليقين ورفقة السلاح وإلى التخلص من عبء المسؤولية، يتطلع إلى شيء يختلف كلية عن الحياة المدنية التي تحيط به، ويجد كل ما يحلم به في الأخوة التي يتيحها محيط الحركات الجماهيرية الصاعدة.

[٧٩] Alexis de Tocquville, op. cit, p. 152.

[٨٠] ما حصل في العراق بعد حل الجيش العراقي في أعقاب الغزو الأمريكي من انضمام جنوده إلى مختلف الميليشيات يؤكد صحة الملاحظة التي أبداها المؤلف (المترجم).

الفصل السادس: العاجزون عن التأقلم

٣٦

إن إحباط العاجزين عن التأقلم يتراوح في شدته من حالة إلى أخرى. هناك، أولا، العاجزون عن التأقلم بصفة مؤقتة: أولئك الذين لم يجدوا بعد موقعهم في الحياة ولكنهم لا يزالون يأملون في الحصول عليه. ينتمي المراهقون، وخريجو الجامعة العاطلون، والجنود المسرّحون، والمهاجرون الجدد، إلى هذه الفئة. نجد كل هؤلاء قلقين متذمرين يسيطر عليهم الخوف من أن أحسن سنوات عمرهم سوف تذهب هدرًا قبل أن يحققوا أهدافهم. يستمع هؤلاء إلى نداءات الحركات الجماهيرية، ولكنهم ليسوا أفضل المرشحين للانضمام إليها. يكمن السبب في أنهم لم يفقدوا الصلة نهائيا مع نفوسهم، وأنهم لا يعدّون حياتهم ميؤوسا منها. إن أقل بارقة من الأمل تعيدهم إلى التأقلم مع العالم ومع نفوسهم.

سبقت الإشارة إلى دور الجنود المسرّحين في نشأة الحركات الجماهيرية. أن أي حرب طويلة تشترك فيها جيوش عدة دول تنتهي بفترة من الاضطراب الاجتماعي بين المنتصرين والمهزومين على حد سواء. لا يعود السبب في هذا إلى العواطف الجياشة التي تفجرت، ولا إلى طعم العنف خلال الحرب، ولا إلى فقدان الثقة في النظام الذي لم يستطع منع الخسارة في الأموال والأرواح. يعود السبب إلى خواء الروتين المدني في حياة الملايين من الجنود المسرحين. يصعب على هؤلاء أن يستعيدوا وتيرة الحياة المدنية التي فقدوها مع الحرب. إن

التأقلم مع السلام ومع الحياة في الوطن عملية بطيئة ومؤلمة، تمتلأ خلالها البلاد بالعاجزين مؤقتا عن التأقلم.

وهكذا، فإنه يبدو أن العبور من الحرب إلى السلام أخطر على النظام القائم من العبور من السلام إلى الحرب[٨١].

٣٧

أمّا العاجزون عن التأقلم عجزا دائمًا فهم أولئك الذين لا يستطيعون، بسبب نقص في الموهبة أو عيب آخر لا يقبل العلاج في الجسم أو العقل، من تحقيق الشيء الوحيد الذي يصبو كيانهم كله إلى تحقيقه. وأي إنجاز، مهما كان باهرًا، خارج المجال الذي يريدونه لا يعطيهم أي شعور بالرضا. يحوّل هؤلاء كل مسعى في حياتهم إلى مطاردة محمومة، من غير أن يتمكنوا من التوقف أو من الوصول إلى الهدف. يثبت هؤلاء أننا لا نشعر بالرضا عند تحقيق شيء غير الشيء الذي نريده، وإننا نجري أسرع ما نجري، عندما نهرب من أنفسنا.

إن العاجزين عن التأقلم عجزا دائمًا لا يرون خلاصًا إلا في الانفصال التام عن أنفسهم وهم يجدون هذا الانفصال، عادة، في الرابطة الجماعية الصلبة التي توجدها الحركة الجماهيرية. عندما يتحررون من الإرادة الفردية، والمنطق الفردي، والطموح الفردي، وعندما يكرسون

---

[٨١] ولعل هذا هو السبب الذي دفع الرئيس العراقي صدام حسين إلى إبقاء الجزء الأكبر من جيشه بعد انتهاء الحرب مع إيران، ثم إلى شغل الجيش كله بمغامرة غزو الكويت (المترجم).

كل جهودهم لخدمة القضية الخالدة، عندها، فقط، يستطيعون الإفلات من جهدهم الفردي العبثي الذي لا يقود إلى نتيجة.

نجد أشد المتطرفين إحباطا، ومن ثم أكثرهم تطرفا، بين العاجزين عجزا دائما عن التأقلم، أولئك الذين يحترقون بشوق قوي عارم إلى الإبداع دون أن يتمكنوا من الإبداع: أولئك الذين يحاولون أن يكتبوا أو يرسموا، أو يؤلفوا الموسيقى، ومن إليهم، ويفشلون فشلا تامًا، بالإضافة إلى أولئك الذين تذوقوا نشوة الإبداع، ثم خبت الجذوة بلا أمل في عودتها. كل أولئك يشعرون بيأس خانق، وأي شهرة أو ثروة أو سلطة، أو أي إنجازات أخرى باهرة، لا تنجح في ري غليلهم. حتى الاندفاع في خدمة قضايا مقدّسة قد لا ينجح، أحيانا، في علاجهم. يظل جوعهم مستعرًا، الأمر الذي يجعلهم أكثر المتطرفين عنفا في سبيل القضية المقدّسة.

الفصل السابع: الأنانيون أنانية مفرطة

٣٨

إن الأنانيين أنانية مفرطة معرضون، بصفة خاصة، للإحباط.

كلما زادت أنانية الشخص كلما كانت خيبته أشد إيلامًا، ومن المفارقات هنا أن الأنانيين أنانية مفرطة هم الذين يحتمل أن يصبحوا أبطال الدعوة إلى إنكار الذات.

إن أشد المتطرفين عنفا كثيرًا ما يكونون أشخاصًا أنانيين أجبروا، بسبب عيب شخصي أو ظروف خارجة، على فقدان الثقة في أنفسهم، الأمر الذي يدفعهم إلى أن يسخروا سلاح أنانيتهم الفردية لخدمة قضية مقدّسة. برغم أن هؤلاء يدعون إلى الحب والتواضع فهم، في الحقيقة، أبعد ما يكونون عن الحب والتواضع.

٣٩

قد تكون الفرص غير المحدودة سببًا في الإحباط، شأنها شأن الفرص النادرة أو المعدومة. عندما تكون فرص المستقبل بلا حدود، فلا بد أن ينعكس هذا على هيئة رفض للحاضر. يصبح موقف الشخص: «كل ما أقوم به أو يمكن أن أقوم به لا شيء»، مقارنة بما يمكن تحقيقه في المستقبل. هذا هو نوع الإحباط الذي نجده عند المغامرين الباحثين عن الترهيب، كما نجده في كثير من العقول خلال فترات الازدهار الاقتصادي.

وهنا نرى هذه المفارقة: نجد عند الباحثين عن الترهيب وسارقي الأراضي وبقية المغامرين الذين يريدون الإثراء بأسرع وسيلة، كما نجد عند ذوي الأنانية المفرطة استعدادًا دائمًا للتضحية والعمل الجماعي. إن نداءات القومية، والتضامن العرقي، والثورة تجد استجابة بين الأشخاص الذين يرون فرصًا لا حدود لها في المستقبل تفوق الاستجابة التي توجد بين أشخاص يعيشون حياة يومية رتيبة يمكن توقع كل ما فيها.

الفصل التاسع: أقليات

٤٠

إن وضع الأقلية حرج دائمًا بصرف النظر عن الضمانات المستمدة من القانون أو من القوة التي تتمتع الأقلية بها. إن الإحباط الذي ينشأ من عدم الشعور بالأمن ينقص في حالة الأقلية التي تنوي الحفاظ على هويتها، ويزيد في حالة الأقلية التي قررت التفكك والذوبان في المجتمع. إن الأقلية التي تحافظ على هويتها تشكل، بالضرورة، كلًّا مترابطًا يحمي الفرد ويعطيه شعورًا بالانتماء وتحصينه ضد الإحباط. ومن الناحية الأخرى، في الأقلية التي تنوي الاندماج يجد الفرد نفسه واقفا بمفرده يواجه التفرقة العنصرية والاضطهاد. وفوق ذلك، فهو يعاني شعورًا بالذنب، مهما كان الشعور غامضا أو باهتًا. إن اليهودي الأرثوذكسي المتمسك بهويته أقل إحباطا من اليهودي المتحرر المستعد للاندماج. كما أن الزنجي المعزول عن البيض في جنوب الولايات المتحدة أقل شعورًا بالإحباط من الزنجي الذي تحرر في الشمال.

نجد داخل الأقلية التي تنوي الاندماج فئتين، الأكثر نجاحًا والأقل نجاحًا (اقتصاديًا واجتماعيًا)، هما أشد عرضة للإحباط من الفئات الأخرى. إن الشخص الذي يفشل يشعر بعدم الانتماء، وعندما يكون فردًا من أقلية تنوي الذوبان في الأغلبية، فإن شعوره بالفشل يتضاعف مع شعوره بعدم الانتماء إلى الأغلبية. ونجد الشعور نفسه في أفراد الأقلية الذين وصلوا إلى قمة السلم الاقتصادي والثقافية. هؤلاء ينجحون في الحصول على الثروة

والشهرة، ولكنهم يجدون من الصعب أن يخترقوا دوائر النجاح المغلقة على الأغلبية، ومن هنا يبدأ إحساسهم بالغربة. وبالإضافة إلى هذا الإحساس، فإن ثقتهم في تفوقهم الفردي تجعلهم ينفرون من الاعتراف بالنقص الذي يواكب عملية الاندماج.

وهكذا نرى أن أقل الناس نجاحًا وأكثرهم نجاحًا في أقلية تنوي الذوبان هم الأكثر استجابة لنداء الحركة الجماهيرية.

إن أكثر الإيطاليين الأمريكيين نجاحًا وأقلهم نجاحًا كانوا أكثر المتعصبين لثورة موسوليني[٨٢]، كما أن أكثر الأيرلنديين/ الأمريكيين نجاحًا وأقلهم نجاحًا كانوا الأكثر استجابة لثورة دي فاليرا[٨٣]. وكان أكثر اليهود نجاحًا وأقلهم نجاحًا الأسرع في الانضمام إلى الصهيونية؛ وأكثر السود نجاحًا وأقلهم نجاحًا هم أشدهم شعورًا بالفوارق الطبيعية بين السود والبيض.

[٨٢] أسس الزعيم الإيطالي بنيتو موسوليني (١٨٨٣ – ١٩٤٥ م) الحزب الناشئ سنة ١٩١٩ م وتمكن من الوصول إلى السلطة من سنة ١٩٢٢ م، وقاد إيطاليا إلى حلف مع ألمانيا النازية ومات مقتولا مع نهاية الحرب العالمية الثانية على يد عصابات من بني وطنه (المترجم).

[٨٣] تمكن الزعيم الشوري الأيرلندي إيمون دي فاليرا (١٨٨٢ – ١٩٧٥م) من انتزاع استقلال أيرلندا من الكومونولث البريطاني سنة ١٩٣٧ م – وتولى الحكم مدة طويلة بعد الاستقلال (المترجم).

الفصل العاشر: الملولون

٤١

لعله لا يوجد مؤشر على نضج مجتمع ما للحركة الجماهيرية أدق من انتشار الملل الذي لا يجدي معه علاج. في كل التحليلات التي تتناول فترات ما قبل الحركة الجماهيرية هنالك إشارة إلى شعور عام باللامبالاة، وتجد الحركة الصاعدة من المتعاطفين والمتحمسين بين الملولين أكثر مما تجده بين ضحايا الاستغلال والظلم. يفرح الذي يحاول نشر حركة جماهيرية، حين يرى الناس يعانون الملل الخانق، مثلما يفرح حين يجدهم يعانون وطأة ظلامات اقتصادية أو سياسية لا تطاق.

عندما يشعر الناس بالملل فإنهم، في الحقيقة، يملّون أنفسهم مصدر الملل الأول هو الشعور بخواء الحياة، وبافتقارها إلى أي معنى. إن الأشخاص الذين لا يشعرون بالعزلة، كأولئك المنتمين إلى وحدة قبلية، أو إلى كنيسة، أو إلى حزب، لا يكونون، عادة، عرضة للملل، ولا يشعر الإنسان بالملل عندما يكون منهمكا في عمل إبداعي، أو في مهنة تستنفد طاقاته، أو في صراع دائب من أجل العيش. والبحث عن العزو، وما يتبعه من انحلال، ليس علاجا ناجعًا للملل. عندما يعيش الناس ضمن وجود منعزل، وتكون أحوالهم المالية جيدة، إلا أنهم لا يتمتعون بأي مواهب أو فرص للإبداع أو العمل النافع، فإنهم يلجؤون إلى تصرفات غريبة وتقلبات مدهشة على أمل إضفاء قدر من المعنى والهدف على وجودهم. والملل هو الذي فسر لنا ظاهرة أخرى: كثرة العوانس والسيدات اللواتي تجاوزن منتصف العمر في بدايات

الحركات الجماهيرية. حتى عندما نكون بصدد حركة لا ترحب بعمل المرأة خارج المنزل، كالنازية، نجد نساء كالمشار إليهن يؤدين دورًا كبيرا في نشأة الحركة[٨٤]. هنالك شبه، من نوع ما، بين انضمام المرأة إلى زوج وانضمامها إلى حركة جماهيرية. في الحالتين هنالك هدف جديد ومستقبل جديد وهوية جديدة (اسم جديد). إن الملل الذي تشعر به العوانس والنساء اللواتي لم يعد بوسعهن العثور على السعادة والرضا في الزواج ناتج أساسًا عن ضيقهن بحياة عقيمة فاشلة. وعندما يعتنق هؤلاء النسوة قضية مقدّسة يسخرن لها وجودهن كله وطاقاتهم كلها، فإنهن يجدن حياة جديدة مليئة بالمعنى والهدف.

استغّل هتلر، بشكل بارع، سيدات المجتمع الظامئات إلى المغامرة اللاتي سئمن حياتهن الفارغة، ولم يجدن أي متعة في العلاقات العاطفية[٨٥] تلقى هتلر مساعدات مالية من زوجات أعظم الصناعيين في ألمانيا قبل أن يسمع أزواجهن به[٨٦]. وتتحدث ميريام بيرد عن دور مماثل لزوجات رجال الأعمال المللولات قبل الثورة الفرنسية: «كن مسحوقات بالملل والضيق والقلق، فاندفعن إلى الترحيب بالجديد القادم»[٨٧].

---

[٨٤] يرى المؤلف أن الظاهرة نفسها تنطبق على الإسلام أول ظهوره، وما ذكره موضع نظر ولا دليل عليه (المترجم).

[85] Herman Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam's Sons, 1940), P. 2688.

[86] Ibid.

[87] Miriam Beard, A History of The Bus Nessman, (New York: Macmillan Company, 1938), P.462

الفصل الحادي عشر: مرتكبو المعاصي

٤٢

إن العبارة التي تزعم أن التعصب الوطني هو الملاذ الأخير للمنحلّين هزل ينطوي على شيء من الجدّ، كثيرًا ما تكون الوطنية المحمومة، أو الحماسة الدينية أو الثورية، مهربا من تعذيب الضمير[٨٨]. ومن الغريب أن الجاني والمجني عليه، المجرم والضحية، قد يجدون في الحركة الجماهيرية الخلاص من حياة ملوثة. يبدو أن الشعور بالظلم والشعور بالندم يدفعان الناس في الاتجاه نفسه.

يظهر أحيانا أن الحركة الجماهيرية مصممة خصيصًا؛ لتلائم احتياجات مرتكبي المعاصي، من حيث تطهير نفسه وإتاحة الفرصة له لممارسة نزعاته ومواهبه. يستهدف أسلوب الدعوة إلى الحركة أن يثير في نفوس الأتباع شعورًا يماثل شعور المجرم التائب[٨٩]. إن الاستسلام التام، وهو المصدر الذي يمد الحركة بوحدتها وحيويتها، هو تضحية، تعبير عن الندم، ومن الواضح أنه لا يوجد ما يستوجب التضحية أو الندم ما لم يكن هناك شعور عميق بالذنب. يقول أحد رجال الدين المسيحيين: «يا لصعوبة المهمة التي تقابل الواعظ وهو يبشر بالخلاص أناسًا لا يشعرون بالذنب»[٩٠]. تنمي الحركة أول ما تنمّي عند أتباعها شعورًا عميقا

---

[٨٨] في المملكة العربية السعودية تبين أن عددًا لا يستهان به من المنضمين إلى الخلايا الإرهابية كانوا في السابق يتعاطون المخدرات (المترجم).

[٨٩] «سوف يكون هناك سرور في السماء بمجرم واحد يفوق السرور بتسعة وتسعين شخصًا تقيًا لا يحتاجون إلى تربة، انظر Luke ١٥:٧. و«المكان الذي يقف فيه التائب لا يستحق الأتقياء أن يقفوا فيه» كما جاء في التلمود. انظر:
Joseph Klausner, Jesus Of Naze Reth, P.380.

[٩٠] A Letter In Life, Dec. 23, 1946. Written b R. S. Aldrich.

بالذنب، أي أنها لا تكتفي بتصوير نفس الفرد على أنها عقيمة وبائسة، بل تضيف أنها ملوثة. إن الاعتراف والندم هما سبيل الفرد إلى التخلص من ذاته، وبهذا يفتح أمامه باب الخلاص: الذوبان في الوحدة المقدّسة التي تتيحها الحركة[٩١]. تتعاطف كل الحركات الجماهيرية مع المجرم وتحاول بكل الوسائل اجتذابه. ومن هنا نجد القديس برنارد، رجل الدين الذي كان وراء الحرب الصليبية الثانية، يقول لأتباعه: «الدليل الأعظم على أن الغفران لا يأتي إلاّ من اللهّ يتضح لنا عندما نجد الله يدعو المجرمين والمغتصبين والزناة والمزورين ومرتكبي كل أنواع الجرائم إلى طاعته كما لو كانوا أبرياء أتقياء»[٩٢] وتهتم روسيا الثورية، بدورها، اهتمامًا خاصًا بالمجرم العادي برغم قسوتها على المنحرف عَقَدِيًّا.

ولعله من الصحيح أن المجرم الذي ينخرط في قضية مقدّسة يصبح أكثر استعدادًا للتضحية بحياته والقيام بأعمال عنيفة من غير المجرم الذي يقدر حرية الأنفس والأموال. بإمكاننا أن نعدّ الجريمة، إلى حد ما، بديلا عن الحركة الجماهيرية. عندما يضعف تأثير الرأي العام وقوّة القانون، ولا يكون الفقر مدقعًا، فإن الضغوط على العاجزين عن التأقلم والمحبطين كثيرًا ما تنتهي بهم في أحضان الجريمة. ومن ناحية أخرى لوحظ أنه في حالة صعود المدّ الثوري، سواء كان وطنياً أو دينيا أو قوميا، فإن معدل الجرائم العادية ينخفض.

[٩١] يقول عبدالله ثابت: «كان شيئا معتادًا أن نسمع أن اثنين من إخواننا كشف أمرهما، وهما يتبادلان شهوة، فنعوذ بالله مما فعلاه، ونكرههما ونهجرهما، ثم يجتهد الكثيرون في أن يخفوا ما يستطيعون إخفاءه، مما يدور بينهم، وفي لحظات التجلي والصراحة يعترف بعضهم إلى بعض، فيبكون ويعاهدون على التوبة، وألا يقعوا في شيء من هذا ليعلم مجلسهم ذالك» الإرهابي ٢٠، مرجع سابق، ص١٠٥.

[92] Quoted By Brooks Adams, the law of Civilization And Decay (New York: Alfred A. knopf, inc. 1943), p. 144.

القسم الثالث: العمل الجماعي والتضحية بالنفس

الفصل الثاني عشر: مقدمة

٤٣

تستمد الحركة الجماهيرية حيويتها من نزعة أتباعها إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. وعندما نعزو نجاح حركة ما إلى عقيدتها ومذاهبها ودعايتها وقيادتها وقسوتها، وما إلى ذلك، فنحن في حقيقة الأمر، نشير إلى أدوات وآليات تقود إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. ولعله من المستحيل أن نتفهم طبيعة الحركات الجماهيرية ما لم ندرك أن همها الأساسي هو خلق قنوات للعمل الجماعي وللتضحية بالنفس، وتطوير هذه القنوات وتحسينها وإبقاؤها. إن التعرّف على هذه القنوات يقودنا إلى المنطق الداخلي لهذه الحركات والأفكار التي تسودها والممارسات التي تقوم بها. وأي جماعة منظمة تحاول، لسبب أو لآخر، أن تخلق وحدة مترابطة واستعدادًا دائمًا للتضحية بالنفس تكتسب، عادة، الكثير من سمات الحركات الجماهيرية، سواء كانت سمات طيبة أو سيئة. ومن ناحية أخرى، فإن الحركة الجماهيرية تفقد كثيرًا من الخصائص التي تميزها عن بقية التنظيمات عندما تتراخى وحدتها الجماعية وتعترف بالمصلحة الذاتية أساسا مشروعًا لنشاطها. ونلاحظ أن الدول الديمقراطية في أوقات السلم والرخاء تتكوّن من تنظيمات مؤسسية لمواطنين أحرار، أما حين يصبح بقاء الدولة مهددًا، وعندما تحاول تعزيز وحدتها وغرس روح التضحية بين مواطنيها فإنها تكتسب، إلى حد ما، خصائص الحركة الجماهيرية، والأمر نفسه يسري على التنظيمات الدينية والثورية: تتحول هذه التنظيمات إلى حركات جماهيرية لا بسبب المذهب الذي تبشر به أو البرنامج الذي تعلنه، بل بسبب وحدتها واستعداد أتباعها للتضحية بالنفس.

وما يهمنا هنا هو أن المحبطين إحباطا شديدًا تنمو لديهم، على نحو عفوي، الرغبة في العمل الجماعي، وفي الوقت نفسه، في التضحية بالنفس، وهكذا فإنه من الممكن تفهم هذه النزعات والأساليب التي تتبع لغسل الأدمغة إذا راقبنا كيف تولد داخل العقل المحبط.

ما الذي يقلق المحبطين؟ إنه الشعور أن أنفسهم ميتة وميؤوس منها. أن رغبة المحبطين الأساسية هي أن يهربوا من أنفسهم، وهذه الرغبة تتجسد في النزعة إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. إن الاشمئزاز من النفس غير المرغوب فيها، وهاجس نسيانها وطمسها وإخفاءها هو الذي يوجد الرغبة في التضحية بالنفس، وفي العمل الجماعي حيث تذوب النفس في المجموع. بالإضافة إلى هذا، فإن الاغتراب عن النفس تواكبه، عادة، مشاعر وعواطف كثيرة تبدو غير مترابطة، إلا أن التأمل فيها يظهر أنها عوامل أساسية في التوجه إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. وبعبارة أخرى، لا ينتهي دور الإحباط بإيجاد الرغبة في العمل الجماعي والتضحية بالنفس، بل إنه، فوق ذلك، يخلق الآلة الضرورية لتحقيق هذه الرغبة. إن احتقار الحاضر، والقدرة على تخيل أشياء غير واقعية، والنزعة إلى الكراهية، والاستعداد للتقليد، وسرعة التصديق، والاستعداد لتجربة المستحيل، كل هذه المشاعر، وكثير غيرها، تزحم عقل الإنسان المحيط، وتدفعه إلى الأعمال اليائسة.

من المتوقع أن القارئ لن يقتنع بكثير مما سيجيئ في هذا القسم من الكتاب، وقد يشعر أن بعض الأشياء بولغ في تضخيمها، بينما أهملت أشياء أخرى. على أننا لا ندّعي أن هذا كتاب أكاديمي موثق. هذا الكتاب، على العكس، يحتوي على أفكار، مجرد أفكار، ولا يرفض

«أنصاف الحقائق» إذا كانت تحتوي على منهج جديد، وتساعد على توليد أسئلة جديدة. يقول بيجهوت[٩٣]: «إذا أردت إيضاح مبدأ ما فعليك بكثير من المبالغة وكثير من الحذف».

إن القدرة على العمل الجماعي تمشي، عادة، يدّا بيد مع القدرة على التضحية بالنفس، وعندما نسمع عن جماعة لا تخاف الموت فعلينا أن نستنتج أن هذه الجماعة مترابطة ترابطا قويًا وموحدة توحيدًا تامًا[٩٤]. ومن الناحية الأخرى، فعندما نجد فردًا ينتمي إلى جماعة مترابطة ترابطا كاملا فسوف نجده، على الأغلب، لا يخاف الموت.

يتطلب كل من العمل الجماعي والتضحية بالنفس الإنقاص من قيمة النفس. ولكي يصبح الفرد عضوا في جماعة مترابطة، فإن عليه أن يتخلى عن الكثير: عن خصوصيته، وعن آرائه الشخصية، وفي كثير من الحالات عن ممتلكاته. ومن هنا فإن تدريب الفرد على العمل الجماعي يجعله قادرًا على إنكار الذات، ومن ناحية أخرى، فإن الفرد الذي يحتقر نفسه يزيل الحاجز الصلب الذي يحول بينه وبين الذوبان في الآخرين. كل عوامل الارتباط بالمجموعة، والحالة هذه، تحفز الشخص على التضحية بالنفس، والعكس صحيح. وسنحاول في الصفحات القادمة الفصل بين النزعتين، العمل الجماعي والتضحية بالنفس، لتبسيط القضية مدركين، في الوقت نفسه، أن النزعتين، في حقيقة الأمر، مرتبطتان ولا ينفصلان.

---

[٩٣] كان والتر بيجهوت (١٨٢٦ – ١٨٨٧م) صحفيا ومحللا سياسيا وتولى رئاسة «تحرير الأيكوترست» وكان متعدد المواهب والإبداعات (المترجم).

[٩٤] تجد «في قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية أن أشد الأشخاص شعورًا بالوحدة هم أقدرهم على خوض المعارك» انظر:

w.g. Sumner, war And other Essays, (New Haven: Yale university Press, 1911), p. 1.

إن آلية غرس الاستعداد للقتال والموت تتكون من فصل الفرد عن نفسه، عن شخصه المكوّن من لحم ودم، وعنه من أن يكون ما تريده نفسه الحقيقية أن يكون. ويتحقق هذا الهدف بتذويب الفرد في المجموعة الموحدة المترابطة؛ بإعطائه نفسًا جديدة متخيلة؛ بأن تغرس فيه اتجاها إلى احتقار الحاضر وشغفا بالأشياء القادمة التي سوف تجيء في المستقبل؛ بأن نضع حجابًا بينه وبين الحقائق؛ بأن نشحنه بالعواطف المتفجرة على نحو يجعل من المستحيل عليه أن يعيش مع نفسه.

الفصل الثالث عشر: عوامل تشجع على التضحية بالنفس

التماهي مع المجموع

٤٤

لكي تهيئ شخصًا ما للتضحية بالنفس فلا بدّ من سلخه عن هويته الذاتية وعن تميزه. يجب أن يكف عن كونه جورج، أو هانس، أو إيفان، أو تادوا، أي يجب أن يكف عن الشعور أنه خلية بشرية مستقلة لها وجود يحده المولد والوفاة. وأكثر الطرق فاعلية في الوصول إلى هذا الهدف هو صهر الفرد كلية في الجسم الجماعي. إن الفرد المنصهر في الجماعة لا يعدّ نفسه ولا الآخرين كائنات بشرية فعلية. عندما تسأله من هو؟ فإن جوابه التلقائي هو أنه ألماني أو روسي أو ياباني أو مسيحي أو مسلم، أو عضو في قبيلة معينة أو عائلة ما. ليس لهذا الفرد من معنى أو هدف أو مصير إلا من خلال الجسم الجماعي، وما دام هذا الجسم الجماعي حيًا فلا يمكن للفرد أن يموت.

الحياة عند الشخص الذي لا ينتمي إلى مجموعة هي همّه الأول والأخير. الحياة هي الحقيقة الوحيدة بين مجموعة أشياء وهمية، ولهذا فهو يتشبث بها بقوة وبلا خجل. صوّر دوستويفسكي هذا الموقف في رواية الجريمة والعقاب (القسم الثاني، الفصل الرابع). يهيم الطالب راسكولينكوف على وجهه في شوارع سان بيترسبرج فيما يشبه الذهول. كان قبلها ببضعة أيام قد قتل امرأتين مسنتين بفأس، ويشعر الآن أنه معزول عن الجنس البشري. عندما يمر بمنطقة البغاء يبدأ في التفكير: «لو استطاع المرء أن يعيش على صخرة عالية لا يوجد فيها

متسع إلا لموضع القدم، ومن حوله المحيط، الظلمة الأبدية، والوحدة الأبدية، والعواصف الأبدية، لو تمكن لاستمرّ واقفا على متر مربع من الفضاء بقية حياته، ألف سنة، إلى الأبد، إذ لا شك أنه من الأفضل أن نحيا على أن نموت. فقط أن نحيا، ونحيا، ونحيا، كائنةً ما كانت الحياة».

إن طمس الاستقلال الفردي يجب أن يكون كاملا، بحيث يصبح على الفرد في أي عمل يقوم به، مهما كان تافها، أن يربط نفسه على نحو رمزي، بالجماعة، بالقبيلة، بالحزب، وما إلى ذلك. إن مزاحه وأحزانه واعتزازه وثقته يجب أن تنبع من مصير المجموعة لا من مصيره الفردي أو قراراته الفردية. وفوق كل ذلك، يجب ألّا يراوده أي شعور بالعزلة. حتى عندما يكون في جزيرة نائية يجب أن يشعر أنه يتمتع برعاية الجماعة. وتخلي الجماعة عنه لا يختلف عن تخلي الحياة ذاتها.

هذا، بالتأكيد، تصوير بدائي للأشياء، ونموذجه المثالي لا يوجد إلا عند القبائل البدائية. إلا أن الحركات الجماهيرية تحاول أن تقارب هذا النموذج البدائي. ونحن لا نتجنى على الحقيقة عندما نلاحظ أن انتقاص القيمة الفردية للإنسان، هذا الانتقاص الذي تحرص عليه الحركات الجماهيرية، لا يعدو أن يكون ردة إلى العصور البدائية.

٤٥

إن القدرة على تحمل التعذيب تنبع، جزئيًا، من تماهي الفرد مع مجموعة ما. والذين استطاعوا الصمود في معسكرات الاعتقال النازية كانوا أولئك الذين شعروا بالانتماء إلى مجموعة

مترابطة (كالشيوعيين) أو إلى كنيسة (كالرهبان والقساوسة)، أو إلى مجموعة قومية متماسكة، أما الذين لم يشعروا بالانتماء إلى شيء يتجاوز أنفسهم، فسرعان ما انهاروا. وقد كان اليهودي في أوروبا الغربية أشد الناس ضعفا. لقد تجنبه المسيحيون (حتى المعتقلون معه) ولم تكن هناك روابط تصله بأي مجتمع يهودي، ولهذا واجه جلاديه بمفرده، بعد أن تبرأت منه الإنسانية بأكملها. وبوسع المرء، الآن، أن يتصوّر أن (الجيتو) اليهودي في القرون الوسطى كان بالنسبة لليهود قلعة تحميهم أكثر من كونه سجنا يحبسهم. من دون الشعور القوي بالانتماء الذي فرضه عليهم (الجيتو) لم يكن بوسع اليهود أن يعيشوا دون أن تتحطم أرواحهم أمام ما لاقوه من عنف ومضايقات خلال تلك القرون المظلمة. وعندما رجعت القرون المظلمة (على هيئة النازية) وجدت اليهودي محروما من أسلحته القديمة، وشخصيته تمامًا.

إن الاستنتاج الذي لا يمكن أن نتجاهله هو أن الفرد الذي يواجه التعذيب أو القتل لا يستطيع الاعتماد على القوة النابعة من فرديته. إن نبع القوة لا يكمن في كونه فردًا، بل في كونه جزءًا من كيان قوي مجيد لا يمكن أن يتحطم، والإيمان هنا هو، أساسا عملية تحرر المرء من فرديته وتجعله يتماهى مع كيان خالد. فلنتأمل الإيمان، والإيمان بالإنسانية أو بالأبدية أو بالدين أو بالأمة، أو بالعرق، أو بالحزب، أو بالعائلة. ما هو هذا الإيمان إن لم يكن تصور شيء خالد لا يمكن أن يموت نربط به أنفسنا الموشكة على الموت؟

وإنه لمن المخيف أن ندرك أن القادة الشموليين المعاصرين عندما اكتشفوا هذا المصدر من مصادر الشجاعة المستميتة، استخدموه لا ليسرقوا أرواح أتباعهم فحسب، بل لتحطيم أرواح معارضيهم. عندما بطش ستالين بالقيادات البولشفية التقليدية تمكن من تحويل

أشخاص شجعان معتدّين بأنفسهم إلى جبناء مرتعشين؛ لأنه تمكن من حرمانهم من أي وسيلة للتماهي مع الحزب الذي خدموه طيلة حياتهم، ومع الجماهير الروسية. كان هؤلاء القادة البلاشفة قد قطعوا صلتهم منذ أمد بعيد بالإنسانية خارج روسيا. وكان لديهم احتقار تام للحاضر ولأي تاريخ من صنع الرأسمالية، كما أنهم تخلوا عن الإيمان بالله. لم يكن أمامهم ماض أو مستقبل، ولم تكن لهم ذكريات أو أمجاد، خارج روسيا المقدّسة والحزب الشيوعي، وقد أصبحت روسيا والحزب، الآن، في قبضة ستالين. شعر هؤلاء أنهم أصبحوا كما قال بوخارين[٩٥] «معزولين عن كل شيء كان يعني الحياة في نظرهم» ولهذا سرعان ما انهاروا واعترفوا بكل ما أراد ستالين أن يعترفوا به. حاولوا عبر إذلال أنفسهم أمام جماعة المؤمنين التخلص من عزلتهم. لقد جدّدوا إيمانهم بالشيوعية عبر إهانتهم أنفسهم واتهامها بتجاوزات وجرائم رهيبة، واستعراض هذا كله على الملا.

وعلى نحو مشابه، في حالة اليهود، لم يكن بالإمكان توقع سلوكهم في فلسطين من سلوكهم في أوروبا. كان ممثلو بريطانيا المستعمرة في فلسطين يتصرفون على نحو بدا منطقيًا، إلا أنه كان يفتقر إلى الحكمة. اعتقدوا أنه ما دام هتلر قد تمكن من إبادة ستة ملايين يهودي دون مقاومة، فإنه سيكون بوسعهم التعامل بسهولة مع ٦٠٠,٠٠٠ يهودي في فلسطين. إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن اليهود في فلسطين، حتى أولئك الذين قدموا حديثا من أوروبا، كانوا أعداء لا يستهان بهم: عنيدين ومغامرين وواسعي الحيلة. في أوروبا واجه اليهودي أعداءه،

[٩٥] كان نيكولاي بوخارين (١٨٨٨ – ١٩٣٨م) قائدًا بارزا من قواد الحركة البلشفية، تمرد على لينين، ثم تحالف على ستالين، وتولى مناصب قيادية في الحزب، حتى انقلب عليه ستالين وأعدمه (المترجم).

بمفرده، شخصًا معزولا، ذرّة من الحياة تطفو على محيط من العدم. أما في فلسطين فلم يعد اليهودي يعدّ نفسه مجرد ذرّة بشرية، بل عضوا في جنس عريق، له ماض موغل في القدم، ومستقبل مليء بالإنجاز الخارق.

٤٦

لعل المنظرين في الكرملين يدركون أنه لكي يضمنوا خضوع الجماهير الروسية يجب ألا تكون أمام هذه الجماهير أي فرصة للتماهي مع أي كيان موحّد خارج روسيا. إن «الستار الحديدي» يستهدف منع الشعب الروسي من التطلع خارج حدوده حتى في تفكيره، قبل أن يستهدف منع الجواسيس والمخربين من الدخول، وهذا الستار مادي ونفسي، في الوقت نفسه.. من منع المواطنين الروس من الهجرة منعا باتا، حتى في حالة زواج مواطنين روس أزواجا من جنسيات أخرى، يستهدف طمس صورة العالم الخارجي في عقول الروس. كان الفرار من روسيا مغامرة مستحيلة شبيهة بالفرار إلى كوكب آخر. ولا يقل الجانب النفسي من الستار أهمية عن الجانب المادي. تستهدف دعاية الكرملين إقناع الروس أنه لا يوجد شيء دائم ذو قيمة، لا يوجد شيء جدير بالإعجاب، والتقديس، لا يوجد شيء يمكن التماهي معه، خارج روسيا المقدّسة.

الخيال

٤٧

يصبح الموت والقتل أسهل عندما يصبحان جزءًا من طقوس درامية في مسرحية. لا بدّ من كثير من الخيال؛ لكي يستطيع الإنسان مواجهة الموت بلا تردد. في نفوسنا الحقيقية العارية، لا يوجد شيء يستحق أن نموت من أجله، ولكن عندما نتصوّر أنفسنا ممثلين في مسرحية خيالية يفقد الموت رهبته، ويصبح عملا من أعمال الخيال، ومشهدًا مسرحيّا[٩٦]. أهم واجبات القائد في الحركة الجماهيرية طمس حقيقة الموت والقتل المرعبة، بأن يخلق في نفوس أتباعه الوهم: أنهم يشاركون في منظر باهر، في طقس من الطقوس المسرحية المثيرة.

ألبس هتلر ثمانين مليون ألماني أزياء المسرح، وجعلهم يمثلون في أوبرا عظيمة، بطولية ودموية. وفي روسيا، حيث يصور كل شيء، حتى بناء دورات المياه، مع انه عمل من أعمال التضحية العظيمة يعيش الناس منذ بداية الحكم الشيوعي دراما مثيرة تحرّك الروح، لا يبدو أن لها نهاية. وقد تصرّف سكان لندن بشكل بطولي تحت وقع القنابل المدمّرة؛ لأن تشرشل[٩٧] نجح في إخراجهم في أدوار الأبطال. قام أبناء لندن بدورهم البطولي أمام جمهور هائل، يشمل الأجداد والمعاصرين والأجيال القادمة، على مسرح تضيئه الحرائق وعلى إيقاع المدافع

[٩٦] يصف عبدالله ثابت طقوس الموت المسرحية: «قبران توأمان لما يسكنهما أحد، قال لي: (اهبط واضطجع، وابك،... وخف ما استطعت) نزلت وكنت في حالة تشبه حالة ما قبل النوبة العصبية أو التشنج.. فقبور الأموات، وظلمة الليل، والنحيب والصراخ، كانت تجتمع على قلبي فتصنع منه ما يشاؤون رجعت إلى البيت ممتلئ الصدر باليقين.. وكأنني من الحاطّين رحالهم في الجنة والناس من حوله ينتظرون فصل الحساب،» ويقول عن لقاءات الجماعة المتطرفة: «وبالطبع يحتل الموت والحديث عن الأخرة مقدمة كل وقفة، وكيف يمكن للمرء أن يتعامل مع الموت بترويض نفسه على ألا يخافه، بل وليتحول في أعماقه إلى أمنية وحلم. حتى إنه... كان يبدأ وقفاته بالدعاء (اللهم مزّقنا كما تحب في سبيلك).. الإرهابي ٢٠، مرجع سابق ص ٨٣ وص١٠٥.

[٩٧] يعدّ ونستون تشرشل (١٨٧٤ – ١٩٦٥م) واحدًا من أبرز الساسة البريطانيين، إن لم يكن أبرزهم، وقد دخل معترك السياسة في بداية القرن العشرين الميلادي وتقلب بين مختلف الأحزاب والمناصب، وكان أعظم إنجازاته قيادة بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، وقد خسر الانتخابات في نهاية الحرب، وأعيد انتخابه سنة ١٩٥١م واستمر رئيسًا للوزراء حتى استقال سنة ١٩٥٥م. كما كان مؤلفًا ومؤرخا مرموقا، وقد حصل على جائزة نوبل في الأدب (المترجم).

والقنابل. لا يمكن في عالمنا المعاصر، بما يحمله من فوارق ذاتية بين الناس، خلق الرغبة في التضحية بالذات ما لم يكن هناك الكثير من الحيل المسرحية والألعاب النارية.

من الصعب، والحالة هذه، أن نتصوّر أن حكومة العمال الحالية في بريطانيا (التي أعقبت حكومة تشرشل في نهاية الحرب العالمية الثانية) قادرة على تنفيذ برنامجها الاشتراكي الذي يتطلب التضحية من كل بريطاني في جو الديمقراطية البعيد عن الإثارة الذي يسود بريطانيا. إن جدّية القادة العماليين وبعدهم عن الإثارة المسرحية دليل نزاهة واستقامة، إلا أن هذه الخصلة تشكل عائقا أمام تنفيذ التأميم الذي يشكل، من دون شك، هدفهم الرئيس في الحياة[٩٨].

إن دور الخيال في تلطيف قسوة القتل والموت يتضح أكثر ما يتضح في حالة الجيوش. إن الملابس العسكرية والأعلام والشعارات والاستعراضات والموسيقى والطقوس الصارمة والإتيكيت المحكم، كلها وسائل لفصل الجندي عن نفسه الحقيقية المكوّنة من لحم ودم، وطمس حقائق الموت والحياة. وليس من قبيل المصادفة أننا نتحدث عن «مسرح الحرب» وعن «مشاهد المعارك». ينزع القادة العسكريون عنه إصدار أوامرهم إلى تذكير جنودهم أن أنظار العالم تتجه إليهم، وأن أسلافهم يشاهدون ما يفعلونه، وأنهم سيدخلون عالم الخلود.

[٩٨] جانب المؤلف الصواب هنا، فقد تمكنت الحكومة العمالية من تنفيذ برنامج واسع من التأميمات استمر قائمًا حتى أنهته مارجريت تاتشر في آخر السبعينيات الميلادية من القرن الماضي عبر سياسات الخصخصة. ولعل خطأ المؤلف يعود إلى أنه أهمل التيارات الفكرية الاشتراكية القوية في الثقافة البريطانية التي لم يوجد ما يماثلها في الولايات المتحدة (المترجم).

والقائد العسكري الناجح يستطيع أن يجعل جنوده ينسون ما يعانونه في الواقع المحيط بهم، ينسون رمال الصحراء القاحلة، أو أمواج المحيط العاتية.

إن مفهوم المجد، إلى حد كبير، مفهوم مسرحي. لا يمكن أن تهزنا فكرة المجد ما لم نشعر شعورًا مؤكدًا بوجود جهود يتابعنا، وما لم نؤمن أن أعمالنا ستصل إلى أسماع «الأجيال التي لم تجئ بعد». في هذه الحالة، نستطيع التضحية بنفوسنا الحقيقية الزائلة في سبيل النفس الخالدة المتخيلة، النفس التي ترسمها أعمالنا البطولية في عقول الآخرين وخيالاتهم.

يؤدي الخيال في ممارسة الحركات الجماهيرية دورًا دائمًا لا يشابهه دور أي عنصر آخر. عندما تضعف قوة الإيمان بالمبدأ، وتختفي القدرة على الإقناع أو القمع، يظل الخيال باقيًا قويًا. وليس هناك أدنى شك في أن الحركة الجماهيرية تستطيع عن طريق الاستعراضات والمواكب والطقوس والمراسم ملامسة كل القلوب. حتى أكثر الناس عقلانية يمكن أن يصبح عاطفيا أمام مشهد جماهيري حاشد. هنالك شعور بالنشوة، بالتحرّر من سجن الذات، يعم المشاركين والمتفرجين على حد سواء. كما أنه من المحتمل أن يكون المحبطون أكثر استجابة لسحر الطقوس الجماعية من الراضين والقانعين: إن الرغبة في الهرب من النفس الفاشلة أو طمسها يوجد لدى المحبطين قدرة كبيرة على التخيل، والرغبة في خلق مشهد مسرحي، كما يجعلهم أكثر استعدادًا للتماهي مع الحشود الجماهيرية المثيرة.

احتقار الحاضر

٤٨

تبدو كل حركة جماهيرية، في بداية عهدها، كما لو كانت تحتفي بالحاضر على حساب الماضي. إنها ترى في المؤسسات والمزايا القائمة عدوانا من ماض هرم رديء على نقاء الحاضر. إلا أنه لكي يمكن التخلص من قبضة الماضي الحديدية، فلا بدّ من وحدة قوية وتضحية بالنفس لا حدود لها. وما يعنيه هذا هو أن الأشخاص الذين يطلب منهم مهاجمة الماضي لتحرير الحاضر يجب أن يكونوا مستعدين للتخلي عن أي فرصة من الاستفادة من الحاضر. وتهافت هذا الموقف لا يحتاج إلى بيان. من هنا يجيء التبدل الحتمي في الاتجاه بمجرّد أن تبدأ الحركة سيرها. عندها يزاح الحاضر، الذي كان الهدف القديم، من المسرح ليحل محله المستقبل: الأبدية. وأكثر من هذا: يسحب الحاضر إلى الوراء كأنما هو شيء قذر ويرمى على الماضي. وهكذا تصبح المعركة بين الأشياء الموجودة (الحاضر) والأشياء التي كانت موجودة (الماضي) من جهة، وبين الأشياء التي لم تجئ بعد (المستقبل)، من جهة أخرى.

أن يخسر المرء حياته يعني أنه لا يخسر سوى الحاضر، ومن الطبيعي أن فقد حاضر ملوّث لا قيمة له لا يعني فقد الكثير.

لا تكتفي الحركة الجماهيرية بتصوير الحاضر على أنه بغيض وبائس، بل إنها تسعى عامدة لجعله على هذا النحو. كما أنها تصوغ للفرد وجودًا متجهمًا وقاسيا ومتسلطا ومملاً. وهذه الحركة تدين كل الشهوات والرغائب ووسائل الراحة وتمجد الحياة الصعبة. إنها تعد المتعة العادية أمرًا تافها، بل مكروها، وتعد أي مسعى للحصول على السعادة الشخصية أمرًا غير أخلاقي.

أن تستمع بحياتك يعني أنك تهادن العدوّ: الحاضر. إن الهدف الأساسي من إشاعة التقشف والخشونة هو إشاعة الاستخفاف بالحاضر. عندما يرى الفرد خواء حياته وبؤسها، ويقارنها بالطقوس الجماعية المثيرة فإنه سيعمد، بلا شك، إلى تأكيد تفاهة حياته وعدم جدواها.

إن الأهداف غير الواقعية التي تضعها الحركة الجماهيرية لنفسها ما هي إلا جزء من حملتها ضد الحاضر. كل الأشياء الواقعية والعملية والممكنة هي جزء من الحاضر، ولو قدمت الحركة وعودًا واقعية لأدّى ذلك إلى جعل الحاضر أكثر أملا، وإلى ربط الناس به.

والإيمان بالمعجزات، بدوره، هو تنكر للحاضر وتحدّ له. وعندما أعلن تيرتليان[٩٩]: «كان ميتًا ودُفن، وقام من موته، وهذه هي الحقيقة؛ لأنها مستحيلة الوقوع» كان يهزأ من الحاضر. وأخيرًا، فإن النزعات الصوفية في الحركة هي، بدورها، وسيلة للاستخفاف بالحاضر. هذه النزعات تعدّ الحاضر مجرد انعكاس مشوّه لعالم مجهول أمامنا وحولنا. الحاضر، بعبارة أخرى، هو مجرّد ظل، مجرد وهم[١٠٠].

٤٩

[٩٩] كان كوينتس ترتيليان (١٦٠ – ٢٢٠م) من أوائل رجال الدين المسيحيين وقد أثرت أفكاره، على نحو بارز، في مسيرة المسيحية (المترجم).

[١٠٠] ملاحظات المؤلف حول الحاضر والماضي والمستقبل، تنطبق بحذافيرها، على ما درجت عليه الجماعات الدينية المتطرفة، من أيام سيّد قطب، على تصوير المجتمعات المعاصرة على أنها جاهلية (أي كافرة) يجب تدميرها لإقامة المجتمع الإسلامي الجديد الذي هو، في الحقيقة، عودة إلى المجتمع الإسلامي الأول. يقول عبدالله ثابت: «فمن القضايا التي تعاد وتعاد دائمًا بطرق كثيرة ومتعددة ومتنوعة، قضية الكفر الذي تتخبط فيه المجتمعات والحكومات كلها في هذا الزمن... وإن الدول الإسلامية باتت أكثر شرًا حتى من دول الغرب... امتلأت صدورنا بالكراهية، ليس على أهل الغرب والحكومات كلها فحسب، بل وحتى على مجتمعنا وأهالينا وإخواننا» الإرهابي ٢٠، مرجع سابق ص ١٠٥ – ١٠٦ (المترجم).

إن تمجيد الماضي يمكن أن يكون وسيلة للاستهانة بالحاضر. إلا أن هذا التمجيد ما لم يمتزج بتوقعات معقولة عن المستقبل فسوف يؤدّي إلى تعظيم الماضي على نحو يقود إلى الحذر، لا إلى السلوك المغامر الذي تعتمد عليه الحركة الجماهيرية. ومن ناحية أخرى، لا توجد وسيلة لتقزيم الحاضر أجدى من تصويره كمجرد حلقة بين ماض عظيم ومستقبل عظيم. وهكذا نرى أن الحركة الجماهيرية برغم أنها تبدأ بالتنكر للماضي، فإنها تنتهي بخلق صورة جذابة، غالبًا ما تكون خيالية، عن ماض عريق مجيد. تنزع الحركات الدينية إلى الرجوع إلى بدء الخليقة، وتنزع الثورات الاجتماعية إلى الحديث عن عصر ذهبي تمتع الناس فيه بالحرية والمساواة والاستقلال، أما الحركات القومية فإنها تسترجع، أو تختلق، ذكريات عن أمجاد الماضي. هذا الهوس بالماضي لا ينبع من الرغبة في إظهار شرعية الحركة وعدم شرعية النظام القائم بقدر ما ينبع من الرغبة في تصوير الحاضر، كمجرد فاصل عابر بين الماضي والمستقبل.

٥٠

إن الوعي بالتاريخ يعطي الفرد انطباعا بالاستمرارية. يرى المؤمن الصادق، عندما تعطيه الحركة صورة رائعة عن الماضي والمستقبل، نفسه جزءًا من شيء يمتد إلى ما لا نهاية في الماضي والمستقبل، جزءًا من الخلود. يصبح بوسعه أن يضحّي بالحاضر، وبنفسه، لا لأن هذه الحياة بائسة لا تستحق الحفاظ عليها فحسب، ولكن لأن هذه الحياة لا تمثل البداية والنهاية. وفوق هذا فإن الهوس بالماضي وبالمستقبل يسلب الواقع حقيقته: يصبح الواقع مجرد جزء صغير في موكب أو استعراض. يرى أتباع الحركة الجماهيرية أنفسهم جنودًا يزحفون إلى المستقبل على وقع الطبول المدوية وتحت الأعلام المرفرفة. يتصورون أنفسهم مسهمين في دراما تهز أعماق

النفس، تمثل أمام جمهور حاشد: الأجيال الماضية والأجيال القادمة. إنهم لا يشعرون بأنفسهم الحقيقية ولكن بأنهم ممثلون يؤدون دورًا، وتتحول أعمالهم، من ثم إلى مسرحية وتفقد صفة الأعمال الحقيقية. حتى الموت يصبح، بدوره مجرد مشهد مسرحي، عملا من أعمال الخيال.

٥١

من القدرة على احتقار الحاضر تجيء القدرة على التكهن بما سيجيئ بعده. إن القانعين الراضين لا يستطيعون أن يكونوا بارعين في التكهن. ومن ناحية أخرى، فالذين يحاربون الحاضر هم الذين يزرعون بذور التغيير واحتمالات البدايات الجديدة.

إن الحياة الراضية تعمى أعيننا عن احتمالات التغيير الجذري. تجعلنا هذه الحياة نتمسك بالمنطق وبوجهات النظر العملية، أي تجعلنا نشعر بألفة مع الأشياء كما هي في الواقع. إن الشعور بأننا نحيا حياة آمنة سعيدة يجعل كل الحقائق الأخرى مهما كانت محتملة الوقوع، خيالية وغامضة. من هنا نجد أنه عندما تعم الفوضى يفاجأ الواقعيون بما حدث، ويظهرون أمام الآخرين بمظهر الحالمين الذين يتشبثون بأشياء لم يعد لها وجود.

من ناحية أخرى، أولئك الذين يرفضون الحاضر ويوجهون قلوبهم وأنظارهم إلى الأشياء التي سوف تحدث، يستطيعون توقع التغيير، سيئا كان أو حسنا. وهكذا نرى أن المحبط والمؤمن الصادق أكثر قدرة على التنبؤ بما سيجيئ في المستقبل من القانع الذي لا يود سوى الحفاظ على الوضع القائم.

(كثيرا ما يكون المتطرفون، لا الخيرون، هم الذين يعثرون على الخيوط التي تقود إلى الحلول القادمة في المستقبل)[١٠١].

٥٢

من المفيد هنا أن نقارن بين الموقف من الحاضر والمستقبل والماضي عند المحافظ، والليبرالي، والمتشكك، والثوري، والرجعي.

يرى المحافظ أنه لا يمكن أن يوجد وضع أفضل من الوضع القائم، ويحاول جهده صياغة المستقبل على مثال الحاضر. يذهب المحافظ إلى الماضي؛ ليطمئن على المستقبل: «لقد كنت أبحث عن الاستمرارية، أريد التأكد من أن أخطاءنا الحالية وجدت منذ أن وجدت الطبيعة البشرية، وأن أفكارنا الجديدة كانت، في الواقع، أفكارًا موجودة منذ القدم، وأن الأشياء المهدّدة بالخطر التي نحبها كانت، هي الأخرى، مهدّدة في الماضي»[١٠٢].

وقريب من موقف المحافظ موقف المتشكك: (هل هناك أي شيء يمكن أن يقال عنه: انظر هذا جديدة كل شيء كان موجودًا في الماضي الذي سبقنا)[١٠٣]. يصبح الحاضر في نظر المتشكك مُحصّلة كل ما كان وكل ما يمكن أن يكون.

---

[101] Ernest Reman, History of The People of Israel, (Boston: Little, Brown, & Company 1888 – 1896) Vol. 111 – P 416.

[102] John Buchan, Pilbrim's Way (Boston: Houghton Mifflin Company, 1940) P 183.

[103] Eccles, Astes 1:10.

(الشيء الذي حدث هو الشيء الذي سيحدث ولا يوجد شيء جديد تحت الشمس)[١٠٤]. أما الليبرالي فيرى أن الحاضر هو وليد شرعي للماضي وأنه ينمو ويتطور باستمرار؛ ليصبح مستقبلا أفضل – وأي أذى يمس الحاضر يصيب المستقبل. كل هؤلاء الثلاثة، المحافظ والمتشكك والليبرالي يحبون الحاضر، وكما يمكننا أن نتوقع فإنهم لا يستجيبون طواعية لفكرة التضحية بالنفس. إن موقفهم من هذه التضحية يلخصه المتشكك الذي قال: (إن الكلب الحي أفضل من الأسد الميت. ذلك أن الحي يعرف أنه سيموت، أما الميت فلا يعرف أي شيء.. كما أن الميّت محروم إلى الأبد من المشاركة في أي شيء تحت الشمس)[١٠٥].

أما الثوري والرجعي فيكرهان الحاضر ويعدّ انه انحرافا وتشويها. والاثنان مستعدان للهجوم، بقسوة وطيش على الحاضر، وكلاهما منفتح على فكرة التضحية بالنفس، أين يختلفان، إذا؟ الخلاف الأساسي بينهما ينحصر في النظرة إلى الطبيعة البشرية. يؤمن الثوري إيمانا مطلقا بقابلية الطبيعة البشرية للتطور إلى الأفضل. إنه يعتقد أن بوسعه عن طريق تغيير بيئة الإنسان وإقامة آليات تعيد صياغته أن ينشئ مجتمعًا جديدًا كل الجدة وغير مسبوق في التاريخ. أما الرجعي فلا يعتقد أن في طبيعة الإنسان مساحة كبيرة يمكن تطويرها إلى الأفضل. ومن هنا فهو يرى أنه إذا أريد لمجتمع مستقر وصحي أن يقوم، فلا بد من أن يتبع نماذج الماضي الناجحة. إنه يرى في المستقبل إحياء عظيمًا لما كان ولا يعدّه فرصة لابتداع ما لم يكن.

---

[104] Ibid, 1:19.

[105] Ibid, 9:4, 5, 6.

والفرق بين الثوري والرجعي، في حقيقة الأمر، ليس دائمًا بهذا الوضوح. ينزع الرجعي إلى الثورية عندما يحاول أن يخلق مثل الماضي من جديد. وفكرته عن الماضي لا ترتبط بما كان بالفعل، بل بما يريده في المستقبل. إنه، في الواقع يجدد أكثر مما يعيد التشكيل. وهناك تغير مماثل في حالة الثوري عندما يشرع في بناء عالمه الجديد. إنه يشعر بالحاجة إلى نماذج يستلهمها، وحيث إنه رفض الحاضر وحطمه فهو مضطر إلى ربط العالم الجديد بنقطة ما في الماضي السحيق. وإذا اضطر الثوري إلى استخدام العنف، في تشكيل عالمه الجديد، فإن نظرته إلى الطبيعة البشرية تسوء وتقترب كثيرًا من نظرة الرجعي. إن المزج بين الرجعي والثوري ظاهرة نلمسها بوضوح عند المنخرطين في حركات الإحياء القومي. أتباع غاندي[١٠٦] في الهند والصهاينة في فلسطين يريدون إحياء ماض قديم وخلق يوتوبيا جديدة، في الوقت نفسه. ونلاحظ أن دعوة الأنبياء كانت تشمل الرجوع إلى العقائد القديمة مع إقامة مجتمع جديد بحياة جديدة.

٥٣

من الواضح أن ازدراء الحركة الجماهيرية الحاضر يتمشى مع نزعات الإنسان المحبط. يستغرب المرء عندما يستمع إلى شكاوى المحبط من الحاضر بكل ما فيه ومن السرور الذي ينتابه خلال الشكوى. هذا السرور لا يأتي لمجرد التعبير عن ظلامة ولا بدّ أن يكون هناك شيء آخر. عندما يسرف المحبطون في اتهام الحاضر وانتقاصه، فإنهم في حقيقة الأمر، يخففون

---

[١٠٦] تولى موهانداس كرامشاند غاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨م) قيادة الحركة الوطنية في الهند بعد عودته من جنوب أفريقيا سنة ١٩١٤م واستطاع عن طريق المقاومة السلمية التي نادى بها تحقيق الاستقلال واغتيل على يد متطرف هندوكي (المترجم).

من وطأة إحساسهم بالفشل والعزلة، وكأنهم يقولون: «العيب ليس فينا ولكنه موجود عند كل معاصرينا. حتى حياة أكثر المعاصرين سعادة وأعظمهم غنى حياة تافهة لا قيمة لها». وهكذا فإنهم يشعرون، عبر ازدراء الحاضر، بنوع غامض من المساواة مع الآخرين.

وهذا يعني أن الحركة الجماهيرية التي تسعى إلى جعل الحاضر مكروها وغير محتمل تلمس وترًا حساسا لدى المحبطين. والانضبام الذي يمارسه المحبطون لقمع شهيتهم للحياة يعطيهم شعورًا زائفا بالقوة[١٠٧] وتتبنى الحركة الجماهيرية أهدافا مستحيلة وغير واقعية يتمشى مع رغبات المحبطين. إن الذين يفشلون في أمورهم الحياتية اليومية ينزعون إلى البحث عن المستحيل كوسيلة لستر عيوبهم. ذلك أننا عندما نفشل في الحصول على الممكن لا نستطيع أن نلوم أحدًا سوى أنفسنا، أما عندما نفشل في الحصول على المستحيل، فبإمكاننا أن نعزو الفشل إلى صعوبة المهمّة. والإنسان لا يعرض نفسه للسخرية عندما يشرئب إلى المستحيل بقدر ما يعرضها للسخرية، وهو يحاول الممكن. ومن هنا نجد أن فشل المحبط في القيام بأموره اليومية كثيرًا ما يولد لديه شجاعة غير عادية.

يشعر المحبط بالرضا عن الوسائل العنيفة التي تتبعها الحركة الجماهيرية أكثر من شعوره بالرضا عن أهداف الحركة. إن فرح المحبط بالفوضى وبسقوط المحظوظين والميسورين لا ينبع من إحساسه أنهم بهذا السقوط يفسحون المجال لقيام مدينة مثالية بقدر ما ينتج عن

[١٠٧] يقول عبد الله ثابت: «كنا نشكل جبهة تقف أمام أبواب المركز، وحين يمر الشباب الآخرون من غير المدنيين، وأصوات الموسيقى بسياراتهم، نوقفهم ونتحرش بهم، وكثيرًا ما اعتدينا عليهم، وضربناهم». ويقول: «فلا نقف عند إشارة مرور بسيارتنا ونرى أحدًا يشرب السجائر، أو يستمع للموسيقى إلا أوقفناه، ووعظناه،... وإن أبى فعليه أن يتحمل شتيمتنا ودعاءنا عليه، وربما تصل الأمور أحيانا لتأديبه وتلقينه درسًا جسديًا» انظر ص١٠٥ – ص ١١٧ الإرهابي ٢٠ مرجع سابق (المترجم).

إحساس بالشماتة. عندما تعلو صرخة المحبطين المتشنجة تطالب (بكل شيء أو لا شيء) فإنهم في حقيقة الأمر، يتطلعون إلى لا شيء.

«الأشياء التي لم تكن»

٥٤

ثمة قاعدة تتضح لنا من تحليل العوامل التي تشجع على التضحية بالنفس، وهي أننا لا نكون مستعدين للموت من أجل ما لدينا الآن، أو من أجل هويتنا الحاضرة، بقدر ما نكون من أجل ما نود أن نكون، من أجل هويتنا في المستقبل. هناك حقيقة محيرة ومزعجة وهي أن الذين يملكون بالفعل شيئا يستحق القتال دفاعا عنه لا يشعرون برغبة في القتال. إن الذين يعيشون حياة مليئة ذات قيمة لا يكونون عادة مستعدّين للموت في سبيل وطنهم، أو من أجل قضية مقدّسة[١٠٨]. إن التطلع إلى الشيء، لا امتلاكه بالفعل، هو الذي يولد الاندفاع الذي يؤدي إلى التضحية بالنفس.

(الأشياء التي لم تكن هي، في الحقيقة، أعظم وأقوى من الأشياء التي كانت)[١٠٩] خلال العصور حارب الناس بشراسة لإقامة مدن لم تبنَ بعد، وحدائق لم تغرس بعد، قال الشيطان:

---

[١٠٨] تبدو أصداء هذه الحقيقة في رسالة من النرويج كتبت خلال الغزو النازي: «إن مشكلتنا هي أننا كنا محظوظين جدًا إلى درجة أن كثيرًا منا فقد الرغبة الصادقة في التضحية بالنفس. لقد استمتع الكثيرون بالحياة إلى درجة أن أصبحوا معها غير قادرين على التضحية بها، منقولة عن:
J. D Barry In San Francisco News, June, 1440.

[١٠٩] Corinthians 1: 28

(سيضحي الإنسان بكل ما يملكه في سبيل الإبقاء على حياته)[١١٥]. إلا أن الإنسان، في الواقع، قد يقبل بأن يموت ولا يضحي بحقه فيما لم يكن بعد.

إنه من الغريب حقا أن نجد أن أولئك الذي يحتضنون الحاضر ويتمسكون به بكل ما أوتوا من قوة هم الأقل استعدادًا للدفاع عنه. بينما نجد، في الناحية الأخرى، أن الذين يحتقرون الحاضر وينفضون منه أيديهم هم الذين يحصلون، دون أن يطلبوا، على جوائز المعركة.

إن الأحلام والرؤى والآمال الجامحة أسلحة وأدوات فاعلة. تتجلى حكمة القائد الحقيقي في مدى إدراكه القيمة الفعلية لهذه الأدوات. إلا أن هذا الإدراك ينبع، عادة، من احتقار للحاضر يعود بدوره إلى الفشل في التعامل مع الأمور الواقعية. إن رجل الأعمال الناجح كثيرًا ما يكون قائدًا سياسيًا فاشلا؛ لأن عقله، لاعتبارات تجارية، يظل مرتبطا بما هو كائن، وقلبه يتطلع إلى تحقيق (ما يمكن أن يكون). وعلى العكس، فالفشل في التعامل مع الأمور الواقعية كثيرًا ما يكون المؤهل للنجاح في إدارة الشؤون السياسية. ومن حسن الحظ أن كثيرًا من الرجال الواثقين في أنفسهم عندما يعانون الهزيمة في التعامل مع الأمور العملية لا يشعرون بالإحباط بل يصبحون، فجأة مليئين بشعور غريب أن بوسعهم أن يديروا أمور المجتمع والدولة.

٥٥

[١١٥] Job 2: 4

علينا ألا نستغرب عندما نجد أناسا مستعدين للموت من أجل وسام، أو علم، أو شعار، أو رأي، أو أسطورة، أو ما إلى ذلك، وعلى العكس فمن المستغرب أن يضحي الرجل بنفسه في سبيل شيء يملكه: من الواضح أن الحياة نفسها أغلى المقتنيات ومن دونها لا يوجد شيء يستحق أن يقتنى. إن التضحية بالنفس لا يمكن أن تكون تعبيرًا عن مصلحة ذاتية واضحة. حتى عندما نكون مستعدين لأن نموت قبل أن نقتل، فإن الرغبة في القتال لا تنبع من مصلحة ذاتية بقدر ما تنبع من أشياء غير محسوسة كالتقاليد، أو الشرف، وقبل هذا كله: الأمل. عندما لا يكون هناك أمل فإن الناس ينزعون إما إلى الهرب أو إلى الانقياد للقتل بلا مقاومة. تصبح الحياة بلا أمل، مجرد ذهول مستسلم من دون ذلك، كيف يمكننا أن نفسر أن الملايين من الأوروبيين يسمحون لأنفسهم بأن يقتادوا إلى معسكرات الإبادة وحمامات الغاز وهم يعرفون، بلا ذرة من شك، أنهم مسوقون إلى الموت؟ لقد تمكن هتلر، بمواهبه الشريرة والفظيعة، من قتل الأمل في نفوس معارضيه (في أوروبا على الأقل) وبالإضافة إلى ذلك كان يقينه أنه يبني نظامًا سيبقى ألف سنة بفعل فعله في نفوس أنصاره وأعدائه على حد سواء: شعر أنصاره أنهم حين يقاتلون معه، فإنهم يتعاونون مع القدر المحتوم، بينما أحسّ أعداؤه أن مقاومة نظام هتلر هي مقاومة قدر لا يقهر.

من الجدير بالملاحظة أن اليهود الذين استسلموا للإبادة في أوروبا النازية قاتلوا بشراسة حين انتقلوا إلى فلسطين.

وبرغم ما قيل في تفسير ذلك أنهم حاربوا في فلسطين؛ لأنه لم يكن أمامهم خيار، إذ إن العرب كانوا سيقتلونهم، فإنه يبقى إن إقدامهم واستعدادهم للتضحية بالنفس لم ينبع من اليأس، بل

من عقيدة متأججة تستهدف إحياء أرض قديمة وأمة قديمة. لقد قاتلوا وماتوا بالفعل من أجل مدن لم تبنَ بعد، وحدائق لم تغرس بعد.

العقيدة

٥٦

إن الاستعداد للتضحية بالنفس يعتمد على مدى تجاهل المرء لحقائق الحياة. إن الشخص القادر على أن يراقب تجربته الذاتية ويفحصها ويستخلص منها العبر والنتائج لا يرحّب، عادة بفكرة الشهادة: التضحية بالنفس عمل غير عقلاني ولا يجيء نتيجة بحث وتحليل. من هنا تلجأ كل الحركات الجماهيرية إلى وضع حجاب بين أتباعها وبين حقائق العالم[111] وهي تحقق هذا الهدف بتصوير عقيدتها في صورة الكمال المطلق الذي لا توجد أي حقيقة أو يقين سواه، والحقائق التي يبني عليها المؤمن الصادق النتائج لا تجيء من التجربة أو من الملاحظة، ولكنها تنبع من نص مقدّس: «لا بد من التشبث بالعالم، كما أظهره لنا الوحي إلى درجة أنني لو رأيت جميع ملائكة السماء ينزلون ويقولون لي شيئا مختلفا لما صدقت حرفا واحدًا من كلامهم ولأغلقت دونهم عيني وأذني، لأنهم لا يستحقون أن يروا أو يسمعوا»[112]. والاعتماد على الأدلة المستقاة من الحواس تعدّ، من هذا المنطلق، هرطقة وخيانة، يصعب أن نتصور الحجم الهائل من إنكار الإيمان الضروري للوصول إلى الإيمان. إن ما نعدّه إيمانا أعمى

[111] يقول عبدالله ثابت: «فالقراءات التي تغذينا بصرامة الموقف وجديته، تجاه كل من في الوجود سوانا،... والتطوّر الذي تشهده أيامي يومًا في إثر يوم كان كافيًا لتخديري، وأن يكون حجابًا مكثفا، لا أستطيع معه رؤية أي شيء غير جميل، غير ما أعيش بداخله وما أنا مفتون به» الإرهابي ٢٠ مرجع سابق، ص١٠٧. (المترجم).

[112] Luther, «Table Talk, Number 1687». Quoted By Frantz Fanck– Brentano, Luther (London: Jonathan Cape Ltd 1939,)P.246

تساعده حالات لا حصر لها من إنكار الإيمان. رفض اليابانيون المتعصبون المقيمون في البرازيل لعدة سنوات أن يصدّقوا الأدلة التي تثبت هزيمة اليابان. ويرفض الشيوعي المتطرّف أن يصدق أي دليل عن روسيا، كما أن إيمانه لن يتزعزع حتى عندما يرى بعينيه البؤس القاسي داخل أرض السوفييت الموعودة[١١٣].

إن قدرة المؤمن الصادق على أن «يغمض عينيه ويسدّ أذنيه» عن الحقائق التي لا تستحق أن ترى أو تسمع هي التي توجد حماسه الدائم وثباته على موقفه، لا يمكن للمؤمن الصادق أن يخاف الخطر، أو يخشى العقبات، أو يرتبك أمام المتناقضات: لأنه يرفض الاعتراف بوجود هذه الأشياء. إن قوة الإيمان كما لاحظ بيرجسون، «لا تتجلى في القدرة على تحريك الجبال، ولكن في القدرة على عدم رؤيتها وهي تتحرك»[١١٤]. إن اعتقاد المؤمن الصادق بعصمة العقيدة التي يعتنقها تجعله لا يقيم أي وزن للشكوك أو المفاجآت أو الحقائق غير السارة التي يمتلئ بها العالم من حوله.

ومن هنا نجد أن فاعلية عقيدة ما لا تقاس بعمقها أو سموّها أو صدق الحقائق التي تنطوي عليها، بل بقدرتها على حجب الشخص عن نفسه وعن العالم، كما هو عليه بالفعل. عن العقيدة الفاعلة قال باسكال إنها: (لابد أن تعارض الطبيعة والمنطق والرغبة)[١١٥].

[١١٣] رفض بعض المسلمين المتزمتين أن يصدقوا أن الإنسان وصل إلى القمر، حتى وهم يشاهدون نزوله في التلفزيون استنادا إلى فهم مغلوط للقرآن الكريم (المترجم).

[١١٤] Henri L. Bergson. The two sources of Morality And Religon, (New York: Henry Holt & Company, 1935).

[١١٥] Pascal, Pensees

إن فاعلية العقيدة لا تنبع من مضمونها، ولكن من عصمتها عن الخطأ. لا يمكن لأي عقيدة، مهما كانت عميقة وسامية، أن تكون فاعلة ما لم تدع أنها وحدها تحتوي على الحقيقة الكاملة. لا بد أن تكون هي الكلمة التي ينبثق منها كل شيء وينطق بها كل إنسان[١١٦]. تتساوى الأشياء السخيفة المضحكة والحقائق السامية في تحفيز الناس على التضحية بأنفسهم. إذا عدُّوها حقائق مطلقة لا توجد حقائق سواها.

ليس من الضروري لكي تصبح العقيدة فاعلة أن يفهمها المرء، ولكن من الضروري أن يؤمن بها. ونحن في الحقيقة لا نؤمن إيمانا أعمى إلا بالأشياء التي لا نفهمها. عندما تصبح العقيدة مفهومة تفقد الكثير من قوتها. عندما نتمكن من فهم شيء ما نشعر كما لو أن هذا الشيء ولد داخل أنفسنا. ومن البدهيّ أن الذين يطلب منهم أن يتنكروا لأنفسهم ويضحوا بها لا يستطيعون أن يؤمنوا إيمانا اعمى بشيء بدأ داخل أنفسهم. وهكذا نجد انه يطلب من المؤمنين أن يبحثوا عن الحقيقة المطلقة بقلوبهم لا بعقولهم: «القلب هو الذي يحسن باللهّ وليس العقل»[١١٧]. قال رودلف هس[١١٨] سنة ١٩٣٤، وهو يطلب من الشباب النازي أن يرددوا قسم الولاء خلفه: «لا تبحثوا عن إدولف هتلر بعقولكم: ستجدونه كلكم في قلوبكم»[١١٩]. وعندما تبدأ حركة في عقلنة عقيدتها وجعلها مفهومة، فمعنى هذا أن فترتها الديناميكية قد انتهت، وأنها أصبحت حريصة على الاستقرار. إن استقرار النظام يعتمد على ولاء المثقفين، ولهذا

---

[١١٦] Thomas A. Kempis, of the Imitation of Christ (New York: MacMillan Company, 1937). chp. 111.

[١١٧] Pascal, op. cit.

[١١٨] كان رودلف هس (١٨٩٤ – ١٩٨٧م) الرجل الثاني في الحزب النازي وأقلع بطائرة إلى بريطانيا سنة ١٩٤١ في محاولة طائشة لإقرار السلام بين بريطانيا وألمانيا، إلا أن البريطانيين سجنوه وحوكم بعد الحرب ومات منتحرًا في سجن في برلين (المترجم).

[١١٩] Konrad Heiden, Der Fuehrer (Boston: Houghton Mifflin Company, 1944), p.758

يصبح هم الحركة استقطاب المثقفين بدلا من همها القديم، وهو تحريض الجماهير على التضحية بالنفس. من الحرص على الاستقرار يجيء الحرص على شرح العقيدة وعقلنتها.

إذا لم تكن العقيدة غير مفهومة، فيجب أن تكون غامضة، وإذا لم تكن لا هذه ولا تلك، فلا بد أن تكون غير قابلة لإثبات العكس. يجب أن يذهب المرء إلى السماء أو إلى المستقبل البعيد؛ لكي يتحقق من صحة العقيدة الفاعلة. وعندما يكون في العقيدة جانب واضح، فإن المؤمنين الصادقين ينزعون إلى جعله معقدًا صعبا. تحمل الكلمات البسيطة الكثير من المعاني وينظر إليها كما لو كانت رموزا في شفرة سرّية، ولهذا السبب نجد قدرًا من الأمية عند أكثر المؤمنين الصادقين ثقافة. ينزع المؤمن الصادق إلى استخدام الكلمات، كما لوكان يجهل معناها الحقيقي، ومن هنا يجيء شغفه بالنقاش البيزنطي والجدال العقيم.

٥٨

عندما تمتلك حقيقة مطلقة يمكنك أن تجعل الأبدية نفسها شيئا أليفًا مفهومًا. لا تواجه من يعتنق الحقيقة المطلقة أي مفاجآت أو أشياء مجهولة: كل الأسئلة أجيب عنها، كل القرارات اتخذت، وكل الاحتمالات عرفت. لا يعرف المؤمن الصادق الحيرة أو التردد: (إن الذي يعرف المسيح يعرف سبب الأشياء كلها)[١٢٠]. إن العقيدة الصحيحة هي المفتاح الرئيس لكل مشكلات العالم، ويمكننا عن طريق هذا المفتاح أن نبعثر العالم ونعيد تشكيله من جديد. يقرّر التاريخ الرسمي للحركة الشيوعية (أن قوة النظرية الماركسية / اللينينية تكمن في أنها تمكن

[120] Pascal, op. cit.

الحزب من معرفة الاتجاه الصحيح في أي موقف، تمكنه من فهم الارتباطات الخفية بين الأحداث الجارية، وهذه الرؤية لا تشمل كيفية تطور الأحداث واتجاهاتها في الحاضر، بل تشمل أيضا المستقبل)[١٢١]. إن المؤمن الصادق يجرؤ على أن يجرب الصعب والمستحيل، لا لأن عقيدته تعطيه إحساسا بالقوة الخارقة فحسب، بل لأنها تمنحه أيضا ثقة مطلقة في المستقبل.

إن الحركة الجماهيرية الصاعدة ترفض الحاضر وتركز اهتمامها على المستقبل. هذا الموقف هو الذي يمنحها الثقة، ويجعلها قادرة على أن تمضي قدما، فتعبث بالحاضر وبسلامة أتباعها وثرواتهم وحياتهم. يجب على الحركة أن تتصرف، كما لو كانت قد قرأت كتاب المستقبل حتى نهايته: إن عقيدتها تمثل في نظرها مفتاح هذا الكتاب.

٥٩

هل يمكن غسل دماغ المحبطين بسهولة لا توجد عند غيرهم؟ هل هم سُذّج يصدقون كل شيء؟ كان باسكال يرى (أن المرء يستطيع أن يفهم الكتاب المقدّس حين يبدأ في كراهية نفسه)[١٢٢].

هنالك، على ما يبدو علاقة بين عدم الرضا عن النفس والنزعة إلى سرعة التصديق. إن الرغبة في الهرب من أنفسنا، كما هي عليه توجد رفضًا لقبول الحقائق والمنطق الصارم. لا يوجد خلاص للمحبطين فيما هو واقع وما هو ممكن: لا يجيء الخلاص إلا عن طريق المعجزة التي

[121] History of the Communist Party (Moscow: 1945, p. 355). Quoted By John Fischer, Why they Behave Like Russians (New York: Harper & Brothers, 1947), p. 236.
[122] Quoted By Emile Caillet, the Clue to Pascal (Toronto: Macmillan Company, 1944).

تتسلل من خلال ثقوب في جدار الحقيقة الحديدي. ما قاله شويسمان عن الألمان ينطبق على المحبطين عمومًا: (إنهم يصلّون لا من أجل خبزهم اليومي فحسب، بل من أجل وهمهم اليومي أيضا)[١٢٣] يبدو أن هناك قاعدة مؤداها أن الذين لا يجدون صعوبة في خداع أنفسهم لا يجدون صعوبة في خداع الآخرين لهم، ومن ثم فمن السهل إقناعهم وقيادتهم.

من الغريب أن السذاجة كثيرًا ما ترتبط عند المرء بدعاوى عريضة ليس لها أي أساس. إن امتزاج سهولة التصديق بالكذب ليس من خصائص الأطفال وحدهم، انعدام القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها يقود إلى السذاجة، وإلى الكذب في الوقت نفسه.

التطرف

٦٠

سبق القول في الجزء الأول أن الحركات الجماهيرية كثيرًا ما تكون ضرورية لتنفيذ تغييرات جذرية وسريعة. ومن العجيب أنه حتى التغييرات المنطقية والمرغوب فيها، مثل تجديد المجتمعات الراكدة، يحتاج تحقيقها إلى جو من الشحن العاطفي، كما أن تحقيقها يصحبه كل الأخطاء والحماقات التي ترتكبها الحركات الجماهيرية. ولعل استغرابنا يقل عندما نتذكر أن همّ الحركات الجماهيرية الأوحد هو أن تغرس في نفوس أتباعها القدرة على العمل الجماعي والتضحية بالذات، وهي تحقق هذا الهدف بتجريد كل كائن إنساني من تميزه واستقلاله وتحويله إلى ذرة معزولة لا حول لها ولا إرادة ولا منطق. والنتيجة لا تقتصر على ظهور أتباع

[123] Quoted By Michael Demiash kevich, the National Mind (New York: American Book Company, 1938), p. 353.

مترابطين لا يخافون الموت بل هنالك، بالإضافة إلى ذلك، عجينة بشرية يمكن للحركة تشكيلها على النحو الذي تريده. وهكذا نرى أن العجينة البشرية الضرورية لتحقيق أهداف جذرية وسريعة هي نتيجة جانبية لعملية الصهر وغسل الأدمغة بفكرة التضحية بالنفس. والنقطة المهمة، هنا، هي أن التغريب عن النفس، وهو أمر لا بدّ منه لإعداد العجينة وتهيئتها لاعتناق مبدأ الحركة، يتم، في كل الأحوال تقريبًا، في جو من المشاعر المشحونة. إن إثارة المشاعر ليست مجرد وسيلة فاعلة لهز التوازن القائم بين الإنسان ونفسه ولكنها، في الوقت نفسه، النتيجة الطبيعية لاختلال هذا التوازن. تستثار المشاعر حتى في الحالات التي يمكن فيها عزل الإنسان عن نفسه بطريقة هادئة تخلو من الانفعال. وحده الفرد الذي يتعايش مع نفسه هو القادر على أن ينظر إلى العالم من حوله بلا انفعال. عندما تزول حالة التعايش يصبح المرء مجبرًا على أن يرفض ويشجب ويسيء الظن في الجميع، ويتحوّل إلى كائن يكتفي بردود الفعل الطائشة. مثل هذا الشخص مثل عنصر كيمائي راديكالي يتوق إلى الالتحام بأي شيء يمكنه أن يصل إليه. هذا الشخص لا يستطيع أن يقف بثبات وثقة بمعزل عن الصراع، ولكنه يجد نفسه مدفوعا إلى الارتباط التام بهذا الجانب أو ذاك.

تستطيع الحركات الجماهيرية، عبر إثارة المشاعر الملتهبة في قلوب أتباعها، أن تحطم التوازن النفسي الداخلي، كما أنها تقوم باستخدام طرق مباشرة لضمان اغتراب دائم عن النفس. تصف هذه الحركات أي وجود مستقل متميز بأنه وجود عقيم لا معنى له، بل وتذهب إلى اعتباره وجودًا منحلا شرّيرًا، الإنسان بمفرده، بائس وملوث وعديم الحيلة. لا يمكن للإنسان الخلاص إلا برفض نفسه، والعثور على حياة جديدة في أحضان كيان جماعي

مقدّس، سواء كان هذ الكيان كنيسة، أو أمة، أو حزبًا. وازدراء النفس هذا يوّلد مشاعر تظل في حالة اشتعال دائم.

٦١

قدر المتطرّف أن يشعر بالنقص وفقدان الثقة. لا يستطيع المتطرّف أن يستمد الثقة من قدراته الذاتية، أو من نفسه التي تنكّر لها، ولكنه يجدها في الالتصاق المتشنج بالكيان الذي احتضنه. يجد المتطرّف في هذا الالتحام ما يحفزه على الولاء الأعمى الذي يشبه التدين، كما أنه يجد فيه نبع الخير والقوة وبرغم أن المتطرّف يهدف، بهذا الولاء الأعمى، في الدرجة الأولى أن يحافظ على بقائه إلا أنه قادر على أن يعدّ نفسه جنديًا يحمي القضية المقدّسة التي اعتنقها[١٢٤]. والمتطرف على استعداد للتضحية بحياته لكي يثبت لنفسه، وللآخرين، أن هذا بالفعل هو دوره، أن يضحي بحياته؛ ليثبت أهميته!

من الغني عن الذكر أن المتطرّف مؤمن أن القضية التي اعتنقها قضية مثالية أبدية، صخرة تبقى صامدة على مرّ العصور. ومع هذا فشعوره بالثقة مستمد من التحاق المتشنج بالقضية، لا من كون القضية سامية بالفعل. من هنا لا نستطيع أن نعدّ المتطرّف إنسانا متمسكا بالمبادئ. إنه يعتنق قضية ما لا بسبب عدالتها أو سموّها، ولكن لحاجته الملحة إلى شيء يتمسك به. يعدّ المتطرّف أي قضية يعتنقها قضية مقدسة.

[١٢٤] يقول عبدالله ثابت: «إذًا فكل ما مضى كان داعيًا للانسجام مع هذه الشريحة، واعتقادها نواة كل خير في الوجود، ولم يكن عندي أدنى شك أنهم المخلصون من وعثاء الدنيا ومن جحيم الآخرة، فمن يستطيع أن يخلصني من وحدتي وجحيم عائلتي فسيكون جديرًا بأن أضحّي بكل شيء لأجله، وأن أكون معه وله فيما أريد، فكيف وهو يخلصني من الدنيا ليأخذني إلى الله، ويقدّم لي الطمأنينة والسعادة والإخاء والحب، وكل ما حرمت منه!» الإرهابي ٢٠، مرجع سابق، ص ٨٧.

ليس بالإمكان إبعاد المتطرف عن قضيته بالمنطق والنقاش. يخشى المتطرف أنصاف الحلول، ومن ثم يستحيل إقناعه بأن يخفف من حدة إيمانه المطلق بعدالة قضيته المقدّسة. وبرغم ذلك فهو لا يجد صعوبة في القفز، فجأة وبقوة، من قضية مقدّسة إلى قضية مقدّسة أخرى. لا يمكن إقناع المتطرّف ولكن يمكن تحويله إلى قضية أخرى. إن التحاق المتشنج بقضية ما هو العامل الجوهري، وليس نوعية القضية التي يتبناها.

٦٢

على الرغم من أن المتطرفين يظهرون كما لو كانوا على طرفي نقيض مع المتطرفين في حركة جماهيرية أخرى، إلا أنهم جميعًا، في حقيقة الأمر، يقفون، متزاحمين، في زاوية واحدة. إن الفرق الحقيقي ليس بين مختلف أنواع المتطرفين، ولكن بين المتطرفين والمعتدلين: هؤلاء يظلون متباعدين ويستحيل أن يلتقوا، ينظر المتطرفون بعضهم إلى بعض بشك، وهم على استعداد للاشتباك والمواجهة. ومع ذلك، فهم جيران، بل إنهم أعضاء في أسرة التطرف الواحدة. والكراهية التي يحسّ بها متطرف نحو متطرف آخر شبيهة بالكراهية بين الإخوة. من الأسهل على شيوعي متطرّف أن يتحول إلى الفاشية، أو الوطنية المتطرفة، أو الكاثوليكية، من أن يتحول إلى ليبرالي معتدل.

إن نقيض المتدين المتعصب ليس الملحد المتعصب، ولكن المتشكك الذي لا يتخذ موقفا محددًا من الدين، الملحد متدين من نوع ما؛ لأنه يعتنق الإلحاد كما يعتنق المرء دينا جديدًا[١٢٥]. والملحد

[125] Fedor Dostoye Yesky, the Idiot, Partiv, chp, p. 7.

يتبع مبدأه بحماسة وقوة. يقول رينان: (عندما يكف العالم عن الإيمان بالله فإن الملحدين سيكونون أشد الناس تعاسة»[126]. ومن المنطلق نفسه، نجد أن نقيض الوطني المتطرّف ليس الخائن، بل المواطن المنطقي المعتدل الذي يحب الحاضر، ولا يتطلع إلى الاستشهاد والمغامرات البطولية. كثيرًا ما يكون الخائن متطرفا – من النوع الراديكالي أو الرجعي – ينحاز إلى العدو؛ ليسارع في تحطيم العالم الذي يكرهه. وأكثر الخونة، خلال الحرب العالمية الثانية، كانوا ينتمون إلى اليمين المتشدّد (يبدو أن هناك خيطا رفيعا يفصل بين القومية العنيفة المتطرفة والخيانة)[127].

ونحن الذين عاصرنا مدة هتلر، ندرك أن الروابط التي تجمع بين الرجعي والراديكالي أكثر من الروابط التي تجمع أيّا منهما بالليبرالي أو المحافظ.

٦٣

من المستبعد أن يستطيع المتطرّف الذي هجر قضيته المقدّسة، أو الذي وجد نفسه، فجأة، بلا قضية أن يتأقلم مع وجود فردي مستقل. الأغلب أنه سيصبح باحثا عن قضية أخرى، شأنه شأن المسافر المفلس الذي ينتظر مرور سيارة تحمله مجانًا.

إن الوجود الفردي حتى عندما يكون ذا معنى يبدو، في عين المحيط، تافهًا وغير مُجْدٍ، أشبه ما يكون بالخطيئة. يرى المحيط في التسامح علامة الضعف والسطحية والجهل، ويظل متعطشا إلى تلك الثقة المطلقة التي لا تجيء إلا بالاستسلام الكامل، بالالتحام، قلبًا وقالبًا،

---

[126] Ernest Renam, op. cit, Vol. V, p. 159.

[127] Harold Ettlinger, the Axis on the Air. (Indiana polis: Bobbs – Merill company, 1943, p. 39.

بعقيدة وبقضية. ولا تهم هنا طبيعة القضية بقدر ما يهم أن يلتصق بها ويتواصل مع أتباعها. بل إننا نجده على استعداد للانضمام إلى حرب مقدّسة ضد قضيته السابقة شريطة أن تكون الحرب شاملة متطرفة بعيدة عن التسامح تعدّ عقيدتها الحقيقة الأولى والأخيرة. كان المتطرفون السابقون في ألمانيا واليابان المهزومتين أشد تجاوباً مع الدعوة الشيوعية والدعوة الكاثوليكية المتعصبة، فهم مع التعاليم التي تنادي بالحياة الديمقراطية. ونجاح الشيوعي، هنا لا يعتمد على أساليبها الفاعلة بقدر ما يعتمد على بذرة التطرف الذي يوجد في نفوس المتطرفين السابقين في اليابان وألمانيا. إن الذين يدعون إلى الديمقراطية لا يستطيعون تقديم قضايا مقدّسة يمكن الالتحام بها، ولا جمهورًا متماسكا يستطيع المرء أن يذوب فيه. تستطيع روسيا الشيوعية بسهولة، أن تحول سجناء الحرب اليابانيين إلى شيوعيين متطرفين في الوقت الذي تعجز فيه الدعاية الأمريكية، مهما كان ذكاؤها وتطورها، من أن تقنعهم بالتحوّل إلى ديمقراطيين يعشقون الحرية.

الحركات الجماهيرية والجيوش

٦٤

من المفيد، هنا، قبل أن نغادر موضوع التضحية بالنفس، أن نلقي نظرة على وجوه الشبه والفوارق بين الحركات الجماهيرية والجيوش، وهي المشكلة التي سبق لنا التطرق إليها في قسم «٣٥»، وقسم «٣٧» من هذا الكتاب.

إن وجوه الشبه كثيرة: كل من الحركات الجماهيرية والجيوش تنظيمات جماعية: كل منهما يسلب الفرد استقلاله وتميزه: كل منهما يتطلب التضحية بالنفس، والطاعة العمياء، والولاء المطلق: كل منهما يستعين بالخيال والأوهام للتحفيز على المغامرة والعمل الجماعي (راجع قسم «٤٧»)؛ وكل منهما يصبح ملجأ للفرد المحبط الذي لا يستطيع أن يتحمل وجوده المستقل. بوسع تنظيم عسكري، كالفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي، أن يجتذب كثيرًا من العناصر التي تستهويها الحركات الجماهيرية. ومن الملاحظ أن ضابط التجنيد العسكري، والناشط الشيوعي، والداعية التبشيري، يصيدون الأسماك من البحيرة نفسها: بحيرة المحبطين.

ومع ذلك، فإن هناك فروقا جوهرية بين الجيوش والحركات الجماهيرية: لا يهدف الجيش إلى إيجاد أسلوب جديد للحياة؛ ولا يشكل طريقًا للخلاص. صحيح أن بإمكان سلطة قمعية ما أن تستخدم الجيش هراوة لفرض أسلوب جديد من الحياة على الذين يرفضون هذا الأسلوب، إلا أن الجيش، في الأساس، أداة للحفاظ على نظام قائم أو أداة لتوسعه، سواء كان النظام قديمًا أو جديدًا. والجيش أداة يمكن أن تفعل، بالتجنيد ويمكن أن تحل بالتسريح. إلا أن الحركة الجماهيرية تعدّ نفسها منظمة أبدية، والأعضاء الذين ينضمون إليها ينضمون مدى الحياة. إن الجندي السابق محارب قديم، وقد يكون بطلا، أما المؤمن الصادق السابق فمجرد خائن. الجيش أداة لتقوية الحاضر وحمايته ومدّ نطاقه، أما الحركة الجماهيرية فهدفها نسف الحاضر، وهي مسكونة بهاجس المستقبل، الأمر الذي يمنحها الكثير من العزيمة والقوة. وعندما تبدأ الحركة الجماهيرية في الانشغال بالحاضر، فمعنى هذا أنها حققت هدفها.

في هذه المرحلة ينتهي كونها حركة، وتتحول إلى كيان مؤسسي، كنيسة منظمة، أو حكومة، أو جيش (من الجنود والعمّال). يحمل الجيش الشعبي الذي كثيرًا ما يكون من إنتاج حركة جماهيرية بعض خصائص هذه الحركة: الخطاب المثير، والشعارات الملتهبة والرموز المقدّسة. إلا أنه، كأي جيش آخر، يحتفظ بتماسكه لا بسبب العقيدة والحماسة بل بفضل التدريب المستمر والضبط وأخوة السلاح. بعد مدة، يفقد الجيش الشعبي سمات الحركة الجماهيرية ويصبح جيشا مولعًا بالحاضر، وبما يتيحه من ملذات ومتع، شأنه شأن الجيوش كلها.

يتعامل الجيش، بوصفه أداة من أدوات الحاضر، أساسا مع الأهداف الممكنة، ولا يعتمد قادته على وقوع معجزات، حتى عندما يحمل الجيش عقيدة مقدّسة فإن بالإمكان إقناعه بقبول حلول وسط. يعرف الجيش أنه من الممكن أن يهزم ويعرف، من ثم، كيف يستسلم. من الناحية الأخرى، نجد أن قائد الحركة الجماهيرية يشعر باحتقار هائل للحاضر، بكل حقائقه، بما فيها حقائق الجغرافيا والمناخ، ويحاول أن يتجاوزها بالإيمان بالمعجزات. ويصل احتقاره للماضي أوجه عندما يزداد الموقف الذي يواجهه خطورة. إنه على استعداد لتدمير بلاده وشعبه قبل أن يستسلم.

تنبع التضحية بالنفس داخل جيش ما من الانقطاع للواجب، من الخيال والأوهام، من الروح الجماعية، من التدريب والتمرين، من الإيمان بالقائد، من المغامرة، والتعطش إلى المجد. وهذه الأدوات، على خلاف أدوات الحركات الجماهيرية، لا تنبع من احتقار الحاضر وكراهية النفس، وبالإمكان تفعيلها دون حاجة إلى جو مشحون بالتوتر. إن الجندي المتطرف، عادة، متطرف تحوَّل إلى جندي، وليس العكس وروح التضحية عند الجيش

تعكسها بدقة كلمات قائد عسكري عندما اكتسح جيشه العدو: (لوكان بوسعنا، بالفرار من هذه الحرب، أن نفرّ من الشيخوخة والموت، لما وجدتني أقاتل هنا، ولكن مع وجود الموعد الذي يطاردنا على نحو لا نستطيع تفاديه، فمن الأفضل أن نصمد ونقاتل، ونحقق الأمجاد لرجال غيرنا، ونظفر بها نحن)[١٢٨].

إن الفارق الذي يسترعي الانتباه بين الحركات الجماهيرية والجيوش يتضح في نظرة كل منهما إلى الغوغاء.

يلاحظ دي توكيفيل أن الجنود (هم الذين يفقدون حياتهم بسهولة، ويبدو ضعفهم خلال أيام الثورة)[١٢٩] ينظر قائد الجيش إلى الغوغاء باعتبار أن جيشه سيصبح منهم إذا ما تفكك. وهذا القائد يرى في الغوغاء النزعة إلى الفوضى والتخريب قبل أن يلحظ نزعتها إلى التضحية بالنفس. يرى في الغوغاء بقايا من بناء جماعي تهدم، ولا يعدّهم المادة الخام لغد أفضل. وهكذا نجد أن موقفه مزيج من الخوف والاحتقار: يستطيع أن يقمع الغوغاء، ولكنه لا يستطيع أن يستميلهم، أما قائد الحركة الجماهيرية فيستمد الإلهام من المجموع ووجوهها الملتفتة إليه، ويعد زئير المجموع في أذنيه صوت القدر. يرى في الغوغاء قوة قاهرة تحت تصرفه، قوة يستطيع هو وحده التحكم فيها، وعن طريقها يستطيع تدمير الجيوش والإمبراطوريات، والحاضر كله، برغم قوته. يبدو وجه المجموع، في نظر قائد الحركة وجها قادمًا من الأعماق، وجها يستطيع أن يخلق العالم الجديد.

---

[128] Homer, Iliad.

[129] Alexis de Tocqueville, Recollections (New York: Macmillan Company, 1896) p. 5.

الفصل الرابع عشر: العوامل التي تشجع العمل الجماعي

الكراهية

٦٥

الكراهية هي أكثر العوامل الموحّدة شمولا ووضوحًا. تجتذب الكراهية الشخص من نفسه، وتنسيه ما حوله، يومه ومستقبله، وتحرّره من الشعور بالغيرة والرغبة في الإنجاز.

وهكذا يصبح الشخص جزءًا لا هوية له يتحرّق بالرغبة إلى الالتحام بالأجزاء التي تشبهه؛ ليكوّنوا جمهورًا شديد الاشتعال[١٣٠] ويرى هاين أن ما لا يمكن تحقيقه بالحب على الطريقة المسيحية يمكن تحقيقه بالكراهية الجماعية[١٣١].

تستطيع الحركة الجماهيرية أن تبدأ وتنتشر دون أن تؤمن بالله، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دون الإيمان بالشيطان. ويمكن، عادة، أن نقيس قوة الحركة الجماهيرية بمدى نجاحها في إيجاد شيطانها وتجسيده، عندما سئل هتلر عمّا إذا كان من الضروري إبادة اليهود قال: (كلا.. لو زال اليهود لكان علينا أن نخترعهم... من الضروري أن يكون هناك عدو ملموس لا مجرد عدو مفترض)[١٣٢]. ويروي أف. إي. فويجت قصة بعثة يابانية وصلت برلين سنة ١٩٢٣م لتدرس الحركة النازية. سأل فويجت أحد أعضاء هذه البعثة عن رأيه في هذه الحركة،

---

[١٣٠] يقول عبد اللهّ ثابت: «... عدت من هذه الرحلة وأكثر نقطة في الكون بغضًا إلى قلبي بيت أهلي المليء بالمعاصي والكفريات، ولتعود الخلافات والمناجزات بيني وبينهم من جديد، ولعظيم ما بي من الإقبال على هؤلاء والإدبار عن أهلي، حدثت... المسؤول عني عما أعيشه. فأمرني بترك البيت مجددًا، والنوم بالمساجد، وسيعطيني ما أحتاجه من المال، فامتثلت لأمره وغادرت بيت أهلي!». الإرهابي ٢٠، مرجع سابق، ص ٩٥.

[131] Heinrich Heine, Religion And Philosophy In Germany (London: Trubner & Company, 1882), p. 234.

[132] Hermany Rauschning, Hitler Speaks, (New York: G. p. putnam's Sons, 1940), p.234.

فكان جوابه: (إنها رائعة. أتمنى أن توجد حركة مشابهة في اليابان، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك: لأنه لا يوجد لدينا يهود)[١٣٣].

إن براعة الشخص الذي يعرف كيف يبدأ حركة جماهيرية ويطلقها، أو كيف يبقيها، تتجلى في معرفة كيف يختار العدو الملائم بقدر ما تتجلى في قدرته على اختيار العقيدة الملائمة ووضع برامج لتنفيذها. لم يصبر المنظرون في الكرملين حتى تهدأ مدافع الحرب العالمية الثانية قبل أن يختاروا الغرب الديمقراطي، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، عدوًّا للشيوعية. ومن المشكوك فيه أن أي مبادرات سلمية أو تنازلات كانت ستخفف من حدة الهجوم العنيف الذي أخذ ينصب على الغرب من الكرملين.

ولعل أفدح الأخطاء التي ارتكبها تشانج كاي شيك كان فشله في أن يجد العدو الجديد الملائم بعد أن اختفى جيش الاحتلال الياباني من المسرح في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان الجنرال شديد الطموح، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء الذي يوضح له أن ما أبداه الصينيون من حماسة وترابط واستعداد للتضحية بالنفس لا ترجع إلى شخصه هو، بل إلى وجود الشيطان الياباني المحتل.

٦٦

تستطيع الكراهية الجماعية أن توحّد العناصر المتنافرة. بل إن هذه الكراهية يمكن أن توجد رابطا مشتركا مع عدو على نحو ينخر قواه ويضعف مقاومته. لقد استطاع هتلر أن يستغل

[١٣٣] Fritz August Vol 6t, unto caesar (New York: G. P, PutnamS Sons, 1938), p. 301.

كراهية اليهود، لا لكي يوحد ألمانيا فحسب، بل ليضعف مقاومة دول تكره اليهود، مثل بولندا ورومانيا وهنغاريا، وحتى، في النهاية، فرنسا، كما استطاع أن يستخدم كراهية الشيوعية بالطريقة نفسها.

٦٧

إن الرب رب واحد، والشيطان في الحركات الجماهيرية شيطان واحد. وهنا لنا أن نصغي إلى هتلر، أعظم خبير في طبيعة الشياطين، وهو يقول: إن عبقرية الزعيم تتجلى في التركيز على عدو واحد على نحو (يجعل حتى الخصوم المتنافرين داخل هذا العدو يظهرون كما لو كانوا كتلة واحدة)[١٣٤]. وعندما اختار هتلر اليهود شيطانا لحركته، فإنه عمد إلى ملء العالم كله تقريبًا خارج ألمانيا باليهود أو عملائهم: (خلف إنجلترا يقف اليهود، وخلف فرنسا، وخلف الولايات المتحدة)[١٣٥] وستالين، بدوره، آمن بضرورة اختيار شيطان واحد. في الماضي كان هذا الشيطان الفاشية، ثم أصبح الرأسمالية الأمريكية.

يتمتع شيطان الحركة الجماهيرية بحضور دائم وقوي لا حدود له. وعندما سُئل هتلر عما إذا كان يبالغ في الأهمية التي يضفيها على اليهود؟ أجاب: (لا! لا! لا! من المستحيل أن نبالغ في وصف القوى الهائلة للعدوّ اليهودي)[١٣٦]. وهكذا يصبح أي فشل داخل الحركة من فعل الشيطان، وأي نجاح تحقق فمن الشيطان ومخططاته.

---

[134] Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943), p. 118.

[135] Quoted By Herman Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam's Sons, 1940), p 234.

[136] Ibid.

ويبدو، ختامًا، أن الشيطان المثالي لا بدّ أن يكون أجنبيًا. ومن هنا فإنه لا بد، لكي تكتمل الصورة من منح الشيطان المحلي أصولا أجنبية. كان بوسع هتلر، بسهولة، أن يدفع اليهود الألمان بوصمة الأجانب. وقد ركزت الحركة الروسية الثورية على الأصول الأجنبية للاستقراطية الروسية[137]. وخلال الثورة الفرنسية اعتُبر الأرستقراطيون (أحفاد الألمان المتوحشين، أما الفرنسيون العاديون فكانوا أحفاد الرومان والفرنسيين القدامى المتحضرين[138]) وفي أثناء الثورة الإنجليزية اعتبر الملكيون (من النورمان المنحدرين من الغزاة الأجانب)[139].

٦٨

نحن، عادة، لا نبحث عن حلفاء عندما نحب. حقيقة الأمر أننا نعدّ من يشاركوننا حُبّنا منافسين ومعتدين، إلا أننا، دومًا، نبحث عن حلفاء عندما نكره.

من طبيعة الأمور أنه يجب أن نبحث عن آخرين يقفون معنا عندما تكون لدينا ظلامة مشروعة تجعلنا نتوق إلى الانتقام من أولئك الذين ظلمونا. إلا أن الشيء المُحيّر هو أنه حتى عندما لا تنبع كراهيتنا من ظلامة واضحة ولا تقوم على أساس، فإن الحاجة إلى حلفاء تصبح أشدّ إلحاحًا. إن الكراهية غير المنطقية هي التي تدفعنا إلى الانضمام إلى أولئك الذين يكرهون كما نكره، وهذا النوع من الكراهية هو الذي يتحول إلى عامل فاعل من عوامل الوحدة.

[137] Crane Brinton, the Anatomy of Revolution (New York: W. w. Norton & Company, Inc., 1938) p. 62.

[138] Ibid.

[139] Ibid.

من أين تأتي هذه الكراهية غير المنطقية ولماذا تتحوّل إلى عامل توحيد؟ إنها تعبير عن محاولة يائسة من جانبنا لإخفاء شعورنا بالنقص، أو بقلة أهميتنا، أو بالذنب، أو بأي عيوب أخرى تنبع من داخلنا. يتحول احتقار النفس، هنا كراهية للآخرين، مع محاولة مستميتة لإخفاء هذا التحوّل. من الواضح أن أكثر الطرق فاعلية لتحقيق التحوّل هو أن نجد أكبر عدد ممكن من الأشخاص الذين يكرهون كما نكره. نحتاج هنا إلى قدر كبير من التوافق، وجهدنا لتحقيق هذا التوافق لا يتعلق بنوع العقيدة التي نبشر بها، بل بالكراهية غير المنطقية التي نود أن تعمّ الجميع.

حتى عندما تكون هناك ظلامة مشروعة، فإن كراهيتنا لا تنبع من الظلم الذي مسنا بقدر ما تنبع من إحساسنا بالعجز والفشل والجبن، بعبارة أخرى من احتقارنا أنفسنا. عندما نشعر بالتفوق على أعدائنا فإننا نعاملهم باحتقار، وربما بشيء من الشفقة، ولكننا لا نكرههم. إن العلاقة بين الظلم والكراهية ليست واضحة ومباشرة، كما يتضح لنا من الحقيقة التي تثبت أن الكراهية التي يبعثها الظلم لا توجه، دائمًا، نحو الظالمين. كثيرًا ما يحدث عندما يظلمنا شخص أن تتحوّل كراهيتنا إلى شخص آخر، أو جماعة أخرى لا علاقة لها بالأمر، من السهل استثارة الروس الذين يعانون القمع على يد بوليس ستالين السرّي ضد (تجار الحروب الرأسماليين)؛ وقد انتقم الألمان الذين شعروا بالظلم الذي أوقعته بهم معاهدة فرساي بإبادة اليهود؛ وعمد الزولو الذين كان البوير يضطهدونهم في جنوب أفريقيا إلى ذبح الهندوس؛ ولجأ رعاع البيض الذين يحتقرهم الأرستقراطيون البيض في جنوب الولايات المتحدة إلى

شنق السود[140]. إن احتقار النفس يولد (أكثر النزعات إجرامًا؛ لأنه يجعل الشخص ينطوي على كراهية قاتلة للحقيقة التي تدينه هو، وتظهر عيوبه)[141].

٦٩

تتضح لنا الحقيقة التي تقول: إن الكراهية تنبع من احتقار النفس أكثر مما تنبع من الظلامة المشروعة عندما نتفحّص العلاقة الحميمة بين الكراهية وتأنيب الضمير.

لا توجد طريقة أكثر فاعلية لكره شخص ما من إيقاع ظلم فادح بهذا الشخص. إن كون الآخرين يملكون ظلامة حقيقية تدعوهم إلى كرهنا يجعلنا نكرههم أكثر مما لوكنا نملك ظلامة حقيقية ضدّهم. ونحن لا نجعل الناس متواضعين وديعين نادمين على تصرفاتهم عندما نكشف لهم عن ذنوبهم: الأرجح أننا سنثير فيهم مشاعر الكبرياء والعدوانية. إن شعورنا أننا على حق مطلق لا يعدو أن يكون ضجة عالية نحاول أن نفرق فيها شعورنا المترسخ بالذنب الكامن في أعماقنا.

هناك شعور بتأنيب الضمير خلف كل الكلمات والأفعال المتعالية على الآخرين وخلف كل إعلان عن الرضا التام عن النفس.

٧٠

---

[140] يمكننا أن نضيف هنا أن الإسرائيليين انتقموا من المحرقة الألمانية بصب جام غضبهم على الفلسطينيين (المترجم).

[141] Pascal, Pensees.

نصبّ المزيد من الوقود على كراهيتنا عندما نظلم الذين نكرههم. وعلى النقيض، فنحن عندما نتعامل مع العدو بتسامح نضعف من كراهيتنا له.

٧١

أكثر الطرق فاعلية لخنق تأنيب الضمير إقناع أنفسنا والآخرين أن الذين أخطأنا بحقهم هم، بالعقل، مخلوقات شريرة تستحق أقصى العقوبات، بما فيها الإبادة. ليس بوسعنا أن نشفق على الذين ظلمناهم، ولا أن نتصرف إزاءهم بحياء. لا بدّ أن نكرههم ونضطهدهم وإلا أبقينا الباب مفتوحًا أمام احتقار النفس.

٧٢

يعاني أتباع الأديان السامية شعورًا بالذنب عندما تتسع الهوة بين تعاليم دينهم وواقعهم المليء بالمعاصي. وعندما يدخل التطرف الصورة، فإن الشعور بالذنب يتحوّل إلى كراهية سافرة. وهكذا نجد أنه كلما ازداد التطرف عند أتباع مذهب ما، مهما كان المذهب نفسه ساميًا، كلما نما لديهم الشعور بالكراهية.

٧٣

إن كراهية عدو لديه جوانب طيّبة أسهل من اختيار عدو سيئ تمامًا. يصعب علينا أن نكره أولئك الذين نحتقرهم احتقارًا تامًا. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت لدى اليابانيين ميزة على الغرب، إذ كان اليابانيون معجبين بالغربيين أكثر مما كان الغربيون معجبين بهم، ولهذا فقد كان بوسعهم كراهية الغربيين بحدّة لم توجد عند الغربيين. وقدرة الأمريكيين على

الكراهية أقل من قدرة غيرهم بسبب شعورهم بالتفوق على كل الأجانب. إن كراهية الأمريكي أمريكيا آخر (الرئيس هوفر[١٤٢] أو الرئيس روزفلت[١٤٣] مثلا) أكثر عنفًا من أي كراهية يمكن أن يشعر بها نحو الأجانب. ومن اللافت للنظر أن الجنوب المتخلف في الولايات المتحدة يشعر بكراهية الأجانب بدرجة لا توجد في بقية البلاد. وعندما يبدأ الأمريكيون في كراهية الأجانب من أعماقهم، فسوف يكون هذا بمنزلة اعتراف بأنهم فقدوا إيمانهم بتفوق أسلوبهم في الحياة[١٤٤].

إن امتزاج الإعجاب بالكراهية يتّضح في نزعتنا إلى تقليد من نكرههم. وهكذا نرى أن كل حركة جماهيرية تصوغ نفسها على نحو يناسب شيطانها المختار. مارست المسيحية في عنفوانها سلوكا شبيها بسلوك المسيح الدجال. ومارس اليعاقبة في فرنسا كل شرور الطغيان الذين ثاروا عليه. وحققت روسيا السوفييتية أقصى ما يمكن أن يحققه الاحتكار الرأسمالي. وقد جعل هتلر من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) نموذجا اتبعه وطبقه بكل تفاصيله[١٤٥].

من المفزع حقا أن نلحظ كيف يعمد المظلومون، دومًا، إلى صياغة أنفسهم على شكل ظالميهم. وما يقال من أن الشرّ يبقى حتى بعد أن يذهب فاعلوه صحيح، ومرجع ذلك أن الذين لديهم

[١٤٢] تولى هيربرت هوفر (١٨٧٤ – ١٩٦٤م) رئاسة الولايات المتحدة بين سنتي (١٩٢٩ – ١٩٣٢م) وفي عهده حصل الانهيار الاقتصادي الشامل الذي سُمّي الكساء العظيم (المترجم).

[١٤٣] تولى فرانكلين روزفلت (١٨٨٢ – ١٩٤٥ م) الرئاسة بعد هوفر وكان الرئيس الأمريكي الوحيد الذي انتخب ثلاث مرات، وتمكن عن طريق سياسات مالية مبتكرة من القضاء على الكساد، وقاد الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية ويعدّ من أعظم الرؤساء الأمريكيين (المترجم).

[١٤٤] هل بقي هذا الموقف الأمريكي من الأجانب بعد تفجيرات سبتمبر (٢٠٠١)؟

سؤال أتركه مفتوحًا! (المترجم).

[145] Herman Rauschning. Hitler Speaks (New York: G. p. Putnam's sons, 1940) p. 235.

سبب لكراهية الشر يشكلون أنفسهم على شاكلته، ومن ثم يديمون وجوده. من الواضح، إذا، أن تأثير التطرف يتجاوز بكثير حدود قدراته، من خلال الدعوة إلى الشر ونشره، يصور المتطرف العالم كله على مثاله. لقد وضعت المسيحية المتطرفة بصماتها على العالم القديم عن طريق احتضان أتباع جدد وعن طريق دفع أعدائها الوثنيين إلى المزيد من القسوة. وقد فرض هتلر نفسه على الدنيا بنشر النازية وبإجبار الديمقراطيات على أن تصبح متطرفة وقاسية. وروسيا الشيوعية تصوغ كلاً من أعدائها وأصدقائها على مثالها.

وهكذا نرى أن الكراهية وسيلة سهلة لتحفيز جماعة ما للدفاع عن نفسها، إلّا أنها، على المدى البعيد، ذات ثمن باهظ، ونحن ندفع هذا الثمن عندما نتخلى عن القيم التي كنّا في البداية ندافع عنها، أو عن بعضها.

تمكن هتلر، الذي أدرك عنصر الإعجاب في الكراهية، من الوصول إلى استنتاج مذهل، قال: إنه من الضروري للحركة النازية أن تستثير كراهية أعدائها الحادّة، وأن تستحقها. هذه الكراهية، في رأيه، هي الدليل على تفوّق النازية: (إن أصدق دليل على قيمة النازية وصدق عقيدتها وقوة إرادتها هو العواء الذي تقابل به من جانب العدوّ)[146].

---

[146] A dolph Hitler, op. cit, p. 351.

نحن، عندما نشعر بالظلم نتيجة معرفتنا بقلة أهميتنا، لا نرى أنفسنا أحط من البعض وأرقى من البعض، بل نرى أنفسنا في الحضيض، وعندها نكره العالم كله ونصب جام غضبنا على الخليقة بأكملها.

إن المحبطين يشعرون بكثير من السعادة عندما يشهدون سقوط المحظوظين وفضائح المثاليين. يرى المحبطون في الانهيار الشامل وسيلة لإقامة الإخاء بين الجميع. الفوضى، كالقبور، مكان يضمن المساواة. إن شعور المحبطين المتحرق بضرورة إيجاد حياة جديدة ونظام جديد يغذيه الاعتقاد أنه لا بد من هدم القديم تمامًا قبل البدء في بناء الجديد. أن تشوقهم إلى عهد جديد مليء بكراهية كل ما هو قائم، والتطلع إلى نهاية العالم.

٧٥

بوسع الكراهية المتقدة أن تمنح الحياة الفارغة معنى وهدفا. ومن هنا، فإن الأشخاص الذين يعانون تفاهة حياتهم يعمدون إلى البحث عن معنى جديد، لا عن طريق اعتناق قضية مقدّسة فحسب، بل باحتضان ظلامات متطرفة. وتتيح الحركة الجماهيرية للمحبطين تحقيق الهدفين.

٧٦

قال باسكال: (الناس، بطبيعتهم، يكرهون بعضهم بعضا) وقال: (إن الحب والإحسان ليسا سوى صورة خارجية مزيفة تخفي في قاعها الكراهية)[١٤٧]. وسواء كان ما قاله باسكال صحيحًا أو لم يكن، فإنه يصعب علينا أن ننكر أن الكراهية عامل لا يغيب عن تصرفاتنا الفردية

---

[147] Pascle, op. cit.

والجماعية. والكراهية نتيجة طبيعية لانهيار ولائنا وعواطفنا وآمالنا. ومن الناحية الأخرى، فإنه بوسعنا أن نستغل الكراهية لصنع الولاء والحماس والأمل. قال مارتن لوثر: (عندما أشعر أن قلبي بدأ يبرد، وأعجز عن الصلاة بحرارة، أجلد نفسي بتصوّر جحود أعدائي وقلة إيمانهم، أعني البابا وأعوانه.. عندها يمتلئ قلبي بالغضب الصادق والكراهية، وأستطيع أن أصلي بقوة ودفء: «تبارك اسمك، وجادت مملكتك، وتمت إرادتك! لكما ازداد غضبي زادت حماستي للصلاة»[١٤٨].

٧٧

إن الوحدة والتضحية بالنفس، في حد ذاتهما، حتى عندما يكونان نتيجة عوامل سامية يخلقان قدرة على الكراهية. حتى عندما يتحد الناس بقوة لنشر التسامح والسلام على الأرض، فإنه من المتوقع ألا يشعروا بأي تسامح إزاء أولئك الذين لا يشاركونهم معتقدهم.

لا يمكن من دون غربة عن النفس أن تكون هناك تضحية بالنفس أو التحام كامل في المجموع وهذه الغربية تخلق، كما سبقت الإشارة، نزعة نحو المواقف المتطرفة، التي تشمل الكراهية الحادة. وهناك عوامل أخرى تساعد على نشوء الكراهية في محيط الوحدة والتضحية بالنفس. إن الاستعداد للتضحية بالذات يجعلنا قادرين على القسوة، خالية من الرحمة في مواجهة الآخرين. هناك اعتقاد شائع أن المؤمن الصادق، والمتدين بصفة خاصة، هو إنسان متواضع. إلا أن الحقيقة هي أن التخلص من النفس وإذلالها قد يقود إلى الغرور والكبرياء.

[١٤٨] Luther «Table Talk ‹Number 2387 a – b» Quoted In Frantz Funck– Brentano Luther (London: Jonathan Cape Ltd. 1939), p. 319.

ينزع المؤمن الصادق إلى اعتبار نفسه واحدًا من الصفوة المختارة، ملح الأرض، نور العالم العظيم المتستر تحت رداء التواضع، الشخص الذي سيرث الأرض ويرث ملكوت السماء[١٤٩]. أنه يرى أن الذين ليسوا من عقيدته من الأشرار، وكل من يرفض الاستماع إليه يجب أن يهلك[١٥٠].

وهناك نقطة أخرى: عندما نهرب من أنفسنا ونصبح جزءًا من مجموع، فإننا لا نتخلى عن المزايا الشخصية فحسب، بل من كل مسؤولية شخصية. لا يستطيع أحد أن يتوقع حدود القسوة والعنف التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتحرّر من مخاوفه وتردده وبقايا الطيبة في نفسه، أي من الأشياء التي تذهب مع ذهاب المسؤولية الشخصية. عندما نصهر استقلالنا في مجموع الحركة الجماعية، فإننا نعثر على حرية جديدة: حرية الكراهية والتخويف والكذب والتعذيب والقتل والخيانة دون خجل أو ندم. وهنا، بلا شك، نجد جزءًا من جاذبية الحركة الجماهيرية. نجد هنا (الحق في الانتهاك) الذي يزعم دوستويفسكي أن له جاذبية لا تقاوم[١٥١]. كان هتلر يحتقر القسوة التي يمارسها شخص بإرادته المستقلة: (أي عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سوف يكون مشوبا بالتردد والشك. هذا العنف يفتقر إلى عنصر الاستقرار الذي لا يوجد إلا في الموقف الجماعي المتطرف)[١٥٢].

---

[149] Matthew 5.

[١٥٠] يصف عبدالله ثابت شعوره عندما أصبح واحدًا من الجماعة المتطرفة: «يا إلهي.. أي مجد هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرماني الذي مضى إلى جندي في سبيل اللهّ، يخطط ويعمل ويقدم ويؤخر لإقامة شريعة الله بدولة جديدة. ها أنا بعد كل هذا من الطائفة المنصورة التي ينصرها اللهّ من بين كل الطوائف، ومن الفرقة الناجية التي ستذهب كل الفرق عداها للنار، وأنا من الذين يجددون للأمة دينها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور، ويحيونها بعد مواتها» الإرهابي ٢٠، مرجع سابق ص ٩١.

[151] Fedor Dostoyevsky, the Possessed, Part Ic, Chap. 6.

[152] Adolph Hitler, op. cit, p. 171

وهكذا نرى أن الكراهية، كما تكون وسيلة للتوحيد تكون نتيجة له. يقول رينان: إننا لم نسمع بأمة رحيمة واحدة منذ بدء الخليقة[153] ويمكننا أن نضيف أننا لم نسمع بكنيسة رحيمة أو حزب ثوري رحيم. إن الكراهية والقسوة النابعين من الأنانية ليسا بشيء مقارنة بالسم والقسوة النابعين من التضحية بالذات.

عندما نرى سفك الدماء والرعب والدماء الناشئ من حماسة نبيلة كحب الخالق، أو حب المسيح، أو حب الأمة، والتعاطف مع المظلومين، وهلم جرّا، فإننا، عادة، ننسب هذه الفظائع إلى مسلك القيادة الأنانية المتعطشة إلى السلطة. حقيقة الأمر، إن الوحدة التي توجدها هذه الحماسة، لا مكر القيادة، هي التي تحوّل النزعات النبيلة إلى واقع من الكراهية والعنف. إن تجريد الإنسان من فرديته، هو شرط أساسي لدمجه في المجموع، وجعله قابلا للتضحية بالنفس، هو إلى حد كبير، تجريد له من إنسانيته. إن قبو التعذيب مؤسسة جماعية!

التقليد

٧٨

التقليد عامل أساسي من عوامل التوحيد. لا يمكن تصور مجموعة متلاحمة تمامًا دون انتشار أنماط السلوك المتشابهة خلالها. إن الوحدة التي تفخر الحركات الجماهيرية بتحقيقها تعود إلى التقليد بقدر ما تعود إلى الطاعة. والطاعة نفسها تتجلى في تقليد النموذج، كما تتجلى في أتباع المبدأ.

---

[153] Ernest Reman, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown, Company, 1888 – 1846), Vol 1 – p. 130.

على الرغم من أن القدرة على التقليد موجودة عند الناس جميعًا، إلا أنها قد تكون أقوى عند البعض من البعض الآخر. والسؤال المطروح هنا يتعلق بالمحبطين. هل هناك علاقة بين الإحباط والاستعداد للتقليد؟ هل يصبح التقليد، على نحو أو آخر، وسيلة للفرار من المشكلات التي تحاصر المحبطين؟

إن مشكلة المحبطين الأساسية شعورهم بعيوب أنفسهم وانعدام فاعليتها. وهدفهم الرئيس هو التخلص من هذه الأنفس المكروهة والمبدأ من جديد. يحاول المحبطون تحقيق هذه الرغبة إما بالعثور على هوية جديدة أو محاولة القضاء على تميزهم الفردي وإخفائه، وكلا هذين الهدفين يتحقق عن طريق التقليد.

بقدر ما يقل رضانا عن أنفسنا بقدر ما تزيد رغبتنا في أن نكون مثل الآخرين. ومن هنا فنحن ننزع إلى تقليد الذين يختلفون عنا أكثر من تقليد من يشابهوننا. كما أننا نقلد أولئك الذين نعجب بهم، لا أولئك الذين نحتقرهم. إن ما نراه من نزعة للتقليد لدى المظلومين (السود واليهود) هو أمر لافت للنظر.

إن محاولة التشويش على النفس وإخفائها لا تتحقق إلا عن طريق التقليد: أن نصبح مثل الآخرين بقدر ما يمكننا. إن الرغبة في الانتماء إلى الآخر هي، في الوقت نفسه، رغبة في الإفلات من النفس.

وأخيرًا، نجد أن نقص ثقة المحبطين في أنفسهم يشجعهم على التقليد. بقدر ما نفقد الثقة في أحكامنا وفي مصيرنا بقدر ما يزداد استعدادنا لتقليد نماذج الآخرين.

٧٩

إن رفض النفس في حد ذاته، حتى عندما لا يصاحبه بحث عن هوية جديدة يمكن أن يقود إلى المزيد من التقليد. تفقد النفس المرفوضة قدرتها على إثبات تميزها، ومن ثم، تزيل العقبة التي تحول بينها وبين التقليد. إن الموقف هنا لا يختلف عن موقف الأطفال، وعن موقف البالغين الذين لا يشعرون بأي تمايز فيما بينهم، حيث يعني غياب الفردية المتميزة ترك العقل مفتوحا أمام التأثيرات القادمة من الخارج.

٨٠

إن الشعور بالتفوق يقف حجر عثرة أمام التقليد. لوكان المهاجرون الذين قدموا إلى الولايات المتحدة قومًا متميزين، صفوة المجتمعات التي قدموا منها، لما كان بالإمكان أن توجد ولايات متحدة واحدة، بل خليط من جماعات ثقافية وحضارية متنوعة. إلا أن كون معظم المهاجرين كانوا من قاع السلم الاجتماعي ومن أشد الطبقات فقرًا، وكانوا منبوذين ومرفوضين، في أوطانهم القديمة، هو الذي أدّى إلى امتزاج العناصر المتنافرة امتزاجا تامًا سهلا. لقد قدم المهاجرون إلى الوطن الجديد برغبة صادقة في طرح هوية العالم القديم والولادة من جديد في حياة جديدة، وكانوا مزودين، تلقائيا، بقدرة فائقة على التقليد وعلى تبني ما هو جديد.

لقد كان اختلاف الوطن الجديد عن أوطانهم الأصلية عنصر جذب لا تنافر: كانوا يتوقون إلى هوية جديدة وحياة جديدة، وكلما كان العالم الجديد مختلفًا كلما اتفق ذلك مع رغباتهم.

وبالنسبة إلى غير الأنجلو/ سكسونيين كان اختلاف اللغة عنصر جاذبية إضافية: تعلم لغة جديدة يؤكد الاعتقاد بأنهم يولدون من جديد.

٨١

كثيرا ما يكون التقليد طريقا مختصرًا إلى الحل. نحن نقلد عندما لا تكون لدينا الرغبة أو القدرة أو الوقت لتطوير حل جديد. ومن هنا فإن المستعجلين يقدمون على التقليد أكثر من أولئك الذين لا يوجد لديهم حافز على الاستعجال. وهكذا نجد أن التقليد عند المجموعة الأولى يقود إلى التماثل. وعندما نكون بصدد صهر أفراد في مجموعة متلاحمة يصبح التقليد عنصرًا مهمًا في عملية الصهر.

٨٢

إن التوحيد في حد ذاته، وسواء كان سببه الاقتناع أو القمع أو الاستسلام التلقائي، ينزع إلى زيادة القدرة على التقليد. إن المدني الذي ينخرط في الجهاز العسكري المترابط يصبح أكثر قدرة على التقليد، مما كان عليه يوم كان مدنيا، والشخص الذي يتم صهره في مجموعة متلاحمة يفقد ذاته المتميزة ويفقد معها القدرة على مقاومة التأثيرات الخارجية. ولعل ما نلحظه عند الشعوب البدائية من نزعة إلى التقليد يرجع إلى كونهم أعضاء في قبائل وعشائر مترابطة أكثر من كونهم في مرحلة بدائية من التطوّر.

إن قدرة الجماعة المتلاحمة على التقليد تشكل في الحركات الجماهيرية عنصر قوة وعنصر خطر في الوقت نفسه. من السهل صهر أتباع الحركة في المجموع، إلا أنهم يبقون عرضة للتأثيرات

الخارجية، وهذا ما يخلق الانطباع بأن المجموعة المتلاحمة تمامًا يسهل إغراؤها وإفسادها. ومن هنا نجد أن أدبيات الحركات الجماهيرية مليئة بالتحذير من تقليد النماذج الأجنبية (واتباع مناهجها الشيطانية. تعدّ هذه الأدبيات تقليد الأجانب خيانة وردّة). (كل من يقلّد الأجنبي يهين الأمة، شأنه شأن الجاسوس الذي يسمح بدخول العدوّ من باب جانبي)[١٥٤]. تتبع كل الوسائل لمنع أي اتصال بين الأتباع المؤمنين وبين غير المؤمنين. بل إن بعض الحركات الجماهيرية تصل إلى حد أخذ أتباعها إلى الصحراء؛ حتى يتاح للأنماط الجديدة أن تستقر في نفوسهم من دون أي مؤثرات خارجية.

إن احتقار العالم الخارجي هو الوسيلة الأكثر فاعلية لمنع أثر التقليد المخل بوحدة الجماعة. إلا أن الحركة الجماهيرية النشطة تصنع الكراهية في منزلة تفوق الاحتقار السلبي، والكراهية لا تحول دون التقليد وكثيرًا ما تحفز عليه. أما في الجماعات الصغيرة المحاطة ببحر من الأجانب والتي تصر على الاحتفاظ بتميزتها، فيمكن للاحتقار أن يعزلها عن محيطها وأن يبقيها منطوية على ذاتها لا ترحب بأتباع جدد.

إن النزعة إلى التقليد تمنح الجماعة المتحدة المتماسكة الكثير من المرونة والقدرة على التأقلم. تستطيع هذه الجماعة تبني التجديدات وتغيير التوجهات بسهولة متناهية. إن التطوّر السريع الذي شهدته كل من اليابان وتركيا المتحدتين يختلف تمامًا عمّا شهدته الصين من تطور بطيء وتأقلم مؤلم مع العادات الجديدة. إن روسيا السوفييتية المتحدة تمامًا تستطيع أن تتبنى أساليب

[154] Julien Benda, the Treason of Intellectuals. (New York: William Morrow Company, 1928), p. 39.

وطرقا جديدة على نحو لم يكن متاحًا لروسيا القيصرية التي لم تصل إلى الدرجة نفسها من التماسك. كما أنه من الواضح أن الشعب البدائي الذي يتمتع بتنظيم جماعي متماسك يستطيع أن يتطور بسهولة، لا تتاح للشعب البدائي الذي لا يملك سوى تنظيمات قبلية ومجتمعية منهارة.

الإقناع والقمع

٨٣

ينزع الناس – في أيامنا هذه – إلى المبالغة في تأثير الإقناع بوصفه وسيلة لنقل الأفكار وصياغة السلوك، ويعدّون الدعاية سلاحًا لا مثيل لفاعليته. وهم، من المنطلق نفسه، يعزون النجاحات المذهلة التي حققتها الحركات الجماهيرية في هذا العصر إلى الدعاية، بحيث أصبحوا يخافون من الكلمة خوفهم من السيف.

إلا أن الواقع يثبت أن كثيرا من النجاحات الرائعة التي تنسب إلى تأثير الدعاية لا علاقة لها بالدعاية. لو كان للدعاية هذه الفاعلية الخارقة التي تنسب لها لكانت الأنظمة الشمولية في روسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ستبدو مقبولة إلى حد ما. كانت ستظهر متبجحة ومتعالية، ولكن من دون الوحشية المرعبة التي مارسها البوليس السري ومراكز الاعتقالات والإعدامات الجماعية. الحقيقة أن هذه الأنظمة كانت تعتمد على القمع أكثر من اعتمادها على الدعاية.

يبدو أن الدعاية، وحدها، لا تستطيع أن تشق طريقها إلى العقول التي ترفضها، ولا تستطيع أن تفرض على الناس مواقف جديدة كل الجدة: ولا تستطيع أن تبقيهم على المبادئ التي كفروا بها، تتغلغل الدعاية في العقول المفتوحة لها بالفعل، وبدلا من أن تفرض آراء جديدة، فإنها تعمل على ترسيخ الآراء الموجودة في هذه العقول وتطويرها. إن الدعائي الموهوب هو الذي يفجر العواطف والمشاعر التي كانت تختمر في عقول السامعين، وهو بهذا يحاكي أعمق أحاسيسهم الداخلية. وهذا الدعائي لا يحاول فرض آراء، ولكنه يسعى إلى إقناع الناس بصدق الأشياء التي كانوا يعرفونها من قبل.

إن الدعاية، وحدها، لا تنجح، عادة، إلا مع المحبطين. يجد هؤلاء أنفسهم محاصرين بالمخاوف والأوهام التي تحول بين مداركهم وبين العالم الخارجي، إنهم لا يستطيعون أن يروا إلا ما كانوا يتخيلونه، ولهذا تجيء كلمات الدعائي الذي يدغدغ مشاعرهم، وكأنها موسيقى تنبع من أنفسهم الخفية. والمحبطون، في الحقيقة، أقدر على التعرف على مشاعرهم في الشعارات الضخمة والكلمات الكبيرة الجوفاء منهم على تبينها في الكلمات المتزنة المنطقية.

إن الدعاية، وحدها، مهما كانت مؤثرة لا تستطيع أن تبقي على إيمان الناس بعد أن فقدوه. ومن هنا تعمد الحركات الجماهيرية عندما ترى أن الناس لم يعودوا مؤمنين بها، كما كانوا من قبل إلى إجبارهم باستخدام القوّة[155].

[155] Nicclo Mach, Avelli, The Prince, chap. vi.

إن الكلمات أداة لا بدّ منها لتهيئة الأرض للحركة الجماهيرية. إلا أنه عندما تبدأ الحركة الجماهيرية نشاطها تفقد الكلمات الكثير من فاعليتها القديمة، على الرغم من أنها تظل أداة نافعة للحركة. عبر زلة لسان اعترف الدكتور جوبلز خبير الدعاية الشهير أنه (لا بدّ من وجود سيف حاد يقف خلف الدعاية إذا أريد لها أن تكون فاعلة حقا)[١٥٦]. بل إن جوبلز يكاد يكون اعتذاريًا عندما يقول: (لا يمكن أن ننكر أن بوسعنا أن نحقق عن طريق الدعاية المؤثرة، ما لا نستطيع تحقيقه في غيابها)[١٥٧].

٨٤

عكس ما قد يتوقعه المرء، تصبح الدعاية هيستيرية، ولا عقلانية عندما تعمل جنبا إلى جنب مع القمع، بخلاف الوضع عندما تعتمد الدعاية على فاعليتها وحدها.

كلّ من الذين اعتنقوا المبدأ الجديد باقتناع، والذين اعتنقوه قسرًا، يحتاجون إلى إيمان قاطع أن هذا المبدأ وحده هو المبدأ الصحيح. من دون هذا الإيمان القاطع يتحوّل الإرهابي في نظر نفسه إلى مجرم، كما أن الأتباع الذين تم ضمهم قسرًا سيعدّون أرواحهم مجرد بضائع معروضة للبيع.

وهكذا نجد أن الدعاية تساعدنا على تبرير ما نفعله، لا على إقناع الآخرين، وكلما ازداد شعورنا بالذنب ازدادت حاجتنا إلى الدعاية.

---

[156] The Goebbels Diaries, (Garden city: Double day & company. Inc., 1948), p. 460.

[157] Ibid, p. 298.

إن المقولة التي تذهب إلى أن العنف يولد التطرف صحيحة، كأختها التي تقول: إن التطرف يولّد العنف. كثيرًا ما يكون من المتعذر أن نعرف من الذي سبق الآخر، العنف أو التطرف. كل من الذين يمارسون العنف، والذين يخضعون له، ينزعون إلى تطوير عقليات متطرفة. يقول فيرريرو عن إرهابي الثورة الفرنسية: (كلما سفكوا المزيد من الدماء ازدادت حاجتهم إلى الإيمان بمبادئهم باعتبارها الحقيقة المطلقة. هذا الإيمان هو، وحده، القادر على أن يغفر لهم ما ارتكبوه من جرائم، وعلى أن يبقي طاقتهم متأججة. إنهم لم يسفكوا كل تلك الدماء؛ لأنهم آمنوا بسيادة الشعب باعتبارها حقيقة دينية مطلقة، بل على النقيض، اعتبروا إيمانهم بها حقيقة مطلقة بدافع من الخوف الذي دفعهم إلى سفك الدماء الغزيرة)[١٥٨]. إن ممارسة العنف تخدم المؤمن الصادق، لا لأن الرعب يخيف الخصوم ويسحقهم فحسب، بل لأنه يقوي إيمانه ويجعله أكثر حدّة. إن عمليات شنق السود التي كان يقوم بها بعض البيض في جنوب الولايات المتحدة لم تكن ترعب السود فحسب، بل كانت تغذي إيمان العنصريين البيض وتقوّيه.

يمكن للقمع أن يولد التطرف، حتى في حالة المقموعين، هناك ما يشير إلى أن الشخص الذي أجبر بالعنف على اعتناق مبدأ ما كثيرًا ما يصبح متطرفا في إيمانه بالمبدأ الجديد، شأنه شأن الشخص الذي آمن بالمبدأ عن اقتناع، وربما أكثر منه. إن المقولة التي تذهب إلى «أن الذي

[158] Guglielmo Ferrero, Principles of Power (New York: G. P. Putnam's Sons, 1942), p. 100.

استجاب برغم إرادته سيبقى على آرائه القديمة لا تصح في كل الأحوال. في الفتوح الإسلامية أبدى المسلمون الجدد من الحماسة للدين الجديد ما لم يبده المسلمون القدامى. ويرى رينان أن الإسلام أصبح بفضل المسلمين الجدد «دينا يقوى باستمرار»[١٥٩]. إن العقيدة المتطرفة في كل الحركات تأتي في مرحلة لاحقة على بدء الحركة، عندما تصبح الحركة قوية تستطيع فرض مبادئها بالإقناع والقسر معًا.

هكذا نجد أن القمع، عندما يكون عنيفا ومستمرًا، يملك قدرة لا تجارى على الإقناع، لا في التعامل مع البسطاء والسذج وحدهم، بل في التعامل مع أولئك الذين يفخرون بنزاهة مواقفهم الفكرية وصلابتها. عندما يصدر الكرملين قرارًا تعسفيا يجبر العلماء والكتاب والفنانين على الاعتراف بأنهم تخلوا عن مبادئهم وارتكبوا أخطاء، فمن غير المستبعد أن تمثل اعترافاتهم تحولا حقيقيًا في مواقفهم، لا مجرد مظاهر لفظية، إننا نحتاج إلى عقيدة متطرف لتبرير جبننا.

٨٦

لا تكاد توجد حالة واحدة لحركة جماهيرية ذات أبعاد واسعة وتنظيم دائم تمكنت من تحقيق ما حققته عن طريق الإقناع وحده. يلاحظ البروفسور، ك. س. لاتوريت، وهو مؤرخ بميول مسيحية واضحة، أنه (مهما كان التناقض بين روح المسيح والقوة المسلحة، ومهما كان

[159] Ernest Reman, The Poetry of the celtic Races. (London: W. Scott ltd, 1896), Essay On Islamisim, p.97.

الاعتراف بالحقيقة مؤلما، فإن التاريخ يقول لنا، ببساطة إن القوة المسلحة كثيرًا ما كانت العامل الذي نشر روح المسيح ومحاها)[١٦٠].

كان السيف الدنيوي هو المسؤول عن جعل المسيحية دينا عالميًا. تمشى التبشير والغزو يدًا بيدًا، وكثيرًا ما استخدم التبشير مبررًا للغزو. وفي الحالات التي فشلت فيها المسيحية في الحصول على دعم دولة ما، أو الاحتفاظ بهذا الدعم، فإنها لم تستطع تحقيق وجود واسع أو دائم. (واجهت المسيحية في فارس ديانة وطنية تدعمها قوة التاج، ولهذا بقيت محصورة في أقلية صغيرة)[١٦١] وفي الفتوح الإسلامية الأسطورية كان الفتح، نفسه، هو العامل الأساسي، أما الحصول على أتباع جدد للدين، فقد جاء في المرتبة الثانية: (إن أكثر عصور الإسلام ازدهارًا كانت أيام قوته السياسية، وفي هذه الأوقات استقبل الإسلام الكثير من المعتنقين الجدد من خارج دائرته)[١٦٢]. لم تستطع حركة الإصلاح البروتستانتي تحقيق أي تقدم، إلا عندما حظيت بدعم أمير حاكم أو سلطة محلية. قال ميلانشتون، أكثر مساعدي لوثر حكمة: (دون تدخل السلطة السياسية ماذا كان سيحدث لمبادئنا؟ كانت ستبقى مجرد مبادئ على الورق)[١٦٣] وعندما اصطدمت هذه الحركة بقوة الدول، كما حدث في فرنسا، غرقت في بحر من الدماء، ولم تنهض ثانية. وفي حالة الثورة الفرنسية كانت جيوش الثورة، لا أفكارها، هي

---

[160] Kenneth Scott Latourette, The Unquench Able light, (New York: Harper & Brothers, 1941). p. 33.

[161] Kenneth Scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper & Brothers 1937) vol 1, p. 164.

[162] Charles Reginald Haines, Islam, as a Missionary Religion (London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1889), p. 206.

[163] Quoted by Frantz Funck. Brentano, op, cit. p. 260.

التي تغلغلت في أوروبا بأكملها[164]. لم تكن المسألة مسألة عدوى فكرية، قال ديموريز عن الفرنسيين (كانوا يعلنون مبدأ الحرية المقدّس، كما لو كان القرآن، وهم يشهرون السيوف[165]. وخطر الشيوعية، في الوقت الحاضر، لا ينبع من قوة أفكارها، ولكن من كونها مدعومة بجيش من أقوى جيوش العالم.

يبدو أنه كلما كان أمام الحركة الجماهيرية خيار الإقناع والقمع، فإنها تنزع إلى اختيار القمع. إن الإقناع عملية صعبة ذات نتائج غير مضمونة. قال القديس الأسباني دومينيك[166] لجماعة متهمة بالهرطقة. (عبر سنين طويلة رجوتكم بلا جدوى، وكنت أعظكم برفق، وأنصحكم بالصلاة والبكاء). إلا أن المثل الأسباني يقول: «عندما لا تنفع الدعوة الرقيقة، فإن الضربات قد تنفع. سوف أثير عليكم الأمراء والحكام... وستنفع الضربات، حيث فشلت الدعوة الرقيقة»[167].

٨٧

إن المقولة التي تذهب إلى أنه لا يمكن إيقاف حركة جماهيرية بالقوة لا تصحّ على علّاتها. تستطيع القوة أن توقف أشد الحركات حيوية وتسحقها إلا أنها لكي تتمكن من فعل ذلك، فلا بدّ من وجود العقيدة عاملًا لا يمكن الاستغناء عنه. إن استخدام القوة استخدامًا عنيفا مطردًا لا يمكن أن ينبع إلا من عقيدة متطرفة. (كل عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة

---

[164] Gugilelmo Ferrero, The Gamble, (Toronto: Oxford University Press, 1939), p. 297.

[165] Crane Brinton, A Decade of Revolution (New York: Harper and Brothers, 1934), p.168.

[166] عاش القديس دومينيك بين سنتي (١١٧٠ – ١٢٢١م) وإليه ينسب المذهب الكاثوليكي المسمى باسمه والذي يركز على أهمية التبشير والتعليم. (المترجم).

[167] «Dominic» Encyclopaedia Brittannica.

سيتصف بالتردد وفقدان الهدف. إنه يفتقر إلى الثبات الذي لا يمكن أن يستند إلا على مبدأ متطرف[١٦٨]. ولا يمكن للإرهاب النابع من قسوة فردية أن يذهب إلى المدى المطلوب أو يبقى المدة المطلوبة. مثل هذا العنف الفردي متقلب يتحكم فيه المزاج ويعتريه التردد. (بمجرّد أن تتردد القوة أو تقترن بفترات من التسامح، فإن المبدأ المطلوب طمسه سوف يعود المرة بعد المرة، بل إنه سيستمد المزيد من القوة نتيجة ما عاناه من اضطهاد)[١٦٩]. الرعب المقدّس لا يعرف الحدود، ولا يعرف التردد.

وهكذا يبدو أنه لا بدّ لنا من إيمان متحمس، لا لكي نستطيع مقاومة القمع فحسب، بل لكي نستطيع ممارسته بفاعلية.

من أين تأتي الرغبة في التبشير؟

٨٨

إن قوة العقيدة ليست العامل الرئيس الذي يدفع حركة جماهيرية إلى نشر عقيدتها في جهات الأرض الأربع: (إن الأديان التي يؤمن بها أتباعها بحماسة كثيرًا ما تكتفي بازدراء العقائد الأخرى واحتقار أتباعها)[١٧٠] كما أن التبشير ليس تعبيرًا عن قوة هائلة لا بدّ، كما قال بيكون (أن تفيض وتغمر كل شيء، مثل طوفان عظيم)[١٧١].

---

[168] Adolph Hitler, op. cit, p. 171.

[169] Ibid p. 171.

[170] Jacob Burckhardt, Force and Freedom, (New York: Pantheon Books, 1943), p.129.

[171] Francis Bacon, «of Vicissitude of thing. Bacons' Essays, Everyman's Library Edition (New York: E. p. Dutton & Company, 1932), p. 171.

يبدو أن الرغبة في التبشير تجيء من شك عميق، من شعور بعدم الثقة في صميم الحركة. ويمكن النظر إلى التبشير بوصفه محاولة عاطفية للبحث عن شيء لم نجده نحن بعد قبل أن يكون محاولة لإعطاء العالم شيئا نملكه بالفعل: إنه بحث عن إثبات نهائي قاطع أن الحقيقة المطلقة التي نؤمن بها هي، بالفعل، الحقيقة المطلقة الوحيدة. والتبشيري المتطرف يغذي إيمانه هو عن طريق إقناع الآخرين باعتناق عقيدته. والمذهب الذي تسهل مهاجمة شرعيته سوف يكون أكثر المذاهب حرصًا على التبشير. من المشكوك فيه أن حركة لا توجد في عقيدتها أشياء خيالية وغير عقلانية يمكن أن يتملكها ذلك الشعور الطاغي بأنه (لا بد من أن نضم إلينا العالم، أو ندمر العالم). كما أنه يمكن القول: إن تلك الحركات التي تعاني بشدّة من الهوة بين العقيدة والممارسة، وبعبارة أخرى، الحركات التي يتفشى فيها الشعور بالذنب ستكون الأكثر حماسة لفرض عقيدتها على الآخرين. كلما ظهر عجز الشيوعية عن تحقيق منجزات في روسيا، وكلما اضطر قادتها إلى تغيير مبادئها الأصلية وتعديلها، كلما زاد هجوم هؤلاء القادة على العالم غير الشيوعي حدة ووقاحة. أصبح مالكو الرقيق في جنوب الولايات المتحدة أكثر إصرارًا على نشر أسلوب حياتهم عندما أصبح من الواضح أن هذا الأسلوب لم يعد مقبولًا في الحياة العصرية. وعمدا يفرط الاقتصاد الحر في التبشير بقضيته المقدسة فإن هذا دليل على أن مزاياه وفاعليته لم تعد ظاهرة لا تحتاج إلى بيان[١٧٢].

يمكن النظر إلى النزعة المتحرّقة إلى التبشير والنزعة المتحرّقة إلى السيطرة على العالم بوصفهما أعراضا لمشكلة خطيرة في صميم الحركة. ولعله من الصحيح أن المبشرين، والغزاة باسم

---

[١٧٢] لعل هذا بدأ يحدث مؤخرًا في العالم الرأسمالي (المترجم).

الدين، شأنهم شأن اللاجئين، يذهبون إلى الشطآن البعيدة؛ هربًا من واقع لا يمكن تحمله في الوطن. والفئات الثلاث، في حقيقة الأمر، كثيرًا ما تتلاقى، وتختلط، وتتبادل الأدوار فيما بينها.

القيادة

٨٩

برغم الأهمية البالغة التي نعلقها على دور القيادة في صعود الحركة الجماهيرية، فإنه من المؤكد أن القائد لا يستطيع خلق الظروف التي تجعل صعود حركة جماهيرية أمرًا ممكنا، أي لا يستطيع صنع الحركة من فراغ، لا بد أن يكون هناك توق إلى الانقياد والطاعة وشعور عميق بعدم الرضا عن الأوضاع الراهنة قبل أن تظهر الحركة وتظهر قيادتها. وفي غياب الظروف المواتية فإن القائد، مهما كان موهوبا ومهما كانت قضيته المقدّسة جذابة، فسيبقى بلا أتباع. كانت الحرب العالمية الأولى، وما تلاها، المسؤولة عن تهيئة التربة التي سمحت بظهور الحركات البلشفية والفاشية والنازية. لو أن تلك الحرب لم تقم، أو لو تأخرت عقدًا أو عقدين، لكان مصير لينين وموسيليني وهتلر لا يختلف عن مصير الكثير من المتآمرين في القرن التاسع عشر، وهم الذين فشلوا في تحويل الاضطرابات والأزمات التي واجهوها إلى حركات جماهيرية شاملة. كان هناك شيء غائب عن الصورة: لم تكن الجماهير الأوروبية، حتى أحداث الحرب العالمية الأولى المفصلية، قد فقدت الثقة تمامًا في الحاضر، ولم تكن مستعدة للتضحية به في سبيل حياة جديدة وعالم جديد. حتى القادة الوطنيون الذين عملوا

بفاعلية تفوق فاعلية الثوار لم يتمكنوا من جعل القومية قضية مقدّسة، كما حدث فيما بعد. ظهرت القومية المتطرفة والثورية المتطرفة في الوقت نفسه.

وفي بريطانيا، بدورها، كان على القائد أن ينتظر حتى تنضج الظروف المواتية: لكي يستطيع القيام بدوره. خلال الثلاثينيات كان القائد المحتمل، تشرشل، معروفا ومشهورًا يصل صوته إلى الناس، يومًا بعد يوم. إلا أن الرغبة في اتباع القائد لم تكن موجودة. كان لا بد من الانتظار إلى أن جاءت الأزمة وهزت البلاد بعنف وأقنعت الناس بضرورة اتباع القائد.

هناك مدة من الانتظار، والانتظار الطويل أحيانا، في الكواليس قبل ظهور القادة الكبار على المسرح في لحظة تبدو لنا اللحظة المفصلية في تاريخ الحركة. إن الأحداث والمصادفات وسلوك الآخرين هي العوامل التي تهيئ المسرح قبل أن يظهر القادة ويمارسوا أدوارهم. (إن البطل الرئيس في نهاية يوم حافل يبدو كما لوكان المصادفة الأخيرة في يوم مليء بالمصادفات)[١٧٣].

٩٠

عندما يصبح المسرح جاهزًا فإن ظهور القائد الموهوب يصبح أمرًا محتومًا. من دون هذا القائد لا يمكن أن تولد الحركة الجماهيرية. إن أكثر الظروف نضجا لا تنتج، بالضرورة، حركة جماهيرية، كما أن الانتخابات والتشريعات والمكاتب الإدارية لا تستطيع أن تفرّخ الحركة. كان لينين المسؤول عن تحويل مجرى الأحداث إلى قناة الثورة البلشفية. لو أنه مات في

[173] John Morley, Notes on Politics and History (New York: Macmillan Company, 1914) , pp. 69 – 70.

سويسرا، حيث كان يعيش، أو في طريقه إلى روسيا سنة ١٩١٧م، لكان في حكم المؤكد أن ينضم قادة البلاشفة إلى حكومة ائتلافية، ولكانت النتيجة جمهورية ليبرالية تتحكم فيها الطبقة البورجوازية. وفي حالة هتلر وموسوليني، تشير الحقائق، على نحو قاطع، أنه من دونهما لم يكن من الممكن قيام النازية والفاشية.

وتثبت التطورات في بريطانيا في الوقت الحاضر (١٩٥١م) ضرورة وجود قائد موهوب لبلورة حركة جماهيرية. كان بوسع قائد كهذا، تشرشل بنزعات اشتراكية، على رأس حكومة العمال أن ينفذ برامج التأميم الجذرية في جو حركة جماهيرية مندفعة، بدلا من تنفيذها على نحو ممل بعيد عن الإثارة. كان بوسعه تصوير العامل البريطاني في دور المنتج البطولي الرائد في عملية التصنيع، وكان بوسعه أن يشرح للبريطانيين أن دورهم الرئيس هو أن يظهروا للعالم كله، ولا أمريكا وروسيا بالذات، ما يمكن لأمة متحضرة أن تحققه عندما تتحرر مما يواكب الرأسمالية من ارتبالك وهدر وجشع، وما يواكب الشيوعية من بيروقراطية وجهل وتخلف. كان بوسعه أن يبث في دماء الشعب البريطاني الاعتداد والأمل اللذين كانا عونه الأكبر في أحلك ساعات الحرب العالمية الثانية.

يتطلب الأمر إرادة حديدية ورؤية لدى قائد استثنائي يمكن تحويل الآراء والاتجاهات السائدة إلى مجرى الحركة الجماهيرية. يجسد هذا القائد صدق المبدأ وتحدّي القوة وعظمتها. ويعبر عن النقمة المخزونة في صدور المحبطين ويجد لها التبريرات. ويشعل رؤى غد مشرق رائع: ليبرر التضحيات في الحاضر العابر. ويبني مسارح الخيال التي لا بدّ منها لضمان

التضحية بالذات والعمل الجماعي. ويبني صورة جذابة للمجموع تساعد المحبطين على الانفلات من وجود فردي تافه بلا معنى.

ما هي المواهب اللازمة للقيام بهذا الدور القيادي؟ إن الذكاء الخارق ونبل الشخصية والابتكار لا تبدو أمورًا ضرورية، بل قد لا تكون أمورًا مرغوبًا فيها. الصفات التي تبدو ضرورية هي الشجاعة والاستمتاع بالتحدي؛ الإرادة الحديدية؛ الإيمان الذي لا يقبل نقاشا أنه وحده يمتلك الحقيقة المطلقة الإيمان بمصيره وسعد طالعه؛ القدرة على الكراهية المتقدة؛ احتقار الحاضر، القدرة على تحليل الطبيعة البشرية؛ الولع بالرموز (المشاهد الرائعة المثيرة)؛ الثقة المطلقة التي تصل حد الاستخفاف بالعدالة والمنطق؛ معرفة شوق الجموع إلى الالتحام بكيان جماعي والذوبان فيه؛ القدرة على كسب ولاء مجموعة من المساعدين الأكفاء والاحتفاظ به – وهذه الخصلة الأخيرة واحدة من أهم الصفات وأندرها. إن قوة القائد الأسطورية لا تتجلى في تحكمه في الجماهير الغفيرة بقدر ما تظهر في قدرته على السيطرة التامة على مجموعة صغيرة من الرجال الأكفاء. يجب أن يكون هؤلاء الرجال شجعانا، معتدين بأنفسهم، أذكياء قادرين على تحقيق منجزات كبرى، ومع ذلك كله يجب أن يخضعوا كلية لإرادة القائد، وأن يستمدوا الإلهام منه وحده، وأن يعدّوا هذا الخضوع غاية المجد.

وباستعراض الصفات السابقة نجد أنها ليست على مستوى واحد من الأهمية. أهم الصفات المطلوبة في قائد الحركة الجماهيرية الشجاعة والإيمان المطلق بقضيته المقدّسة، وإدراكه أهمية قيام كيان جماعي متلاحم، وأهم من ذلك القدرة على خلق ولاء أعمى عند مجموعة من

المساعدين الفاعلين. لقد فشل تروتسكي[١٧٤] نتيجة عجزه عن إيجاد مساعدين أكفاء يدينون له بالولاء المطلق. لم يكن قادرًا على اجتذاب الحب ولا قادرًا على الاحتفاظ به[١٧٥]. كما أنه كان يعاني من مشكلة أخرى هي احترامه الكامل للفرد، والفرد المبدع بالذات. لم يكن يرى أن الوجود الفردي المستقل يرقى إلى الخطيئة، ولم يكن يعي أهمية التحام الفرد بالمجموع لنجاح الحركة الجماهيرية. وفي الصين تمكن سن يات سن[١٧٦] (من أن يجذب عددًا من الأعوان القادرين، مستثيرًا خيالهم برؤاه عن الصين الجديدة وموجدًا لديهم روح الولاء والتضحية بالذات)[١٧٧]. أمّا تشانج كي شيك فيبدو، بخلافه، مفتقرا إلى كافة الصفات الضرورية في قائد الحركة الجماهيرية. من الناحية الأخرى، يبدو ديجول[١٧٨] قائدًا يتوقع منه الكثير. أما قادة الأحزاب الشيوعية خارج روسيا فهم عاجزون، مع خضوعهم المطلق لستالين والمكتب السياسي، من الوصول إلى مستوى القادة، ويقتصر دورهم على كونهم من المساعدين الأكفاء. ولكي تنجح الشيوعية حاليا في أي دولة غربية فلا بدّ من ظهور أحد نقيضين: إما أن تبرز شخصية ستالين وتتجسد على نحو يبلور الحركة، وإما أن يقطع الحزب الشيوعي المحلي صلاته بروسيا، كما فعل تيتو[١٧٩]، ويتحدّى الرأسمالية والشيوعية معًا، لو كان لينين

---

[١٧٤] كان تروتسكي (١٨٧٩ – ١٩٤٠ م) من أبرز قادة الثورة البلشفية وكان رفيقا قريبًا من لينين وقد نفاه ستالين، ثم قام باغتياله في المكسيك (المترجم).

[175] Angelica Balabanoff, My Life As Rebel, (New York: Harber, Brothers, 1988), p. 152.

[١٧٦] يعدّ سن يات سن (١٨٦٦ – ١٩٢٥) مؤسس الصين الحديثة، وقد أنشأ الحزب الوطني، وقضى على النظام الأمبراطوري، وأسس جمهورية سنة ١٩١١ م، وظل حتى وفاته الحاكم الفعلي للصين (المترجم).

[177] Frank wilson Price «Sun Yat – Sen» Encyclopaedia of Social Sciences.

[١٧٨] قاد الجنرال شارل ديجول (١٨٩٠ – ١٩٧٠ م) حركة فرنسا الحرة على إثر استسلام فرنسا في الحرب العالمية الثانية وترأس الحكومة الفرنسية المؤقتة (١٩٤٤ – ١٩٦٤م) وأسس الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٩ م وتولى رئاستها حتى استقال سنة ١٩٦٩ (المترجم).

[١٧٩] قاد المارشال جوزف بروزتيتو (١٨٩٢ – ١٩٨٠م) حركة المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية وأسس الحزب الشيوعي وقاده، ثم نأى بنفسه عن موسكو واختط سياسة حيادية بين المعسكرين (المترجم).

رئيس حزب شيوعي يعيش بعيدًا عن روسيا لكان من المشكوك فيه أن يمارس تأثيره الحاسم على التطورات في روسيا.

٩١

إن الآراء الفجة التي يصبر عنها عدد من قادة الحركات الجماهيرية والعصرية قد تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن قدرًا من السذاجة ينفع القائد، إلا أن هذه الملاحظة غير صحيحة. لم تكن سذاجة هتلر أو آمي ميكفرسون[١٨٠] هي التي مكنتهما من اجتذاب الأتباع؛ كان السبب الثقة المطلقة في النفس، هذه الثقة التي تمكن القائد من عرض أفكاره، مهما كانت مشوشة وسطحية، بكل جرأة واعتداد، ويمكن للقائد الحكيم الذي يتبع مسار حكمته إلى النهاية أن يحقق قدرًا مماثلا من النجاح، ومن الأفكار، في حد ذاتها، لا تتعب سوى دور صغير في قيادة الحركة الجماهيرية، ما يهم هو المبادرات الجريئة والقدرة على تجاهل آراء الآخرين وعلى تحدّي العالم بأسره.

إن شيئا من الخداع أمر ضروري في تكوين القيادة الجماهيرية الفاعلة. لا يمكن أن تقوم حركة جماهيرية من غير تشويه متعمد، يغير الحقائق ويجعلها تجتذب الأتباع وتجعلهم متحمسين ومخلصين حتى الموت، يجب أن يكون القائد واقعيًا وعمليًا، ولكن يجب أن يتحدث بلغة المثالي صاحب الرؤية المثالية.

---

[١٨٠] كانت آمي ميكفرسون (١٨٩٠ – ١٩٤٤م) مبشرة أمريكية مثيرة للجدل، تمكنت من تحقيق ثروة طائلة وصيت ذائع واجتذبت جمومًا غفيرة من الأتباع المخلصين (المترجم).

إن الابتكار ليس شرطا ضروريًا لنجاح القائد. بل إننا نجد أن من الصفات القيادية القدرة على تقليد الأصدقاء والأعداء، على حد سواء، في الحاضر أو الماضي.

إن الجرأة المطلوبة للقيادة تتضح في الجرأة على التقليد بقدر ما تتضح في الجرأة على تحدّي العالم. إننا نلحظ في شخصية البطل قدرة غير محدودة على التقليد، وإصرارًا على اتباع نموذج سابق. وهذا يدفعنا إلى أن نلاحظ أن الرغبة المفرطة في التقليد تدل على أن البطل لم يستطع تحقيق ذاته، وأن في شخصيته الكثير من الجوانب السطحية المكبوتة. وعلى ذلك، فهو قادر على تحقيق ما يحققه بطمس نقاط الضعف كلها والتركيز على نقاط القوّة.

٩٢

إن التخلي التام عن الذات المستقلة شرط أساسي لتحقيق الوحدة والتضحية بالنفس، ولعله لا توجد طريقة تسهل هذا التخلي مثل غرس الطاعة العمياء في نفوس الأتباع. عندما يجبر ستالين العلماء والكتاب والفنانين على الزحف على بطونهم والتنكر لذكائهم وإبداعهم وحسّهم الأخلاقي، فإنه لا يفعل ذلك إرضاء لنزعة سادية، بل ليبرز الأهمية القصوى للطاعة العمياء ويكرّسها. والحركات الجماهيرية كلها تعدّ الطاعة أهم السمات وتجعلها معادلة للإيمان: (إن اتحاد العقول لا يمكن أن يتحقق بمجرد الإيمان بعقيدة واحدة، بل لا بد من أن يكون الاستسلام للكنيسة والبابا في روما مساومًا للاستسلام لله)[١٨١] ليست الأديان وحدها هي التي تتطلب الطاعة، بل إن الطاعة هي المبدأ الأول في كل حزب ثوري، وكل

[١٨١] Leo X 111, Sapientiae christtianae.

ويرى لوثر في عدم الطاعة وخطيئة أكبر من القتل، والتهتك، والسرقة، والخيانة.
Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom (New York: Simon and Sch 4 Ster, Inc. 1945), p. 281.

قومية متحمسة. (أطع – ولا تسأل عن السبب) – هو المبدأ الذي تعدّه الحركات الجماهيرية المثل الأعلى للسلوك.

إن ما يواكب الحركات الجماهيرية من فوضى وسفك دماء ودمار قد يدفع المرء إلى الاعتقاد أن جميع أتباع الحركة، بطبيعتهم، من الأشرار المجرمين. غير أن القسوة الجماعية، في حقيقة الأمر، ليست بالضرورة دليلا على قسوة فردية. إن الغضب الفردي يحول بين صاحبه وبين العمل الجماعي ويدفعه إلى تصرف فردي. مثل هذا الغضب ينتج المكتشف والمغامر ورجل العصابة، أما عضو الجماعة الجماهيرية فهو، أساسًا، فرد مطيع خانع، حتى عندما تكون أفعاله عنيفة فوضوية. إن المتظاهر الشيوعي العنيف هو عضو مطيع مستسلم لإرادة الحزب. والعنف الياباني والنازي تم على يد أفراد ربّما كانوا الأكثر انضباطا في تاريخ العالم. وفي الولايات المتحدة يجد رب العمل أن الرجل الجنوبي المتطرّف الذي ينزع إلى العنف يصبح في المصنع عاملا مطيعا وديعا. وهذا الجنوبي نفسه عندما ينضم إلى الجيش يكون مستعدًا تمامًا للانضباط.

٩٣

يبدو أن الأشخاص الذين يعيشون حياة فارغة تفتقر إلى الثقة بالنفس يبدون استعدادًا للطاعة يفوق استعداد الأشخاص الذين يمتلكون الثقة بالنفس. إن التحرّر من المسؤولية، في نظر المحبطين، أكثر جاذبية من التحرّر من القيود. والمحبطون على استعداد للتخلي عن استقلالهم مقابل التخلص من أعباء الاختيار والقرار وتحمل نتائج الفشل المحتوم. يُسلم

المحبطون بكل سهولة زمام حياتهم لرؤساء يقومون نيابة عنهم بالتخطيط وإصدار الأوامر وتحمل المسؤولية كاملة. وفوق ذلك، يبدو الخضوع التام لإرادة القائد الأعلى وسيلة لتحقيق المساواة التامة.

في الأزمات، خلال الفيضانات والزلازل والأوبئة والمجاعات والحروب، تنعدم جدوى الجهود الفردية ويصبح الناس، بجميع مستوياتهم، مستعدين لإطاعة القائد والسير خلفه، في هذه الظروف تصبح الطاعة القاعدة الصلبة الوحيدة في وجود من الفوضي.

٩٤

إن المحبطين أكثر الناس قدرة مع أن يكونوا أتباعا مخلصين. والملحوظ في الجهود الجماعية أن أقل الناس استقلالا هو آخر من يزعجه احتمال الفشل. وسبب ذلك أن المحبطين يشاركون في عمل جماعي، لا ليضمنوا نجاح مشروع يهمهم، بل ليتجنبوا التعرض للوم إذا فشل المشروع. عندما يفشل مشروع جماعي يتفادى المحبطون الشيء الذي يخافونه أكثر من أي شيء آخر، وهو ما يكشف عيوبهم الفردية. يبقى إيمانهم بعد الفشل كما كان قبله، وتبقى لديهم الرغبة في المحاولة من جديد.

يتبع المحبطون القائد، لا لأنه سيقودهم إلى الأرض الموعودة، ببل لأنه يقودهم بعيدًا عن أنفسهم التي يكرهونها. الاستسلام للقائد ليس وسيلة، ولكنه غاية في حد ذاته، أما الاتجاه الذي يسير فيه القائد فأمر لا يهم كثيرًا.

٩٥

هناك، على ما يبدو، فارق أساسي بين قائد حركة جماهيرية وبين القائد في مجتمع حرّ. في المجتمعات التي تتمتع، على نحو أو آخر، بالحرية، لا يحتفظ القائد بولاء الناس، إلا عندما يكون لديه إيمان مطلق بحكمتهم وطيبتهم.

إن قائدًا من الدرجة الثانية يملك هذا الإيمان سوف يكون أنجح من قائد من الدرجة الأولى يفتقر إليه. وما يعنيه هذا هو أن القائد في المجتمع الحرّ يتبع الناس، حتى وهو يقودهم. عليه كما قال البعض، أن يعرف اتجاه الناس؛ لكي يستطيع أن يقودهم في هذا الاتجاه. أما عندما يحتقر القائد في المجتمع الحرّ الناس، فإنه يبدأ التصرف كما لو كان كل الناس حمقى، وسرعان ما ينتهي بالهزيمة. إلا أن الأمور تختلف عندما يكون بوسع القائد استخدام القمع العنيف: يستطيع قائد الحركة الجماهيرية فرض الطاعة العمياء فرضا، والتصرف على أساس أن كل الناس جبناء، وهذا افتراض صحيح في هذه الحالة.

من أسباب فشل القادة الشيوعيين في التنظيمات النقابية الغربية أنهم يتبعون تعليمات الحزب الشيوعي حرفيًا، ويتصرفون وكأنهم قادة حركة جماهيرية، بينما هم في الواقع، أعضاء في منظمات تضمّ رجالا أحرارًا.

العمل

٩٦

إن الانغماس في العمل عامل توحيد. والتميز الفردي الذي يوجد بين ممارسي العمل الفعلي، عامل البناء، والجندي، والرياضي، وحتى العَالِم، أقل بكثير من التميز الموجود لدى

الأشخاص الذين ينبع إبداعهم من تواصلهم مع أنفسهم. لا يصبح المرء جاهزا للعمل إلا عندما يتخلص من فرديته وتميّزه الذاتي. وهكذا نرى أن النشطين المنهمكين في العمل ينزعون إلى اتباع أنماط موحّدة من السلوك. من المشكوك فيه، لولا الجهود الخارقة التي يتطلبها غزو قارة بأكملها، أن يتمكن الأمريكيون، وهم أمة من المهاجرين، من تحقيق التجانس الاستثنائي الذي حققوه في مدة زمنية قصيرة. كل الذين قدموا إلى أمريكا ليعملوا، أي لجينوا أرباحًا مادية، تأقلموا مع الوطن الجديد بسهولة لم تكن متاحة لأولئك الذين قدموا لتحقيق أهداف مثالية سامية. شعر أفراد الفئة الأولى بتعاطف فوري مع الملايين الراكضين وراء الهدف نفسه، وأحسوا أنهم أعضاء في أسرة واحدة. أدرك هؤلاء في وقت مبكر أنه لكي ينجحوا، فلا بدّ لهم من أن ينسجموا مع محيطهم، أن يفعلوا ما يفعله الآخرون، أن يتعلموا اللغة ويعرفوا قواعد اللعبة. وفوق هذا، فإن الاندفاع الجنوني الذي وجدوا أنفسهم في غماره حال بينهم وبين إظهار شخصياتهم الفردية المتميزة، حتى عندما كانوا راغبين في إظهارها، ولم يدع لديهم القدرة على مقاومة المحيط الجديد. ومن الناحية الأخرى، فإن أولئك الذين قدموا لتحقيق مثل عليا، تتعلق بالحرية أو العدالة أو المساواة، وجدوا البلاد بعيدة عن ممارسة القيم التي يؤمنون بها، وقادهم هذا إلى شعور بالتفوّق أبقاهم في معزل عن بيئتهم الجديدة.

يصعب أن يعمل رجال الفكر يدًا بيد، أما رجال العمل فتوجد بينهم رفقة كرفقة السلاح. إن العمل فريقا واحدًا نادر بين المفكرين، بينما هو أمر ضروري عند رجال العمل. إن الصيحة لنذهب لنبن مدينة أو برجًا[١٨٢] هي، دومًا، نداء للعمل الجماعي.

قد يكون قوميسار الصناعة الشيوعي أقرب إلى الصناعي الرأسمالي منه إلى المنظر الشيوعي. والرابطة الشيوعية الدولية الحقيقية هي رابطة بين عمال، لا بين منظرين.

٩٨

كل الحركات الجماهيرية تعد العمل وسيلة للتوحيد. إن المعارك التي تثيرها الحركة الجماهيرية وتبحث عنها لا تقضي على أعداء الحركة فحسب، بل تعمل على تجريد أتباعها من تميزهم الذاتي، وتجعلهم أكثر قابلية للذوبان في المجموع. والمشاريع الكبرى، مثل تسوية الأراضي، وبناء المدن، والاكتشافات الجغرافية والصناعات الضخمة تقوم، إلى حدّ ما، بتحقيق هدف مماثل. حتى المشية العسكرية، فإمكانها أن تكون عنصر توحيد، وقد استغلت النازية إلى أبعد حد هذه الجزئية. في البداية كان روشننج يرى أن هذه الطوابير العسكرية التي لا نهاية لها مضيعة للوقت والجهد إلا أنه أدرك، فيما بعد، تأثيرها الخفي: (المشي في الطابور العسكري يتطلب التركيز التام، ويقتل التفكير، ويقضي على الفردية)[١٨٣].

إن دعوة الحركة الجماهيرية إلى العمل تلقى استجابة متحمسة من المحبطين الذين يرون في العمل شفاء لجميع أمراضهم. ينسيهم العمل أنفسهم ويمنحهم شعورًا بالأهمية. إن

---

[182] Genesis, 11.4.

[183] Hermann Rauschning, The Revolution of Nihilism (Chicago: Alliance Book Corporation, 1939), p. 48.

الإحباط ينبع أساسا من العجز عن العمل، وأشدّ المحبطين توترًا هم أولئك الذين تؤهلهم مواهبهم وأمزجتهم لحياة من العمل بينما تجبرهم ظروفهم على الفراغ والصدأ. هذا وحده ما يفسر لنا كيف أن أشخاصًا مثل لينين وتروتسكي وموسوليني وهتلر قضوا معظم سنواتهم يثرثرون في المقاهي والاجتماعات، ثم برزوا، بغتة، كأكفأ قادة جيلهم وأشجعهم.

٩٩

ينظم الإيمان نفسية الفرد ويعدها للعمل. أن يشعر المرء أنه يمتلك الحقيقة الوحيدة المطلقة ولا يشك، قط، في صحتها؛ أن يشعر أنه محمي بقوة يمكن أن تكون اللهّ، أو القدر، أو حتمية التاريخ؛ إنه يعتقد أن أعداءه تجسيد للشر ويجب سحقهم، أن يبتهج بإنكار الذات والانقطاع للواجب، هذه مؤهلات رائعة تحفز على العمل القاسي الجاد في أي ميدان، لقد ثبت أن الذين يرددون المقطوعات الدينية، خلال عملهم، سواء كانوا جنودًا أو مكتشفين أو رجال أعمال، أو حتى رياضيين، رجال صعبون شديدو المراس. ويمكن للحماسة القومية أو الثورية أن تحقق الهدف نفسه: أن تحوّل الرجال الكسالى التافهين إلى مقاتلين وعاملين نشطين. من هنا يمكن القول: إنه لا بد من ظهور حركة جماهيرية، من نوع ما؛ ليمكن تطوير المجتمعات الجامدة المتخلفة.

إلا أن استعداد المؤمن الصادق لانتهاج حياة من العمل يمكن أن يفيد الحركة الجماهيرية، كما يمكن أن يكون خطرًا عليها. قد تعجل الحركة بنهايتها عندما تفتح ميادين واسعة للعمل المحموم. قد يصبح العمل الناجح هدفًا في حد ذاته ويحوّل كل طاقات الفرد؛ لتصب في

مجراه. عندها يتحوّل الإيمان والقضية المقدّسة من كونهما الهدف الأسمى إلى مجرد وقود للعمل. والمؤمن الصادق الذي ينجح في كل مساعيه ينجح في استعادة الثقة، ويستطيع أن يتعايش مع نفسه ومع الحاضر.

وعندما يصل الفرد إلى هذه المرحلة، ويكف عن اعتبار نسيان النفس وذوبانها في المجموع وتحريرها من الإرادة والاختيار والمسؤولية السبيل الوحيد للخلاص يصبح معتقدًا أن خلاصه في العمل، وفي إثبات قيمته، وفي تأكيد هويته الفردية. حتى عندما يفشل العمل في تحقيق ذات المحبط، فإنه ينجح في تبرير وجودها. وعندما يبقى المحبط، على عقيدته فإنه يفعل ذلك لتغذية ثقته ومنح نجاحه الشرعية. وهكذا نرى أن طعم النجاح الفردي المستمر في العمل يؤثر سلبًا على روح المجموع. والشعب الذي دأب على الانهماك في العمل سوف يكون، على الأرجح، أقل تطرفا وأقل ثورية من غيره. إن ما نراه من ترابط اجتماعي ومن تسامح سياسي وديني لدى الشعوب الأنجلوسكسونية هو – إلى حدّ ما – نتيجة توفر الرغبة والمهارة لدى أفراد الشعب، بالإضافة إلى وجود فرص عمل وفيرة. كان العمل هو البديل عن الحركات الجماهيرية.

وفي المقابل، فإن اختفاء فرص العمل نهائيا، سواء بسبب ركود حاد أو هزيمة عسكرية، سينتج إحباطا عنيفا تكون نتيجته تهيئة الأرض، بحيث تجد الحركة الجماهيرية المناخ الملائم لرعايتها. كان الوضع المتفجر في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة الجمود الذي فرض قسرًا على شعب، يعرف أنه مهيأ تمامًا للعمل. ثم جاء هتلر ومنح الألمان فرصًا للعمل الدائب المثير، ومنحهم حركة جماهيرية. لا غرو، بعد ذلك، أن اعتبروه المنقذ.

الشَك

١٠٠

رأينا، فيما سبق، كيف تتحوّل إفرازات العقل المحيط، المكوّنة أساسا من الخوف وسوء النية، إلى حافز يجعل من المحبطين مجموعًا واحدًا متماسكا. إن الشك واحد من هذه الإفرازات، ويمكن له، بدوره، أن يكون عامل توحيد.

إن إحساس المحبط بعيوبه ونواقصه يجعله يرى سوء النية واللؤم عند جميع البشر. واحتقار النفس، حتى عندما يكون خفيًا، يجعلنا أكثر قدرة على اكتشاف عيوب الأخرين: نحاول جهدنا أن نكتشف لدى الآخرين العيوب التي نعاني منها. وهكذا يصبح الجوّ عندما يجتمع المحبطون في حركة جماهيرية مليئا بالشك: هناك تلصص وتجسس ومراقبة دائمة وشعور حاد أن المرء تحت المراقبة. والمدهش، هنا، هو أن هذا الشك المرضي بين أفراد الجماعة لا يقود إلى الخلاف، بل إلى العمل الجماعي المنضبط. ينزع أتباع الحركة الذين يشعرون أنهم تحت مراقبة دائمة إلى إزالة الشكوك عنهم بالالتزام الكامل بتوجيهات الحركة والمسلك الذي تتطلّبه. إن الانضباط المفرط قد يكون نتيجة الشكوك المتبادلة، وقد يكون نتيجة الإيمان المتحمس.

تعتمد الحركات الجماهيرية اعتمادًا كبيرًا على الشك بوصفه آلية من آليات السيطرة. كانت الحركة النازية تجعل أتباعها يشعرون أنهم عرضة للمراقبة طيلة الوقت، الأمر الذي قادهم إلى حالة دائمة من الخوف والشعور بالذنب[١٨٤]. يبدو أن القاعدة في الحركات الجماهيرية هي

[184] Ibid, p. 40.

الحذر من جيران المرء وأصدقائه، وحتى أقاربه. بين الحين والحين، يتم اتهام أشخاص أبرياء عمدًا، ويضحّى بهم، لينطق الشك حيًّا في الصدور. تعمد الحركة لإبقاء حدة الشك إلى ربط أي معارضة في صفوفها بالعدو الذي يهددها من الخارج.

وهذا العدوّ/ الشيطان الذي لا يمكن لأي حركة الاستغناء عنه، حاضر دائمًا وأبدًا. إنه يتآمر من داخل صفوف الحركة، كما يتآمر من خارجها. صوته هو الذي يتكلم من خلال المعارضين. والمنحرفون عن الخط هم عملاؤه. وعندما يحدث أي خطأ داخل الحركة، فهو السبب. إن الشك واجب مقدّس من واجبات المؤمن الصادق، الذي يجب عليه أن يظل على حذر، طيلة الوقت من المخربين والجواسيس والخونة.

١٠١

إن الوحدة الجماعية ليست محصّلة الحب الأخوي الذي يكنه الأتباع، بعضهم لبعض، إن ولاء المؤمن الصادق هو للمجموع، الكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، وليس لزملائه أتباع الحركة. إن الولاء الحقيقي في العلاقة بين الأفراد لا يمكن أن يظهر إلا في مجتمع يتمتع بقدر من الحرية واستقلالية الأفراد. لا بدّ أن يكون النازي المتطرّف أو الشيوعي المتطرّف على استعداد للتضحية بالأقارب والأصدقاء؛ لكي يثبت ولاءه لقضيته المقدّسة. تعدّ الحركة الجماهيرية النشطة روابط الدم والصداقة الشخصية إضعافا لترابط المجموع. ومن هنا، فإن الشك المتبادل بين الأتباع ليس أمرًا متمشيا مع قوة المجموع فحسب، بل يوشك أن يكون شرطا من شروط هذه القوة. يراقب الرجال الذين يعتنقون مبادئ صلبة، وينطوون على

مشاعر قوية، بعضهم بحذر، ويستمدون قوتهم من هذا الحذر؛ إن الشك المتبادل يخلق خوفا متبادلا، ويربط الأشخاص بسلسلة من حديد تمنع الفرار وتمنحهم القوة في لحظات الخوف[185].

جزء من التضحية بالنفس التي تتطلبها الحركة الجماهيرية هو التضحية بالنوازع الأخلاقة التي تقيد طبيعتنا البشرية. إن حماستنا تستطيع صنع المستحيل، عندما تدعمها الكراهية والقسوة والطموح والجشع واحتقار الآخرين والتمرّد[186].

نتائج العمل الجماعي

١٠٢

إن التوحيد الكامل، سواء جاء نتيجة الاستسلام العفوي، أو الإقناع، أو القمع، أو الضرورة، أو العادة المتأصلة، أو مزيج من هذه العوامل، ينزع إلى تقوية الرغبات والاتجاهات التي تنحاز إلى الجماعة على حساب الفرد. سبق أن رأينا كيف تقوّي الوحدة النزعة إلى الكراهية، كما تقوّي القدرة على التقليد. إن الشخص الذي يتم صهره في المجموع أكثر قابلية للتصديق والطاعة من الشخص الذي لا يزال يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي. صحيح أن قيادة الحركة تحرص على إبقاء الكراهية مشتعلة، وتشجع التقليد، والقابلية للتصديق وتنشر

[185] Ernest Reman, Antichrist (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 381.

[186] Montaigne. Essays, Modern Library Edition (New York: Random House, 1946) p.3.

الطاعة، إلا أنه من الصحيح، أيضا، أن التوحيد، في حد ذاته، حتى عندما لا تتدخل ألاعيب القيادة، يقوّي ردود الفعل التي تعمل في اتجاه الوحدة.

قد يبدو هذا، لأول وهلة، محيرًا. سبق أن رأينا أن معظم عوامل التوحيد تنبع من الكراهية التي يحس بها المحبط تجاه نفسه التي لا يحبها، ووجوده الذي لا يطيقه. إلا أن المؤمن الصادق الذي ينصهر كلية في مجموع كلي متماسك لا يصدق عليه وصف المحبط: لقد وجد هوية جديدة وحياة جديدة. أصبح يعدّ نفسه واحدًا من الصفوة المختارين، الذين تحميه قوى لا تقهر، حتى يحقق مصيره ويرث الأرض. وهذه العقلية الجديدة على النقيض تماما من عقلية الشخص المحبط. إلا أن المؤمن الصادق برغم ذلك، يبدي، على نحو متزايد، ردود الفعل التي تدل على صراع داخلي ونقص في الثقة.

ماذا يحدث للفرد الذي يتم صهره في المجموع؟

إن التوحيد عملية تعني اختزال شخصية الفرد لا تنميتها. لكي يتم دمج الفرد في المجموع لا بد من تحريره من تميزه الذاتي، وحرمانه من حرية الاختيار والأحكام المستقلة، ولا بدّ من طمس الكثير من نزعاته واتجاهاته الطبيعية أو كسر شوكتها. كل هذه عوامل تنخر في الشخصية المستقلة. أما العناصر الجديدة التي يضيفها الصهر، العقيدة، الأمل، الكرامة، الثقة، فهي عناصر سلبية في جوهرها. ما يشعر به المؤمن الصادق من رضا وبهجة لا ينبع من مخزون من القوة والحكمة، بل من شعوره بالتحرّر من الأعباء التي ترهق وجوده المستقل.

(نحن الألمان سعداء جدًا. نحن أحرار من الحرية)[١٨٧] يجيء إحساسه بالسعادة من كون نفسه لم تعد النفس القديمة والهجوم على شخصيته لا يؤثر فيه. وما لديه من قوة الاحتمال عندما يواجه عدوّ لدودًا أو ظروفا بالغة الصعوبة تفوق قوى الاحتمال عند الشخص المستقل. إلا أن هذه القوة تعتمد على الحبل السرّي الذي يربطه بالمجموع الكلي: ما دام يشعر في قرارة نفسه أنه جزء من هذا المجموع، وليس من أي شيء آخر، فإنه يظل خالدًا وصامدًا. وهكذا تتمحور كل طاقاته ومشاعره حول هذا الحبل السري. يصبح تطلعه إلى أقصى حد ممكن من الوحدة أقوى من الحنين الغامض، الذي يعمل في نفسية المحيط، إلى الإفلات من ذاته الفاشلة. لا يزال أمام المحبط خيار، فهو يستطيع أن يجد حياة جديدة، لا بأن يصبح جزءًا من كل فحسب، بل بتغيير بيئته والانغماس كلية في جهود تستنفد طاقاته، أما الشخص الذي تم صهره في المجموع فلا يملك هذا الخيار. لا بد له أن يلتصق بشدة بالجماعة أو يسقط كورقة ذابلة من شجرة، وينتهي. من الصعب على القسيس الذي طرد من الكنيسة، أو الشيوعي الذي فصل من الحزب، أو الوطني المتهم بالخيانة، أن يجد راحة البال، وهو فرد مستقل. لا يمكنه الوقوف على رجليه، ولهذا فلا بدّ له من تبني قضية جديدة والانضمام إلى مجموعة جديدة.

إن العضو الذي انصهر في الجماعة يظل، دائمًا وأبدًا، يعاني من شعور بعدم النضج وغياب الثقة في النفس.

---

[١٨٧] من رسالة كتبها نازي شاب قبيل الحرب العالمية الثانية، انظر:

I. A. R. wylie, <<the Quest of our Lives Reader's Digest, May, 1948», p.2.

من المثير أن نلاحظ كيف تؤكد الحركة الجماهيرية ما يحس به أتباعها من غياب الثقة في النفس. عندما تصنع الحركة العقيدة في منزلة تفوق منزلة المنطق، فإنها تشل حركة الذكاء الفردي. وبالإضافة إلى هذا، تعمل الحركة على جعل أتباعها معتمدين عليها ماليًا عن طريق تركيز المال في يدها وإحداث نقص متعمد في ضروريات الحياة، فضلا عن حشر الأتباع في مساكن جماعية مزدحمة وفرض العمل اليوم الشاق عليهم في المشاريع العامة. وما تفرضه الحركة من رقابة صادقة على الأدب والفن والموسيقى والعلم يمنع الأقلية المبدعة من القيام بأي نشاط إبداعي مستقل. والولاء الذي يفرض فرضا، للكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، أو القائد، يعمل، بدوره، على إبقاء الشعور بالنقص حيًا لدى العضو، يصبح كل عمل من أعمال الولاء شبيها بمكبس كهربائي في النفس، يحتاج، باستمرار، إلى تيار كهربائي من الخارج.

وهكذا تتم صياغة الأشخاص المنخرطين في الحركة الجماهيرية على نحو يجعلهم، دومًا، معدومي الشخصية، معتمدين على الآخرين، حتى عندما يحملون في داخلهم بذور شخصيات مستقلة. برغم أنهم يصبحون بمنأى عن الإحباط القديم والظلامات القديمة، إلا انهم يبدون كل سمات الأفراد الذين يتوقون إلى طمس أنفسهم، والتخلص من وجود يرونه معيبًا بلا أمل في الخلاص.

القسم الرابع: البداية والنهاية

الفصل الخامس عشر: رجال الكلمة

١٠٤

لا تصعد الحركات الجماهيرية، عادة، إلا بعد أن تتم تعرية النظام القائم. وهذه التعرية لا تجيء عفويا نتيجة أخطاء النظام وسوء استغلال السلطة، بل عن طريق عمل متعمد يقوم به رجال الكلمة الذين يحملون ظلامات ضد النظام. عندما يغيب القادرون على صياغة الكلمات، أو عندما يوجدون ولا يحملون أي ظلامة، فإن النظام القائم، مهما كان فاسدًا وضعيف الإرادة، قد يستمر في الوجود، حتى ينهار ويسقط من تلقاء نفسه. ومن ناحية أخرى، فإن النظام القائم سيحرم نفسه من كثير من القدرة والحيوية إذا فشل في اجتذاب هذه الأقلية المبدعة.

إن نشوء حركة جماهيرية وبقاءها، كما سبق أن رأينا، أمر يعتمد على القوة. والحركة الجماهيرية في عنفوانها ظاهرة مخيفة تتركز قيادتها في أفراد متطرفين يستخدمون الكلمة لإضفاء طابع العفوية على الاستسلام الذي حصلوا عليه بالقوة، إلا أن هؤلاء المتطرفين لا يستطيعون أن يتحركوا ويأخذوا زمام الموقف، إلا بعد تعرية النظام القائم وتجريده من شرعيته لدى الجماهير. ولا يمكن لهذا العمل التمهيدي، الذي يستهدف تقويض المؤسسات القائمة وتعويد الجماهير على فكرة التغيير وإيجاد الجو الملائم لقبول العقيدة الجديدة، أن يتم إلا عن طريق رجال هم، أولا وقبل كل شيء، رجال فكر وأدب، يعترف لهم الجميع بهذه الصفة. طالما ظل النظام القائم يؤدي واجباته على نحو منتظم، فستظل الجماهير متعايشة معه. قد

تفكر الجماهير في الإصلاح، ولكنها لا تريد التغيير الشامل. يبدو المتطرّف في نظر هذه الجماهير خطرًا أو خائنا أو غير واقعي أو مجنونا، ولن تكون على استعداد للاستماع إليه، اعترف لينين بنفسه أن التربة عندما لا تكون مهيأة للشيوعية (فإن الشيوعيين سيجدون من الصعب عليهم التواصل مع الجماهير، أو حتى إقناعها بالاستماع إليهم)[١٨٨]، وفوق ذلك، فإن السلطات، حتى عندما تكون ضعيفة ومتسامحة، تنزع إلى الردّ بعنف على تحركات المتطرف، وقد تستمد من نشاطاته حيوية جديدة.

إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لرجل الكلمة العادي، غير المتطرف. تستمع الجماهير إليه؛ لأنها تدرك أن كلماته، وإن حملت طابع الاستعجال، لا تستطيع تحقيق نتائج فورية. كما أن السلطات تنزع إلى تجاهله نهائيا أو استخدام وسائل ناعمة لإسكات صوته. وهكذا، ودون أن يشعر أحد، يمكن لرجل الكلمة أن يهدّد المؤسسات القائمة، وأن يدين المتربعين على مقاعد السلطة، وأن يُضعف الانتماءات والولاءات القائمة، وأن يهيئ التربة لحركة جماهيرية.

إن التفرقة بين رجال الكلمة والمتطرفين ورجال العمل، التي سترد فيما يلي، لا يجب أن تؤخذ على علّاتها. هنالك رجال، مثل غاندي وتروتسكي، بدؤوا حياتهم رجال كلمة لا تأثير لهم، إلا أنهم في وقت لاحق، أبدوا قدرة استثنائية على القيادة والإدارة. إن متطرفا مثل لينين كان سيد الكلمة الخطابية، بالإضافة إلى كونه رجلا من رجال العمل. ما تستهدف التفرقة إيضاحه هو أن تهيئة التربة لحركة جماهيرية تُؤدّى على أفضل وجه على يد رجال موهبتهم

---

[١٨٨] G. E. G Catlin, The Story of the Political Philosophers, (New York: mc Graw– Hill Boot Company, 1939), p.48.

الأساسية استخدام الكلمة المسموعة أو المقروءة، وأن ولادة الحركة الفعلية تتطلب مزاجا ومواهب لا تتوافر إلا عند المتطرف، وأن استقرار الحركة وشكلها النهائي هو أساسًا مهمة الرجال العمليين.

عندما تظهر على مسرح الأحداث أقلية تجيد صياغة الكلمة، لم تكن موجودة من قبل، فإن ظهورها يمكن أن يشكل حركة ثورية محتملة. قامت القوى الغربية على نحو غير مباشر، وربما غير مقصود، بتهيئة الجو لحركات جماهيرية في آسيا، لا بسبب ما أثارته من نقمة ولكن بخلق أقليات مثقفة عن طريق التعليم الذي كان، في معظمه، أهليًا وخيريا. تلقى عدد كبير من القادة الثوريين، في الهند والصين وأندونسيا، تعليمهم في مؤسسات غربية محافظة. وكانت الجامعة الأمريكية في بيروت، التي يديرها ويدعمها مسيحيون أمريكيون أتقياء محافظون، مدرسة للثورة في العالم العربي الأمي. ولا يوجد أدنى شك أن أساتذة المدارس التبشيرية المسيحية الأتقياء كانوا، من غير قصد، ضمن أولئك الذين أعدوا المسرح للثورة الصينية.

١٠٥

ينتمي رجال الكلمة إلى عدة فئات مختلفة. قد يكونون قساوسة، أو كتابًا، أو فنانين، أو أساتذة، أو طلابًا، أو مثقفين عمومًا وإجمالا. في بلد مثل الصين، حيث تصعب الكتابة والقراءة، يمكن أن يعدّ كل من تحرر من الأمية رجلا من رجال الكلمة. وكان الوضع نفسه موجودًا في مصر الفرعونية، حيث كان فن الكتابة بالرسوم حكرًا على أقلية صغيرة.

ومهما كان نوعهم، فإن هنالك رغبة مشتركة تجمع كل رجال الكلمة، وتحدد موقفهم من النظام القائم: الحرص على الاعتراف بهم، والحرص على حصولهم على وضع يميزهم عن العامة، قال نابليون: (الغرور والطموح صنعا الثورة؛ أما الحرية فكانت التبرير). يبدو أن هناك شعورًا بالنقص لا يمكن تجاوزه في داخل كل مثقف، سواء كان مبدعًا أو غير مبدع. ويبدو أنه حتى أكثر المثقفين إنتاجا وموهبة يعيش في حالة دائمة من الشك في نفسه، ويحتاج إلى إثبات ذاته من جديد كل يوم. ينطبق على المثقفين ما قاله رجل من رجال الكلمة عن زميل له في المهنة: (لديه من الاعتداد أكثر مما لديه من الطموح، وهو يؤثر التقدير على الطاعة، ويفضّل خيال القوة الوهمي على القوة الحقيقية، استشره أولا، ثم افعل ما تريد. سوف يلاحظ ما تظهره له من احترام أكثر مما يلاحظ ما تقوم به من تصرفات[189].

هنالك لحظة ما، في حياة كل رجل من رجال الكلمة تقريبا، يمكن فيها اجتذابه إلى صف النظام عن طريق مبادرة سلام وتقدير يقوم بها الحاكمون. وهنالك، في مرحلة من المراحل، استعداد لدى معظم رجال الكلمة للانضمام إلى النظام القائم وخدمته. هناك من يرى أن البابا لو منح لوثر رتبة الكاردينال لخفف ذلك من حماسته لقيادة الثورة ضد الكنيسة. وربما كان بالإمكان اجتذاب كارل ماركس[190] في شبابه إلى العمل في حكومة بروسيا؛ بعرض لقب رنان ووظيفة مهمة، كما كان من الممكن اجتذاب لاسال[191] بوظيفة مرموقة في البلاد. إلا أنه

---

[189] Quoted by Alexis de Tocqueville, Recollections (New York: Macmillan Company, 1896), p. 33.

[190] كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣م) مفكر ألماني وضع النظرية الشيوعية عبر كتابه الشهير «رأس المال، والمانفستو الشيوعي» (المترجم).

[191] كان فرديناند لاسال (١٨٢٥ – ١٨٦٤ م) من تلامذة ماركس، وأبرز قادة الحركة الشيوعية في ألمانيا (المترجم).

بمجرد أن يطور رجل الكلمة فلسفة، ويعلن عن برنامجه، فسوف يكون مخلصا لهما، ولن تجدي معه الوعود أو الوعيد.

إن الظلامات التي تحرك رجل الكلمة، بصرف النظر عما يدّعيه من أنه يمثل المسحوقين والمظلومين، هي، باستثناءات لا تكاد تذكر، ظلامات فردية وشخصية. قد يتحدث عن الرحمة، إلا أن مشاعره الفعلية نابعة من كراهيته للنظام القائم[١٩٢]. إن الذين يشعرون بحب نحو الإنسانية، بحيث يتمردون على الظلم والمعاناة، بالرغم من عدم تأثرهم شخصيًا بهما، أفراد نادرون[١٩٣] يعرض ثورو المسألة بوضوح تام: (إنني أعتقد أن الذي يزعج الصلح، مهما كانت درجة تقواه وصلاحه، هو ألمه الشخصي وليس الشفقة على الآخرين، ولو حُلّت مشكلته الشخصية لتخلى عن الآخرين دون كلمة اعتذار)[١٩٤]. عندما يعترف النظام القائم بوضع مميّز لرجل الكلمة، فإنه سينخرط في صفوفه وسيجد مبررات نبيلة لوقوفه مع القوي ضد الضعيف. كان لوثر، في بداية تمرّده على الكنيسة، يتحدث بحرارة (عن الفقراء البسطاء المساكين)[١٩٥]. ولكنه، في وقت لاحق، عندما احتضنه الأمراء الألمان أعلن (أن اللهّ يفضل أن تكون هناك حكومة، مهما كانت شريرة، على الفوضى التي تتيح للرعاع الإخلال بالأمن، مهما كانت ظلاماتهم مشروعة)[١٩٦] وبيرك[١٩٧]، عندما تبناه اللوردات والنبلاء تحدث عن

---

[192] Multatule. Max Harelaar, (New York: Alfred A. Knopf, Inc 1927). Introduction by D. H. Lawrence.

[193] Bertrand Russell, proposed Roads to Freedom (New York: Blue Ribbon Books, 1931) , Introduction, p. V 111.

[194] Henry Thor'eau, walden, Modern Library Edition (New York: Random House, 1937), p. 70.

[195] Quoted by Frantz Funck– Brentato, Luther, (London: Jonathan cape, Ltd, 1939) p. 65.

[196] Quoted by Jerome Frank, Rate and Freedom. (New York: Simon and Schuster, inc 1945), p. 281.

[١٩٧] كان أديموند بيرك (١٧٢٩ – ١٧٩٧م) رجل دولة ومنظرًا سياسيًا بريطانيًا منحازا إلى التفكير المحافظ (المترجم).

(الغوغاء الخنازيرية)، ونصح الفقراء (بالصبر والجدّ والبعد عن المسكرات والتوفير والتدّين)[198]. لم يشعر رجال الكلمة الذين جندتهم النازية في ألمانيا والبلشفية في روسيا بأي دافع للوقوف مع المظلومين والمقموعين ضد القادة الطغاة وبوليسهم السّري.

١٠٦

لا يمكن أن يطول بقاء عهد ما، برغم عدم كفاءته، إلا إذا كان هناك غياب كامل للطبقة المثقفة، أو كان هناك تحالف وثيق بين الحاكمين ورجال الكلمة. وعندما يكون جميع المثقفين من الكهنوت، تصبح للكنيسة سلطة مطلقة. وعندما يكون جميع المثقفين موظفين، أو عندما يتمتعون بوضع متميز عن وضع الآخرين، فإن النظام القائم سوف يكون بمنأى عن الاضطرابات والمعارضة.

انحدرت الكنيسة الكاثوليكية إلى أدنى مستوياتها في القرن العاشر أمام البابا جون الثاني عشر. كانت الكنيسة في تلك المدة أسوأ بكثير منها في مدة الإصلاح البروتستانتي. إلا أنه، في القرن العاشر، كان جميع المثقفين من رجال الكهنوت. أما في القرن الخامس عشر نتيجة ظهور المطابع والورق، فلم يعد التعليم حكرًا على الكنيسة. كان المثقفون، من غير الكنهوت، طليعة الإصلاح. أما مثقفو الكنيسة المرتبطون بها، أو بالبابا في روما والمتمتعون بالمزايا (فقد أبدوا الكثير من التسامح نحو الأوضاع الكنسية وتجاهلوا الانحرافات الدينية ولم يكونوا، إجمالا، يهتمون (بالرعاع الذين ظلوا في ظلام الجهل الذي يليق بوضعهم)[199].

---

198 Ibid, p. 133.

199 «Reformation» Encyclopaedia Britannica.

كان استقرار الوضع في الصين الأمبراطورية، شأنها شأن مصر الفرعونية، نتيجة تحالف وثيق بين الطبقة الحاكمة والمثقفين. إنه لمن المثير للانتباه أن تمرد تايبنج[٢٠٠]، الذي يمثل الحركة الجماهيرية الفاعلة الوحيدة في المدة التي شهدت حيوية الأمبراطورية، كان بقيادة مثقف فشل، المرة تلو المرة، في اجتياز الامتحان الحكومي الذي يؤهل لشغل المراتب العليا في الدولة[٢٠١].

إن بقاء الأمبرطورية الرومانية الطويل كان، إلى حدّ ما، نتيجة التحالف التام بين الحكام الرومان ورجال الكلمة اليونانيين. أحسّ اليونانيون المهزومون أنهم منحوا الفاتحين القوانين والحضارة وأنه لمن المذهل حقًا أن نقرأ أن نيرون، الطاغية المستبد، والذي كان معجبًا بالحضارة اليونانية إلى حد الوله، استقبل بحماسة هيستيرية من قبل اليونانيين خلال زيارة اليونان ٦٧ ق. م. اعتبره اليونانيون مثقفا مثلهم وفنانا مثلهم. (جمع اليونانيون، في محاولة للتقرب منه، جميع الألعاب في سنة واحدة، وأرسلت كل المدن اليونانية له جوائز مسابقاتها. وحيثما ذهب كانت هناك جموع في انتظاره تناشده أن يعزف ويغني)[٢٠٢] وقام نيرون، بدوره، بإغراق اليونانيين في الهدايا والمنح.

في كتابه «دراسة للتاريخ»، يستشهد البروفسور ا. ج. توينبي بالأشعار التي كتبها الشاعر كلوديان، المقيم في الإسكندرية، والتي يتغنى فيها بروما بعد خمسة قرون تقريبًا من دخول

---

[٢٠٠] كان تمرد تايبنج (١٨٥٠ ــ ١٨٦٤م) إعصارًا دينيًا سياسيا هز الصين من أقصاها إلى أقصاها وتجاوز عدد ضحاياها عشرين مليون نسخة (المترجم).

[201] Rene Fullop Miller, Leaders, Dreamers and Rebels (New York: The Viking & Press, 1935), p. 85.

[202] Ernest Renan, Anti christ, (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 245.

قيصر إلى مصر، ويضيف توينبي بأسى: «من السهل أن نثبت أن الاستعمار البريطاني في الهند كان، من نواح عدة، أكثر تسامحًا ونفعًا للناس من الأمبراطورية الرومانية، إلا أنه يصعب أن نعثر على مديح له يشبه مديح كلوديان في أي مدينة من مدن الهند»[٢٠٣]. ولعله ليس من الإغراق في الخيال أن نقول: لو أن البريطانيين في الهند، بدلا من التحالف مع المهراجات والقيادات التقليدية حاولوا اجتذاب المثقفين الهنود وعاملوهم معاملة الند للند وشجعوهم وأشركوهم في السلطة لبقوا في الهند مدة أطول بكثير. إلا أن ما حدث هو أن حكام الهند البريطانيين كانوا من عقلية لا تستطيع التعامل مع المثقفين في أي بلد، وخاصة في الهند. كانوا رجالا عمليين بعيدين عن النظريات يؤمنون بالتفوق الطبيعي للبريطانيين. في معظم الأحوال، لم يظهر هؤلاء الحكام سوى الاحتقار للمثقف الهندي، سواء بصفته رجل كلمة أو بصفته هنديًا. حاول البريطانيون في الهند حصر كل الأنشطة في أيديهم، ولم يبذلوا مجهودًا يذكر لتشجيع الهنود على أن يصبحوا مهندسين، أو خبراء زراعيين، أو تقنيين مهرة. لم ينتج النظام التعليمي الذي أقاموه غير رجال كلمة نظريين، والمفارقة هي أن هذا النظام بدلا من أن يحمي الحكم البريطاني ساعد في نهايته.

كما أن فشل بريطانيا في فلسطين يرجع، جزئيًا، إلى انعدام التفاهم بين الموظفين الاستعماريين البريطانيين وبين رجال الكلمة. كانت أغلبية اليهود في فلسطين، برغم انهماكهم في العمل، من رجال الكلمة الذين يشعرون بحساسية مفرطة تجاه الانتقاد. كانوا يعانون من الاحتقار

---

[203] Arnold. T. Toynbee, A Study of History Abridgment by D. C. Somervell (Toronto: Oxford University Press, 1947) P. 294.

الذي لمسوه لدى البريطانيين الذين اعتبروا اليهود مشاغبين لا يعترفون بالجميل الذي أسداه لهم الحكم البريطاني بحمايتهم من العرب. كما أن اليهود شعروا بالنقمة من الوصاية التي مارسها موظفون بريطانيون يفتقرون إلى الخبرة والذكاء. لو كان هؤلاء الموظفون يتمتعون بالذكاء والحكمة لبقيت فلسطين جزءًا من الأمبراطورية البريطانية[٢٠٤].

في كل من الأنظمة النازية والبلشفية هناك شعور عميق بأهمية العلاقة المفصلية بين الدولة وبين رجال الكلمة. في روسيا يتمتع الكتاب والفنانون والمثقفون بالمزايا التي تحصل عليها النخبة الحاكمة، بل إنه يمكن اعتبارهم جميعًا موظفين من درجة عالية لدى الدولة. وبرغم أنهم مجبرون على اتباع الخطر الرسمي للحزب، إلا أن الانضباط المفروض عليهم هو الانضباط نفسه المفروض على النخبة الحاكمة، وفي حالة هتلر كان هنالك نوع من الواقعية الشيطانية يستهدف التعليم حكرًا على النخبة التي ستحكم الأمبراطورية العالمية التي كان يحلم بها، بينما تبقى الجماهير في أمية شبه كاملة.

١٠٧

يُعدّ الكتاب الفرنسيون في القرن الثامن عشر المثال التقليدي لمثقفين فتحوا الطريق أمام حركة جماهيرية. إلا أن نمطًا مماثلا يمكن أن يشاهد في الفترات التي تسبق قيام معظم الحركات الجماهيرية هُيِّئَت التربة للإصلاح البروتستانتي على أيدي المثقفين الذين سخروا من كهنوت روما ونددوا به، وكان انتشار المسيحية السريع في الأمبراطورية الرومانية يعود، جزئيًا، إلى

[٢٠٤] جانب المؤلف، هنا، الصواب، فقد كان هدف الصهاينة، منذ البداية، إنشاء دولة يهودية مستقلة، ولم يكونوا ليجدوا من هذا الهدف مهما كان مستوى ذكاء الحكام البريطانيين (المترجم).

أن المذاهب الوثنية التي حلت المسيحية محلها أصبحت مرفوضة تماما. هوجمت هذه المذاهب قبل ظهور المسيحية وبعدها، من قبل فلاسفة اليونان الذين سخروا منها في المدارس والشوارع. ولم تستطع المسيحية تحقيق أي تقدّم في مواجهة اليهودية؛ لأن هذه الديانة الأخيرة حظيت بولاء متحمسة من قبل رجال الكلمة اليهود. كان الحاخامات وتلامذتهم يتمتعون بموقع ممتاز في حياة اليهود اليومية، حيث تضافرت المدرسة والكتاب للوقوف مع المعبد ومع التراب. ولو تصورنا نظامًا يتمتع فيه رجال الكلمة بسلطة مطلقة، فسيكون نظامًا محصّنا ضد أي معارضة من الداخل وضد أي حركة جماهيرية في الخارج.

كانت الريادة في قيام الحركات الجماهيرية المعاصرة، سواءً كانت اشتراكية أو قومية، دومًا للشعراء والمؤرخين والباحثين والفلاسفة، ومن إليهم. والعلاقة بين المثقفين المنظرين وبين الحركات الثورية لا تحتاج إلى تأكيد. إلا أنه من الضروري أن نلاحظ أن الحركات الوطنية كلها من الثورة الفرنسية إلى آخر تمرّد في أندونسيا لم يوجدها رجال عمليون، بل مثقفون هاجموا الأوضاع السائدة. إن الضباط الكبار ومالكي الأراضي ورجال الأعمال الذين يعدّون رموز الحركة الوطنية لا يصعدون على المسرح، عادة، إلا متأخرين بعد ظهور الحركة وبدأ نشاطها. إن الجهد الأكبر المبذول في المرحلة الأولى من أي حركة وطنية تنصب على إقناع الرموز الوطنية المشار إليها واجتذابها إلى صفوف الحركة. قال المؤرخ التشيكي بالاكي: (لو أن السقف انهار ذات ليلة عليه، وعلى عدد من رفاقه خلال تناولهم العشاء، لما كانت هناك

حركة تشيكية وطنية)[٢٠٥]. كان هناك، دومًا، عدد محدود من رجال الفكر غير العمليين وراء جميع الحركات الوطنية.

صاغ المثقفون الألمان فكرة القومية الألمانية كما صاغ المثقفون اليهود فكرة الصهيونية. إن شوق رجل الكلمة إلى موقع متميّز هو الذي يجعله مفرط الحساسية تجاه أي إهانة توجه إلى الطبقة أو الجماعة التي ينتمي إليها، سواء كانت عرقية أو لغوية أو دينية، ومهما كان الانتماء سطحيا. كانت الإهانة التي وجهها نابليون إلى الألمان، وإلى البروسيين تحديدًا هي التي دفعت عددًا من المثقفين الألمان إلى دعوة الجماهير إلى الاتحاد في دولة قوية تستطيع السيطرة على أوروبا. وكان هرتزل[٢٠٦] ورفاقه مدفوعين إلى الصهيونية؛ نتيجة الإهانات التي تلقاها ملايين اليهود في روسيا، ونتيجة المآسي التي تعرض لها اليهود في أوروبا مع نهاية القرن التاسع عشر. وإلى حد ما، وجدت الحركة الوطنية التي أخرجت بريطانيا من الهند بدايتها في الإهانات التي لاحقت غاندي في جنوب أفريقيا.

١٠٨

من السهل أن نرى كيف يستطيع رجال الكلمة عن طريق الانتقادات المستمرة والسخرية المطردة أن يهزوا العقائد والولاءات القائمة. إلا أنه يصعب أن نتوقع الكيفية التي تتحول عبرها هذه الإدانة إلى عقيدة جديدة. ما يثير الانتباه هو أن رجل الكلمة النشيط الذي يتابع

[205] Carlton J. h Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York: R. R. Smith, 1931), p.294.

[٢٠٦] تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤م) الكاتب الهنغاري أول من تبنى فكرة الدولة اليهودية ومن أوائل الذين أسسوا الحركة الصهيونية (المترجم).

النظام القائم ويكشف ضعفه وظلمه[207] كثيرًا ما يهيئ المسرح لا لمجموعة من الأفراد المستنيرين، بل لحركة شمولية همها الأول والأخير فرض الوحدة ونشر الولاء المطلق. وهكذا نرى أن انتشار التذمر من نظام ما، وزوال هيبته كثيرًا ما يقود إلى نتائج غير متوقعة، ما أبدته مرحلة النهضة من احتقار للأوضاع القائمة فتح الباب أمام تطرف جديد جسدته حركة الإصلاح البروتستانتي والحركة المناوئة لها. كما أن المثقفين الفرنسيين الذين هاجموا الكنيسة والتاج في القرن الثامن عشر، ونادوا بالتسامح وتحكيم المنطق أثاروا مدًا عنيفا من التطرف الثوري والقومي استمر مدة طويلة. وكل ما فعله ستالين ورفاقه بعد أن هاجموا الأديان والنشاط التجاري المحموم هو أنهم أدخلوا تطرفا جديدًا تجسد في الشيوعية والاشتراكية والوطنية الستالينية والرغبة في السيطرة على العالم بأسره.

إننا عندما نهاجم عقيدة أو نزعة متطرفة لا نقضي على جذور التطرف، بل نمنع تسربه من نقطة معينة، الأمر الذي قد ينتج عنه تسربه من نقطة أخرى. وهكذا نرى أن رجل الكلمة المعارض بانتقاض الولاءات والعقائد القائمة يخلق في الجماهير، دون قصد، شوقا إلى عقيدة جديدة. لا يستطيع معظم الناس تحمل ما في حياتهم من خواء وخيبة إلا إذا كان لديهم ولاء قوي، أو مجهود دائب يمكن أن ينغمسوا فيه كلية. هكذا يصبح رجل الكلمة المعارض، شاء أو لم يشأ، مبشرًا بعقيدة جديدة.

---

[207] Pascal, Pensees.

إن المثقف الحقيقي ليس بحاجة إلى الإيمان المطلق بقضية ما. بوسعه أن يعدّ البحث عن الحقيقة في أهمية الحقيقة ذاتها، وأن يستمتع بصراع الأفكار، ومما يثيره الجدال من حيوية. حتى عندما يطوّر هذا المثقف فلسفة ومذهبا، فإنه يفعل ذلك ليثبت ذكاءه وقدرته دون أن يعدّ ما قام به برنامجا يتطلب التنفيذ، أو عقيدة يجب الالتزام بها. صحيح أن غروره قد يقوده إلى الدفاع عن نظرياته بصلابة وعنف إلا أنه، برغم ذلك، يحتكم إلى المنطق، لا إلى الإيمان الأعمى. إلا أن الجماهير المتعطشة إلى الإيمان، بقيادة المتطرفين، كثيرًا ما تضفي على هذه النظريات عصمة الكتب المقدسة وتجعل منها نواة دين جديد. لم يقل المسيح: إنه مسيحي، ولم يقل ماركس: إنه ماركسي.

تلخيصًا لما تقدم يمكن أن نقول: إن رجل الكلمة المعارض يهيئ التربة لقيام حركة جماهيرية، وذلك:

أولا: بانتقاص المذاهب والمؤسسات القائمة وزعزعة شرعيتها عند الناس.

ثانيًا: بأن يوجد، بطريق غير مباشر، جوعًا إلى الإيمان في قلوب أولئك الذين لا يستطيعون العيش من غير هذا الإيمان، بحيث تلقى العقيدة الجديدة حين تجيئ قبولا حارًا من الجماهير المحبطة.

ثالثا: بأن يصوغ العقيدة الجديدة وشعاراتها.

رابعا: بأن يهاجم «الصفوة» التي لا تحتاج إلى عقيدة على نحو يفقد أفرادها القدرة على مقاومة التطرف الجديد حين يجيء. يصبح هؤلاء مقتنعين أنه لا جدوى من الموت في سبيل المبادئ التي يؤمنون بها ويستسلمون للنظام الجديد بلا مقاومة[٢٠٨].

هكذا يصبح المشهد عندما ينهي رجل الكلمة المعارض مهمته: (يفتقر أفضل الناس إلى المبادئ، بينما تسود الحماسة الجارفة أسوأ الناس. وعندها يقال: إن هناك شيئا جديدًا سينزل: لا بد أن عودة المسيح قد اقتربت)[٢٠٩] أصبح المسرح، الآن، جاهزا للمتطرفين.

١٠٩

إن الأشخاص المأساويين في تاريخ الحركات الجماهيرية هم، عادة، المثقفون الذين مهّدوا للحركة، والذين عاشوا ليروا سقوط النظام القديم على يد الجماهير.

إن الوهم السائد الذي يذهب إلى أن الحركات الجماهيرية تولد من عزم الجماهير على التخلص من الطغيان وشوقها إلى الحرية يعود إلى ضجيج الكلمات التي أطلقها المثقفون ضد النظام القائم. إلا أن الواقع يقول: إن الحركات الجماهيرية خلال صعودها تمنح، عادة حريات أقل من التي كانت موجودة في عهد النظام القديم. وكثيرًا ما ينسب هذا إلى مكر الفئة المتسلطة التي خطفت الحركة في بدايتها، وحرمت الجماهير من فجر الحرية الذي يوشك أن يشرق. إلا أن الأشخاص الوحيدين الذين خُدعوا هم – في الواقع – المثقفون. تحرك المثقفون ضد

[٢٠٨] جاء في رسالة كتبها مصرفي هولندي: «لا نود نحن الهولنديون أن نصبح شهداء، شأننا شأن معظم معاصرينا الذين لا يريدون الاستشهاد». انظر:
Demaree Bess, «The Bitter Fate of Holland» Saturday Evening Post Feb, 1, 1941.
[209] William Butler Yeats, <<The Second Comine>> Collected Poems (New York: Macmillan Company, 1933.

النظام القائم، يعيبون عليه عدم عقلانيته وعدم كفاءته، ويشككون في شرعيته ويدينون ظلمه، مطالبين بالحرية، معترضين أن الجماهير التي تستجيب لنداءاتهم وتصطف وراءهم تؤمن بالأهداف ذاتها. إلا أن الجماهير، في الحقيقة، لا تتوق إلى حرية التعبير وتحقيق الذات، بل إلى التحرر من العبء الثقيل الذي يخلقه وجود الفرد المستقل. إنها تريد الحرية (من ذلك القيد الثقيل: حرية الاختيار)[٢١٠] إنها تريد الخلاص من المسؤولية الثقيلة التي يواجهها الأفراد المحبطون، والتي تتطلب منهم العيش مع أنفسهم التي يكرهونها وتحمل المسؤولية عن أعمالهم. لا تريد الجماهير حرية الضمير، ولكنها تريد الإيمان، الإيمان الشامل الأعمى. والجماهير التي تطيح بالنظام لا تود إقامة مجتمع من أفراد أحرار مستقلين، بل بناء مجتمع يتميز بالتماثل ويجسد الوحدة التامة ويلغي الهويات الفردية.

لم تكن ثورة الجماهير منصبة على شرور النظام القديم، بل على ضعفه؛ لا على ظلمه، بل على فشله في تحويل الجماهير إلى كيان قوي موحد. إن رجل الكلمة المعارض لا يقنع الناس بمساوئ النظام القديم بقدر ما يقنعهم بضعفه وعجزه، وما تفعله الحركة الجماهيرية يتمشى، عادة، مع رغبات الناس ولا يمكن القول: إن الحركة خدعتهم.

ينتظر المثقفين الذين ساعدوا على ولادة الحركة الجماهيرية مصير مرعب، يظل هؤلاء المثقفون، مهما مجّدوا العمل الجماعي، فرديين في تصرفاتهم وأفكارهم، يؤمنون أن السعادة يمكن أن تكون فردية، كما يؤمنون بالرأي الفردي والمبادرة الفردية، إلا أنه بمجرد أن تبدأ

---

[٢١٠] Fedor Dostoyevsky, The Brothers Karamazof Book V, Chap. 5.

الحركة عملها تقع السلطة في يد أولئك الذين لا يؤمنون بالفرد، ولا يقيمون له أي وزن. والسبب الذي يجعلهم مسيطرين على الموقف لا يكمن في استخفافهم بحقوق الفرد والقوة التي يستمدونها من هذا الاستخفاف، ولكن من كون موقفهم من الفرد يتمشى تمامًا مع عواطف الجماهير الملتهبة.

الفصل الخامس عشر: المتطرفون

١١٠

المتطرّف، وحده، هو الذي يستطيع، عندما تجيء اللحظة المناسبة، أن يفرّخ حركة جماهيرية حقيقية. في غياب المتطرف، يظل التذمر الذي أثاره رجال الكلمة المعارضون بلا هدف، ويمكن أن يتبدد في اضطرابات لا غاية لها يسهل القضاء عليها. وأي إصلاحات جديدة، حتى عندما تكون جذرية، لا تستطيع في غياب المتطرف، تغيير نمط الحياة القديم. وأي انتقال للسلطة، في غياب المتطرف، لا يتجاوز، عادة، نقل الحكم من رجال عمليين إلى رجال عمليين مثلهم، باختصار، يمكن القول: إنه بدون المتطرف، لا يمكن أن تكون هناك بداية جديدة.

عندما يبدأ النظام القديم في التهاوي نجد أن عددًا كبيرًا من رجال الكلمة المعارضين، الذين صلّوا من أجل هذا اليوم، يصابون بالهلع. ينتابهم من النظرة الأولى إلى الفوضى العارمة فزع يشل قواهم العقلية. وهنا ينسون كل ما قالوه عن (الناس الطيبين البسطاء) ويهرعون إلى طلب الحماية من الرجال العمليين – النبلاء والضباط الكبار والإداريين ورجال البنوك ومالكي الأراضي – الذين يستطيعون التعامل مع الغوغاء وإيقاف مدّ الفوضى.

ليس هذا شأن المتطرف: إن الفوضى هي البيئة التي يبدع فيها. عندما يبدأ النظام القديم في التصدع يتقدم المتطرّف بكل جرأة؛ ليؤجج نيران الغضب على هذا النظام. يجد المتطرّف الرضا والمتعة في رؤية العالم القديم ينتهي بغتة، ولتذهب الإصلاحات إلى الجحيم. لم يبق

سوى الأنقاض، ولا يوجد ما يدعو إلى إصلاح الأنقاض. يبرر المتطرّف نزعته إلى الفوضى تبريرًا منطقيًا، إذ يقول: إنه من المستحيل أن تكون هناك بداية جديدة، والنظام القديم يزحم الأرض. يزيح المتطرّف رجال الكلمة جانبًا، إذا كانوا لا يزالون على المسرح، ومع ذلك يستمر في تمجيد المذاهب التي صاغوها، وترديد الشعارات التي ابتكروها. المتطرف، وحده، هو الذي يعرف الرغبة المعتملة في صدور الجماهير الزاحفة: الرغبة في الوحدة والتكتل وحشد الصفوف والتخلص من الفردية الممقوتة، ليحل محلها جلال الكيان الواحد وعظمته. يصبح المستقبل هو الملك، والويل لمن يحاول التمسك بالحاضر، سواء من داخل الحركة أو من خارجها.

١١١

من أين يجيء المتطرفون؟ يجيئون، غالبًا، من صفوف رجال الكلمة غير المبدعين. إن أهم تفرقة بين رجال الكلمة هي بين أولئك الذين يحصلون على الرضا والشعور بالاعتزاز نتيجة عملهم وبين أولئك الذين لا يشعرون بشيء من هذا. إن رجل الكلمة المبدع، برغم انتقاداته المريرة للنظام القائم هو، في الحقيقة، إنسان مرتبط بالحاضر، يتطلع إلى الإصلاح لا إلى الهدم. وعندما تبقى الحركة الجماهيرية في عهدته، فإنه ينزع إلى تحويلها إلى حركة سلمية، وأي إصلاحات يقوم بها تظل سطحية تجري الحياة تحتها دون انقطاع. إلا أن بقاء رجل الكلمة المبدع في قيادة الحركة لا يتحقق إلا بغياب الفوضى من المسرح، إما لأن النظام القديم تنازل بلا مقاومة، أو لأنه حالف رجالا عمليين أقوياء قبل انفلات الفوضى من عقالها. إلا أنه عندما يكون الصراع مع النظام القديم مريرًا تسوده الفوضى، وعندما يتعذر الانتصار دون

العمل الجماعي والتضحية بالذات، فإن رجال الكلمة المبدعين يدفعون جانبا وتصبح السيطرة على الأحداث في يد رجال كلمة غير مبدعين، لا يستطيعون الانتماء إلى الحاضر، ولا يكنون له سوى الكراهية.

إن الرجل الذي يود أن يكتب كتابًا عظيمًا، أو يرسم لوحة رائعة، أو يصمم مخططا معماريا استثنائيًا، أو يصبح عالماً شهيرًا، ويعلم أنه لا يستطيع أن يقوم بشيء من هذا، ولو منح الأبدية، هذا الرجل لا يجد طعما للسلام في نظام اجتماعي مستقر، سواء كان قديمًا أو جديدًا. يرى هذا الرجل أن حياته قد فسدت بلا أمل في علاجها، ويرى العالم المحيط به مختلاً ومعيبًا، ولا يشعر بالراحة إلا في جو من الفوضى. وعندما يلتزم هذا الرجل بالانضباط أو يفرضه على الآخرين، فإنه يفعل ذلك لأنه يرى أن هذا الانضباط يمكنه من المضي في عملية تغيير لا تنتهي. لا يستطيع المتطرّف العيش مع نفسه – ولهذا فهو يخاف الاستقرار والأوضاع الهادئة المنتظمة. بإمكاننا أن نعد قادة الثورة الفرنسية الدمويين ولينين وموسوليني وهتلر أمثلة صارخة لمتطرفين خرجوا من صفوف رجال الكلمة غير المبدعين[٢١١]، يلاحظ بيترفيريك أن معظم القياديين في الحركة النازية كانت لديهم طموحات فنية وأدبية لم يتمكنوا من تحقيقها. جرّب هتلر الرسم والهندسة المعمارية؛ وجرّب جوبلز المسرح والرواية والشعر؛ وجرّب روزنبرج الهندسة المعمارية والفلسفة؛ وجرب فون شيراك الشعر؛ وجرب فنلك الموسيقى؛ وجرب ستريجر الرسم. (كان الجميع فاشلين لا بمعايير النجاح الموضوعية فحسب، بل

[٢١١] نلاحظ، في هذا السياق، دون تعليق أن اثنين من الزعماء الثوريين العرب المعاصرين كشفوا عن طموحات أدبية لا تدعمها سوى موهبة شديدة التواضع (المترجم).

حسب معاييرهم هم). كانت طموحاتهم الفنية والأدبية، في الأساس، أعمق بكثير من طموحاتهم السياسية، وكانت جزءًا لا يتجزأ من شخصياتهم[٢١٢].

لا يشعر رجل الكلمة المبدع بالراحة في جو الحركة الجماهيرية النشطة، بل يحسّ أن حيويتها وعواطفها المتأججة تمتص طاقاته المبدعة: ما دام الإبداع يسري في دمائه، فهو لا يجد أي متعة في قيادة الملايين وتحقيق الانتصارات، والنتيجة الحتمية، عندما تبدأ الحركة هديرها، هي أن يتخلى عن موقعه طوعًا أو يزاح بالقوة. ونظرًا إلى أن رجل الكلمة المبدع لا يستطيع خنق حاسته النقدية، فإنه يتحوّل، بالضرورة، إلى منحرف عن العقيدة السليمة. ومن هنا نرى أن رجل الكلمة المبدع، إذا لم يستطع خنق الحركة الوليدة بالتحالف مع رجال عمليين أقوياء، وإذا لم يمت في اللحظة المناسبة، فليس أمامه سوى أن يصبح معزولا ومهمشا ومنسيا، أو أن يواجه الإعدام.

١١٢

يكمن خطر المتطرّف على تطور الحركة الجماهيرية في عجزه عن الهدوء. عندما يتم النصر، ويبدأ النظام الجديد في التبلور، يصبح المتطرّف عامل توتر وإرباك. يدفعه جوعه إلى إثارة العواطف العنيفة إلى البحث عن أسرار جديدة لا بد أن تكشف، وأبواب سرية جديدة لا بد أن تفتح، كما يدفعه إلى البحث المستمر عن أشدّ المواقف تطرفا. ومن هنا تجد معظم الحركات الجماهيرية نفسها غداة انتصارها في قبضة الشقاق والخلاف. تتحول الحماسة، التي كانت، في

[٢١٢] Peter Viereck, Meta Politics (New York: Alfred A. Knopf, 1941), pp. 156, 170.

السابق، تتجلى في صراع حتى الموت مع أعداء خارجيين إلى صراعات عنيفة وصدام بين الأجنحة، وتتحول الكراهية إلى عادة متأصلة. بمجرد أن يغيب الأعداء الخارجيون يبدأ المتطرفون معاداة بعضهم بعضا. استطاع هتلر، الذي كان هو نفسه متطرفا، أن يحلل بدقة عقلية المتطرفين الذين تآمروا عليه ضمن صفوف الحركة النازية. في الأمر الذي وزعه على زعيم البوليس السرّي الذي عينه بعد القضاء على الزعيم السابق روهم، تحدث هتلر عن (أولئك الذين يرفضون أن يهدؤوا، الذين وجدوا في العَدَمية، دون أن يشعروا، عقيدتهم النهائية.. أن ما يشعرون به من قلق وتذمر يحرمهم الرضا ويدفعهم إلى التآمر، وإلى التخطيط المستمر لتدمير كل ما هو قائم في الوقت الحاضر)[٢١٣] وكما هو الحال، عادة مع هتلر، فإن اتهاماته لأعدائه، داخل ألمانيا وخارجها، أشبه ما تكون باعترافات شخصية. وهو نفسه، في أيامه الأخيرة، وجد في العدمية (الفلسفة النهائية والتبرير النهائي)[٢١٤].

ينزع المتطرفون، إذا سمح لهم بحرية العمل، إلى شق الحركة وإدخال انحرافات وخلافات تهدد بقاءها. وحتى عندما لا يتعمّد المتطرفون إثارة الفرقة، فإنهم يستطيعون تحطيم الحركة بدفعها نحو أهداف يستحيل تحقيقها. لا ينقذ الحركة شيء في هذه المرحلة سوى دخول رجل من الرجال العمليين.

---

[213] Hans Bernd Gisevius, To the bitter end (Boston: Houghton Mifflin Company, 1974), pp. 121 – 122.

[214] H. R. Trevor – Roper, The Last Days of Hitler (New York: Macmillan Company, 1947), p. 4.

١١٣

باختصار، الحركة الجماهيرية يخطط لها رجال الكلمة، ويظهرها إلى حيز الوجود المتطرفون، ويحافظ على بقائها الرجال العمليون.

قد يكون من فائدة الحركة، بل قد يكون شرطا من شروط بقائها، أن يؤدي هذه الأدوار المختلفة رجال مختلفون يأتي الواحد منهم بعد الآخر حسب متطلبات المرحلة. عندما يقود الشخص نفسه، أو أشخاص بطبيعة واحدة، الحركة من بدايتها إلى نهايتها، فإن الحركة تنتهي، عادة، بكارثة، لم يحدث أي تغيير في قيادة الحركة النازية أو الحركة الفاشية، وانتهت الحركتان نهاية مأساوية. كان تطرف هتلر، وما تبعه من عجز عن الهدوء والقيام بدور الرجل العملي، المسؤول عن تدمير النازية. لو مات هتلر في منتصف الثلاثينيات، كما كان هناك أي شك في أن رجلا عمليًا مثل جورنج[٢١٥] كان سيتولى القيادة، وكان بإمكان النازية أن تبقى.

هنالك، بطبيعة الحال، إمكانية حدوث تغيير في الطبيعة البشرية. بوسع رجل الكلمة أن يصبح متطرفا حقيقيًا أو رجلا عمليًا. إلا أن التجربة تشير إلى أن مثل هذا التغيير يكون، عادة، مؤقتا، بعد وقت يطول أو يقصر يرجع المرء إلى طبيعته الأصلية. كان تروتسكي، أساسًا، رجلا من رجال الكلمة. كان معتدًا بنفسه وذكيا وفرديًا إلى أبعد حدّ. غير أن

[٢١٥] كان هيومان جورنج (١٨٩٣ – ١٩٤٦م) من أوائل القادة النازيين، ومن أعوان هتلر المقربين، وقد مات منتحرًا في سجن الحلفاء بعد الحكم عليه بالإعدام (المترجم).

التغييرات الهائلة التي عاصرها، انهيار النظام القيصري وتصميم لينين الحديدي، دفعت بترتسكي إلى معسكر المتطرفين. أثبت خلال الحرب الأهلية مواهب استثنائية في التنظيم وقيادة القوات. إلا أنه مع انتهاء التوتر في نهاية الحرب عاد، من جديد، إلى طبيعته القديمة، رجلا من رجال الكلمة، متحررًا من الشدة والشكوك السوداء، واثقا في الكلمات بدلا من العمل المحموم، وهكذا سمح لنفسه أن يزاح جانبا من قبل المتطرف الماكر ستالين.

كان ستالين نفسه مزيجا من المتطرف والرجل العملي، مع غلبة الجانب المتطرّف. إن أخطاءه الفظيعة – من الإبادة العبثية للكلولاك[٢١٦] وأولادهم، والرعب الذي واكب التطهيرات المتوالية، والحلف مع هتلر، والتدخل الفظ في إبداع الكتاب والفنانين والعلماء – كانت كلها أخطاء رجل متطرف. لم يكن بإمكان الروس، طالما ظل ستالين في السلطة، أن يتذوقوا أي متعة من متع الحاضر.

وكان هتلر، بدوره، متطرفا وقد أدّى تطرفه إلى تحطيم كل المنجزات المذهلة التي حققها عندما تصرف كرجل عملي واقعي.

وهناك أيضا، بطبيعة الحال، طراز نادر من القادة، مثل لنكولن وغاندي، وحتى فرانكلين روزفلت وتشرشل ونهرو[٢١٧]. لم يتردد هؤلاء في استثمار جموع الناس وخوفهم لإيجاد أتباع

[٢١٦] كان اسم «الكولاك» يطلق في روسيا على طبقة المزارعين الميسورين، وفي سنة ١٩٢٩م، قرر ستالين تأميم المزارع وإنشاء مزارع جماعية وإنهاء طبقة الكولاك، وفي سنة ١٩٣٤ تم تأميم معظم المزارع، وكان هناك عدة ملايين من المنفيين والمهجرين والمعتقلين من طبقة الكولاك وغيرهم من المزارعين الذين عارضوا التأميم (المترجم).

[٢١٧] كان جواهر لال نهرو (١٨٨٩ – ١٩٦٤ م) من أبرز تلامذة غاندي، وأقرب مساعديه إليه، ناضل وسجن في سبيل الاستقلال، وتولى رئاسة الوزراء منذ استقلال الهند سنة ١٩٤٧م حتى وفاته. (المترجم).

مخلصين مندفعين حتى الموت في حماية قضية مقدّسة، إلا أنهم بخلاف هتلر أو ستالين، أو حتى كالفن[٢١٨][٢١٩]، لم يحوّلوا معاناة النفوس المحبطة إلى لبنات لبناء عالم جديد.

إن ما أبداه هؤلاء القادة النادرون من ثقة في النفس ينبع من إيمانهم بالإنسانية؛ ذلك أنهم أدركوا أنه لا يمكن لأحد أن يكون محترما ما لم يحترم البشر.

١١٤

ينقذ رجل العمل الواقعي الحركة من النزعات الانتحارية، ومن طيش المتطرفين. إلا أن ظهوره يعني، عادة أن مرحلة الحركة الديناميكية انتهت بالقضاء على الوضع القائم.

لا يهم رجل العمل أن يعيد صياغة العالم بقدر ما يهمه أن يسيطر عليه. كانت القوة المسيّرة للحركة في مرحلتها الديناميكية هي الاحتجاج والرغبة في التغيير الجذري، أما في المرحلة النهائية فشغل الحركة الشاغل هو التنظيم والحفاظ على السلطة التي تم الفوز بها.

بظهور رجل العمل يمكن القول: إن الحماسة المتفجرة للحركة قد حنطت ووضعت في مؤسسات شبه مقدّسة. تتبلور الحركة الدينية في شكل الكهنوت والطقوس: وتتبلور الحركة الثورية في شكل أجهزة الرقابة والإدارة: وتتبلور الحركة القومية في شكل حكومة ومؤسسات وطنية. إن إنشاء كنيسة يعني انتهاء مدة الدعوة الأولى؛ وقيام الأجهزة

---

[٢١٨] كل من لوثر وكالفن استهدف إقامة سلطة كنسية جديدة، أقوى وأكثر ديكتاتورية وحزمًا، وأقسى في معاركة الهراطقة، ومن الكنيسة الكاثوليكية انظر:
Jerome Frank, Fate And Freedom (New York: Simon And Schuster, Inc, 1943), p.283.

[٢١٩] يعدّ جون كالفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤ م) رجل الدين الفرنسي/ السويسري من أهم قادة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، وكان له تأثير كبير على الكنائس التي اتبعت مذهبه في أوروبا وأمريكا (المترجم).

والمؤسسات الثورية يعني القضاء على العقلية الثورية وآلياتها. كما أن إنشاء المؤسسات الحكومية في دولة جديدة مستقلة تعني نهاية المرحلة المتحمسة العدوانية. تعمل المؤسسات على تأبيد نموذج يجسد العمل الجماعي. يتوقع من أعضاء المؤسسات في مجموع موحد أن يتصرفوا، كما لو كانوا رجلاً واحدًا، إلا أنهم مع ذلك يبقون ممثلين لمؤسساتهم ولا يحكمهم الاندفاع العفوي القديم. في المرحلة الجديدة لا تتحقق الوحدة إلا من خلال الولاء الأعمى للمؤسسات: تصبح العفوية مرفوضة، ويصبح القيام بالواجب المثل الأعلى المنشود.

١١٥

إن المهمة الأولى للرجل العملي عندما يسيطر على حركة جماهيرية منتصرة هي أن يضمن بقاء الوحدة والاستعداد للتضحية بالذات. إن هدفه هو إقامة مجموع واحد منظم، ومع ذلك يمكن أن يتصرف مثل رجل واحد. لا يستطيع الرجل العملي الاعتماد على الحماسة؛ لأن الحماسة، بطبيعتها، عاطفة عابرة. ولا يمكنه الاعتماد على الإقناع الذي لا يأتي دومًا بالنتائج المطلوبة. ولهذا فهو ينزع إلى الاعتماد، أساسا على التدريب المستمر والقمع، إنه يرى أن المقولة التي تذهب إلى أن كل الرجال جبناء أصدق من المقولة التي تزعم أن كل الرجال حمقى، وهو ينزع، كما قال السير جون مايناردر، إلى تأسيس نظامه الجديد (في رقاب الناس لا في قلوبهم)[٢٢٠]. إن الرجل العلمي لا يعتمد على الإيمان بقدر ما يعتمد على القانون.

[220] John Maynard, Russia In Flux (London: Victor Gollancz, ltd, 1941), p.19.

ومع ذلك، فالرجل العملي لا يملك إلا أن يذهل بالمنجزات الكبرى التي تحققت بفضل الإيمان والعمل العفوي في أيام الحركة الأولى، إذ أمكن إيجاد أداة قوية من أدوات القوة من العدم. لا تزال هذه الذكرى راسخة في عقله، من هنا، فهو يحرص على أن يصنع للمؤسسات الجديدة واجهة جذابة من الإيمان، وعلى أن يكون هناك سيل مستمر من الدعاية المحمومة، برغم أنه يعتمد، أساسا، على القمع. وفوق هذا، فهو يصوغ أوامره بلغة الثورة، ويستخدم الشعارات والصيغ القديمة، ويحيط رموز العقيدة بهالة من السمو والقداسة. يتحول رجال الكلمة والمتطرفون الذين واكبوا الحركة في مرحلتها الأولى إلى قديسين. برغم أصابع القمع الحديدية الموجودة في كل مكان، وبرغم التركيز على التدريب المستمر العنيف، فإن الشعارات القديمة والدعاية المحمومة تضفي على القمع طابع الإقناع وتسكو العادة المفروضة فرضا رداء العفوية. يبذل الرجل العملي جهدًا كبيرا لإظهار المرحلة الجديدة، وكأنها النتيجة المجيدة الحتمية لآمال المرحلة الأولى وصراعاتها.

يختار الرجل العملي بعناية الأساليب التي يستخدمها لإعطاء النظام الجديد الاستقرار والثبات. إنه يستعير من القريب والبعيد ومن العدو والصديق. بل إنه يعود إلى النظام القديم الذي قضت عليه الحركة؛ ليقتبس منه بعض التقنيات التي توطد الاستقرار، ويوجد بذلك، دون أن يقصد، استمرارية مع الماضي. ومنصب الديكتاتور المطلق الذي يظهر عادة في هذه المرحلة هو استخدام متعمد لآلية مقصودة، بالإضافة إلى كونه تعبيرا عن الجوع إلى السلطة. إن الديكتاتورية كثيرا ما تبرز مع بداية الحركة ومع نهايتها. إنها تعبير عن الرغبة في الثبات، ويمكن أن تستخدم لبلورة وضع لم يتبلور، أو للحفاظ على وضع بدأ في الانهيار. إن عصمة

البابا أعلنت مرتين: كانت الأولى في عهد البابا إيرانيوس، في الأيام الأولى للبابوية في القرن الثاني، وكانت الثانية في عهد بيوس التاسع سنة ١٨٧٠ م حين بدأ أن البابوية موشكة على الزوال.

وهكذا نجد أن برنامج الرجل العملي مقتبس من هنا وهناك. كانت روسيا في عهد ستالين خليطا غريبًا من البلشفية والقيصرية، والقومية، والسلافية، والديكتاتورية، وأشياء منقولة من هتلر، وعناصر من الرأسمالية الاحتكارية، كما كان رايخ هتلر الثالث مزيجا من القومية، والعنصرية، والقومية البروسية، والديكتاتورية، بالإضافة إلى أشياء منقولة من البلشفية، والفاشية، وديانة الشنتو[٢٢١]، والكاثوليكية واليهود القدامى. كما أن المسيحية بعد انتهاء صراعات القرون الأولى وخلافاتها، تبلورت في شكل كنيسة سلطوية، وأصبحت مزيجا من القديم والجديد ومقتبسات من العدو والصديق. أخذت تراتيبتها من بيروقراطية الأمبراطورية الرومانية، وأخذت عناصر من الطقوس القديمة، وجاءت بمنصب القائد المطلق، واتبعت كل الوسائل المتاحة لاستيعاب ما يساعدها على البقاء ويقوي سلطتها[٢٢٢].

١١٦

عندما تقع الحركة في قبضة رجل عملي، فإنها تكف عن كونها ملاذا من آلام الوجود الفردي وتبعاته وتتحول إلى وسيلة متاحة لصعود الرجل الطموح. إن اجتذاب الحركة رجالا، لا

---

[٢٢١] تنتشر ديانة الشنتو في اليابان وتقوم في جوهرها على تقديس الأسلاف على نحو يشبه العبادة (المترجم).

[222] John Addington Symonds, The Rine Arts, «Renaissance In Italy Series (London: Smith, Elder, And Company, 1906), pp. 19 –20.

يعانون الإحباط هو دليل قاطع على التغيير الهائل الذي ألم بالحركة وعلى تأقلمها مع الوضع الراهن. كما أنه من الواضح أن إقبال الأعضاء الجدد يسارع في تحويل الحركة إلى مشروع مؤسسي. قال هتلر، الذي كان يرعى حركة النازية الوليدة: إن الحركة لا تستطيع أن تمنح أي مزايا في الوقت الحاضر (سوى الشرف والخلود، وحذّر قائلاً: إن الحركة إذا خضعت لأفراد يريدون الاستفادة من الحاضر، فإن مهمتها قد انتهت)[٢٢٣].

تستمر الحركة، في هذه المرحلة، في اهتمامها بالمحبطين، لا لتستثمر تذمرهم في الصراع حتى الموت مع الحاضر، ولكن لكي تؤقلمهم مع مؤسساتها، وتجعلهم أتباعًا خنوعين مطيعين، وتمنحهم الآمال البعيدة والأحلام والرؤية. هكذا تصبح الحركة، بعد انتهاء مرحلتها الديناميكية، أداة من أدوات القوة للناجحين، ومخدرًا للمحبطين.

[223] Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Hough Ton Mifflin Company, 1943), p. 105.

الفصل الثامن عشر: الحركات الجماهيرية النافعة والضارة

المرحلة الديناميكية وما يواكبها من فساد وعقم

١١٧

يُعنى هذا الكتاب، أساسا، بالمرحلة الديناميكية من الحركة الجماهيرية، وهي المرحلة التي يصوغها ويهيمن عليها المؤمنون الصادقون. تنزع الحركات، مهما كان نوعها، في هذه المرحلة إلى إظهار خصائصها المشتركة التي حاولنا تلخيصها. يبدو من الواضح الآن أنه مهما كانت الأهداف الأصلية للحركة نبيلة، ومهما كانت النتائج التي حققتها جيدة، فإن مرحلتها الأولى تبدو لنا غير جذابة، إن لم نقل شريرة.

والمتطرف الذي يطبع هذه المرحلة بطابعه هو نموذج إنساني لا يثير التعاطف. إنه رجل قاس، معتد برأيه، يصدق كل ما يقوله، كثير الجدل، وضيع ووقح. كثيرًا ما يكون المؤمن الصادق على استعداد للتضحية بأقاربه وأصدقائه في سبيل قضيته المقدّسة. إن الوحدة المطلقة والاستعداد التام للتضحية بالنفس اللذين يعطيان الحركة الديناميكية اندفاعها الذي لا يقاوم لا يمكن تحقيقهما، عادة، إلا بالتضحية بأشياء كثيرة جميلة وثمينة هي ما تميز الوجود الفردي للإنسان. لا يمكن لحركة طالت مرحلتها الأولى، أو إذا بقيت بعد سقوط النظام. وفي الحركات الجماهيرية التي نعدها اليوم جيدة ونافعة كالإصلاح الديني، أو الثورة الإنجليزية، أو الثورة الفرنسية، أو الثورة الأمريكية، وكثير من الحركات القومية خلال القرن التاسع عشر، لم تطل المدة الديناميكية برغم أنها كانت مطبوعة بطابع التطرف الدموي.

يعرف قائد الحركة الجماهيرية الذي يخدم شعبه ويخدم الإنسانية، لا متى يبدأ الحركة فحسب، بل يعرف، مثل غاندي، متى ينهي مرحلتها الديناميكية[٢٢٤].

عندما تحتفظ الحركة الجماهيرية عبر عدة أجيال بالطابع الذي صاغته المرحلة الديناميكية (كما هو الحال مع الكنيسة السلطوية خلال القرون الوسطى) فإن النتيجة ظهور مدة من الجمود وبداية عصر مظلم. لنا أن نقرر، عندما نشاهد مدة من الإبداع الحقيقي مقترنة بالحركة الجماهيرية، أنها تسبق المرحلة الديناميكية، أو على الأغلب تأتي بعدها، عندما تكون المدة الديناميكية قصيرة لا تتميّز بطابع دموي مُدمر، فإن نهايتها، خاصة عندما تكون مفاجئة، كثيرًا ما تثير موجة من الإبداع. وتبدو هذه الملاحظة صحيحة، سواء انتهت الحركة بالنجاح أو الفشل. ومدة الإبداع التي تأتي بعد نهاية الحركة النشطة لا علاقة لها بالمبادئ المثالية التي نادت بها الحركة أو ما واكبها من حيوية، بل تعود إلى استرخاء الانضباط الاجتماعي وتحرير الفرد من الجو الخانق، جو الطاعة العمياء واحتقار النفس وازدراء الحاضر. أحيانا، يصبح الحرص على ملء الفراغ الذي تتركه القضايا المقدّسة التي انتهت أو هجرت حافزا على الإبداع.

إن المرحلة الديناميكية، نفسها مرحلة فقيرة في الإبداع، أدرك تروتسكي أن مراحل التوتر العالي في مشاعر الجماهير لا تترك مجالا للتفكير والتأمل. (تعاني حوريات الإبداع، حتى

[٢٢٤] يمكن، وفقا لتحليل المؤلف أن نعدّ الملك عبدالعزيز آل سعود – رحمه الله – قائد حركة جماهيرية ديناميكية وأدرك مع الانتهاء من توحيد المملكة أن المرحلة الجديدة تتطلب الانتقال من الثورة إلى الدولة، فألجم حدة المتطرفين، وانصرف إلى بناء الدولة (المترجم).

حورية الإبداع الصحفي ذات العظام الصلبة خلال الأوقات الثورية)[225]. فجع كل من نابليون[226] وهتلر بالمستوى الهزيل للأدب والفن المنتجين في فترتيهما البطوليتين وأرادا إبداعا عظيمًا يتمشى مع الأحداث العظيمة. لم يكن لديهما أدنى قدر من المعرفة أن الجو الذي يحيط بالحركة الجماهيرية يخنق روح الإبداع ويقضي عليها. ولنا مثال على ذلك: كان ملتون في سنة ١٦٤٠م شاعرًا واعدًا عظيما، انتهى من تحرير مسودة عمله الكبير (الفردوس الضائع)، ثم أمضى عشرين سنة عقيمة يحرّر الكتيبات غارقا حتى عنقه (في بحر من الضجيج والجدال الصاخب) خلال الثورة الإنجليزية[227].

١١٨

إن تأثير الحركة الجماهيرية النشطة على العملية الإبداعية تأثير بعيد المدى يتخذ عدة أشكال:

أولا: يستنزف التوتر الذي تثيره الحركة الطاقات التي كانت ستتجه إلى العمل الإبداعي. إن التوتر يؤثر في العمل الإبداعي قدر ما يؤثر فيه التهتك والانحلال.

ثانيا: تحط الحركة من قيمة الإبداع الحقيقي وتحل محله الأدبيات التي تخدم الحركة. لا بد لكل من الأدب والعلم والفن أن يصطبغ «بالواقعية» وأن يصبح جزءًا من الدعاية. لا ينتج الكاتب أو الفنان أو العالم، إذا كانوا من المؤمنين الصادقين للتعبير عن النفس، ولا لخلاص

---

[225] Leon Trotsky, The History of the Russian Revolution (New York: Simon And Schuster, Inc, 1932), Preface.

[226] «كتب نابليون إلى قائد الشرطة مستغربا عدم وجود نهضة أدبية مزدهرة في أنحاء الأمبراطورية وطلب منه العمل على إيجادها، انظر:

Jacques Barzun, of Human Freedom Boston: Little, Brown & Company, 1939), p.91.

[227] «John Milton», Encyclopaedia Britannica.

الروح، ولا للبحث عن الحقيقة والجمال. مهمة كل هؤلاء أن ينذروا وينصحوا ويناشدوا ويمجدوا ويشجبوا.

ثالثا: عندما تفتح الحركة آفاقا جديدة تستغرق الجهود (كالحرب أو الاستعمار أو التصنيع) فإن هناك استنزافا إضافيًا للطاقة الإبداعية.

رابعا: تكفي حالة التطرف، في حد ذاتها، لخنق كل أشكال العمل الإبداعي. يزدري المتطرّف الحاضر كله، ويعمى عما في الحياة من جمال وعمق. تبدو الأشياء التي تثير خيال المبدع في نظر المتطرّف تافهة أو فاسدة. (يجب على كتابنا أن ينتظموا في الطابور العسكري، وكل من يتوقف في الطريق لقطف الزهور يعدّ فارًا من الخدمة). هذه الكلمات التي قالها كونستانتين سايموتوف تعكس أفكار المتطرّف وكلماته عبر العصور. قال الحاخام جيكوب (القرن الأول بعد الميلاد): (إن الذي يتمشى في الطريق... (ويقطع دراسته للتوراة) قائلا: (ما أجمل هذه الشجرة) أو (ما أجمل هذا الحقل...!) يصبح مذنبًا في حق نفسه)[٢٢٨] كان بوسع القديس برنارد أن يسير طيلة النهار بقرب بحيرة جنيف دون أن يرى البحيرة. وفي كتابه (إبداع الفنون) يروي المؤرخ والفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم قصة الراهب (الذي وجد نافذة في زنزانته تطل على منظر جميل، فأخذ على عينيه عهدًا ألا يلتفتا إليها أبدًا). إن عمى المتطرّف يمنحه القوة؛ لأنه لا يرى العقبات في الطريق، ولكنه سبب للعقم الفكري والجفاف العاطفي.

---

[228] Pirke Aboth, The Sayings of the Jewish Rathers (New York: E. P Dutton & Company, Inc, 1929), p. 36.

يعتدّ المتطرّف بعقله، ولهذا فهو لا يستطيع أن يبدأ التفكير من جديد. وسبب هذا الاعتداد هو اعتقاده الراسخ أن الحياة، والكون بأكمله تخضع لقانون بسيط هو القانون الذي يؤمن به. وهكذا يصبح المتطرف محروما من تلك الفترات المثمرة من البحث العقلي، حيث يكون العقل مستعدًا لجميع ردود الفعل، ومفتوحًا على معادلات جديدة وبدايات جديدة.

١١٩

عندما تظهر الحركة الجماهيرية أي نوع من أنواع الابتكار فهو، عادة، ابتكار في التطبيق أو في الكم. إن المبادئ والأساليب والتقنيات التي تستخدمها الحركة الجماهيرية وتستغلها هي، عادة من إنتاج إبداع كان، أو لا يزال خارج دائرة الحركة. تنزع جميع الحركات الجماهيرية إلى التقليد السافر الذي أصبح مرتبطا في الأذهان باليابانيين، يقلد النازيون والشيوعيون، حتى في حقل الدعاية، أكثر مما يبتكرون، ويسوقون القضية المقدّسة التي تبنوها كما يسوق المعلن الرأسمالي نوعًا معينا من الصابون أو من السجائر[٢٢٩]. إن الكثير مما نعدّه جديدًا في الأساليب التي يتبعها النازيون والشيوعيون يجيء من أنهم يديرون (أو يحاولون أن يديروا) أمبراطوريات شاسعة بالطريقة ذاتها التي يدير بها فورد أو دوبونت أمبراطوريته الصناعية. ولعله من الصواب أن نقول: إن نجاح التجربة الشيوعية سيعتمد، دومًا على الإبداع الطليق الذي ينبع من خارج العالم الشيوعي. يعتقد رجال الكرملين المتبجحون أنهم يظهرون تسامحًا حين يقولون: إن الرأسمالية ستبقى جنبا إلى جنب مع الشيوعية. والحقيقة أنه لو لم توجد

[229] Eya Lips, Savage Symphony (New York: Random House, 1938), p. 18.

مجتمعات حرة خارج العالم الشيوعي لكان الشيوعيون سيجدون من الضروري إيجادها، ولو بمرسوم من الكرملين.

بعض العوامل التي تتحدد طول المرحلة النشطة

١٢٠

عندما تسعى الحركة الجماهيرية إلى تحقيق هدف ملموس محدد، فإن مرحلتها الديناميكية تكون، عادة، أقصر منها في الحركة التي تسعى خلف أهداف غائمة وغير واضحة. ولعل عدم وضوح الهدف أمر ضروري لنشوء التطرف الدائم. قال أوليفر كرومول: (لا يذهب الإنسان إلى أبعد مدى إلا حين يجهل إلى أين هو ذاهب[٢٣٠].

عندما تستهدف الحركة تحرير الأمة من الطغيان، الداخلي أو الخارجي، أو صدّ اعتداء، أو تحديث مجتمع متخلف، فمن الطبيعي أن تنتهي مع نهاية الصراع مع العدو، أو إعادة تنظيم المجتمع. من الناحية الأخرى، عندما يكون الهدف إيجاد مجتمع مثالي تسوده الوحدة الشاملة والتضحية بالذات، سواء كان مجتمعًا دينيًا أو شيوعيًا أو دولة حربية كدولة هتلر، فإن المرحلة الديناميكية لا تنتهي عند حد. عندما تعدّ الوحدة والتضحية بالنفس أمرين ضروريين لبقاء المجتمع، فإن النتيجة هي (قدسنة الحياة اليومية) أي تحويل القضايا العادية إلى قضايا مقدّسة، أو عسكرة المجتمع.

---

[230] Quoted By J.A.Cramb, The Origins And Destiny of Imperial Britain (London: John Murray, 1915), p. 216.

وفي أي من الحالتين سيبقى النمط الذي شهدته المرحلة الديناميكية ثابتا ودائمًا. كان المفكران جيكوب بيركهارد وأرنست رينان من القلائل الذين تمكنوا في جو التفاؤل الذي ساد النصف الثاني من القرن التاسع عشر من معرفة ما سيجيئ في القرن القادم. توقع بيركهارد ظهور المجتمع العسكري: (إن لديّ هاجسًا يبدو سخيفا ولكنه يرفض، بإصرار، أن يفارقني.. ما سوف يجيء هو تنظيم متقن ومدروس للشقاء، الذي يتخذ صورة تنظيمات عسكرية وملابس عسكرية، وأيام تبدأ وتنتهي بقرع الطبول العسكرية)[٢٣١]. أما رينان فتنبأ بما هو أبعد. شعر أن الاشتراكية ستكون دين الغرب القادم، وبما أنها ستكون علمانية فسوف تكون النتيجة إضفاء طابع القداسة على السياسة والاقتصاد، كما أنه خشي من قيام صحوة كاثوليكية تقف في وجه الدين الجديد: (لا بد أن ترتجف خوفا. في هذه اللحظة، ربما يصاغ دين المستقبل، دون أن يكون لنا أي دور في صياغته... إن للسذاجة جذورًا عميقة. وقد تجلب الاشتراكية معها، بتواطئ مع الكاثوليكية، قرونًا وسطى جديدة، يجيء معها البرابرة والكنائس وتشهد غروب الحرية والفردية، وباختصار غياب الحضارة بأسرها)[٢٣٢].

١٢١

نلاحظ أنه عندما كانت هناك محاولات لإيجاد مجتمع مثالي كانت المحاولة تتم على نطاق شاسع وتشمل شعوبًا غير متجانسة، كما كانت عليه الحال في الثورات الفرنسية والروسية والنازية. يبدو أنه عندما تتم المحاولة من جانب دولة صغيرة، وفي وجود شعب متجانس،

---

[231] Quoted by James Hasting Nicholas In His Introduction To the English Translation of Jacob C. Burck Hardt's Force and Freedom (New York: Pantheon Books, 1943), p. 40.

[232] Ernest Reman, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown & Company, 1888 – 1896) vol V, p. 360.

فإن النتائج لا تكون مأساوية. إن خوف الدولة الصغيرة من تبديد رأسمالها البشري الصغير، وحاجتها الملحّة إلى الانسجام والتآخي، وشعور أبناء الشعب أنهم ينتمون إلى أسرة واحدة – كل هذه عوامل تجعل قيام تعاون تام بين الناس أمرًا ممكنا دون اللجوء إلى (القدسنة) أو (العسكرة). ويحسن الغرب صنعًا لو ترك المجال للدول الصغيرة المتجانسة المتحضرة وحدها، لتقوم بتجربة النظريات الاجتماعية الجديدة. إن فكرة النموذج الصغير للمصنع، التي يستفاد منها في عمليات التصنيع الكبيرة يمكن أن يستفاد منها في التطور الاجتماعي. ولا يجب أن نستبعد فكرة مجتمعات صغيرة ترسم الطريق أمام الغرب، فقد كان هذا هو النمط السائد عبر مدة طويلة. تلقى الغرب من الدول الصغيرة في الشرق الأوسط واليونان وإيطاليا الديانة والمكونات الرئيسة لحضارته وثقافته.

وهناك، على ما يبدو علاقة أخرى بين نوعية الجماهير وطبيعة الحركة الجماهيرية النشطة ومدّتها. إننا أمام حقيقة تقول: إن اليابانيين والروس والألمان الذين سمحوا لحركة جماهيرية نشطة بالبقاء دون أي مقاومة كانوا مهيئين نفسيًا للخضوع والانضباط الحديدي عبر عدة أجيال قبل ظهور الحركة الجماهيرية. كان ستالين مدركا تمام الإدراك أن استعداد الجماهير الروسية للطاعة كان خير معين له: (كيف نستطيع أن نقارن – قال لينين بصوت مرتفع – جماهير أوروبا الغربية بجماهيرنا الصابرة المتعودة على الحرمان؟)[٢٣٣] إن كل من يقرأ ما قالته الكاتبة السويسرية الفرنسية مدام دي ستايل عن الألمان قبل أكثر من نصف قرن يدرك أنهم كانوا المادة الخام المثالية لحركة جماهيرية دائمة: (يحب الألمان الخضوع بشدة. ويلجؤون إلى

[233] Angelica Balaban off, My Life As Rebel. (New York: Harper and Brothers, 1938), p.281.

نظريات فلسفية؛ لكي يبرروا شيئا لا علاقة له بالفلسفة. احترام القوة والخوف الذي يحوّل هذا الاحترام إلى إعجاب)[٢٣٤].

لا يمكن القطع أنه لم يكن بوسع هتلر أو ستالين الظهور في دولة تملك تراثا طويلا من الحرية. ما يمكن قوله بلا تردد: إنه في دولة كهذه ربما كان بوسع هتلر أو ستالين الظفر بالسلطة، إلا أنه لم يكن بوسع أي منهما الاحتفاظ بها حتى النهاية. إن أي تغيير إيجابي في الأوضاع الاقتصادية سيؤدي – بلا شك – إلى إحياء تقاليد الحرية، وتقاليد التمرد. ليس للفرد الذي يقاوم ستالين في روسيا أي انتماء يلوذ به مما يجعل قدرته على مقاومة القمع معدومة، إلا أن الفرد في المجتمعات التي تنعم بتراث من الحرية، عندما يقاوم القمع لا يشعر أنه خلية آدمية منعزلة، وإنما جزء من شعب كامل، ومن أسلافه المتمردين.

١٢٢

إن شخصية القائد، على الأغلب، عامل حاسم في تحديد طبيعة الحركة الجماهيرية ومدتها، إن القادة النادرين مثل لنكولن وغاندي لم يكونوا على استعداد لإيقاف الشر المتأصل في الحركة الجماهيرية فحسب، بل كانوا راغبين في إنهاء الحركة مجرد تحقيق هدفها. هؤلاء القادة من القلة التي يصدق عليهم القول: إن (السلطة منحتهم عظمة وسخاء في الروح)[٢٣٥]. ومن الناحية الأخرى، نجد أن عقلية ستالين البدائية وقسوته القبلية كانتا عاملين رئيسين في إطالة المرحلة

---

[234] Quoted by w, R. Ngc, «Patriotism» Nineteen Modern Essays, Ed. W.A. Archbol d (New York: Longmans, Green, & Company, 1926) p. 213.

[235] John Maynard, Russia In Flux (London: Victor Gollancz, Ltd, 1941), p.29.

الديناميكية من الحركة الشيوعية. من العبث أن نحاول التكهن بمصير الثورة الروسية لو طال الأجل بلينين عقدًا أو عقدين.

يشعر المرء أن لينين لم يكن ينطوي على روح همجية، كالتي ظهرت بوضوح مع هتلر وستالين، تلك الروح التي تجعل البشر كما قال الفيلسوف اليوناني هيركالبتس: (شهودًا أشرارًا على أمثال البشر). صاغ ستالين خلفاءه على مثاله، وبإمكان الشعب الروسي أن يتوقع نوعية القيادة نفسها خلال العقود القادمة. أدّى موت كرومول إلى انتهاء الثورة الإنجليزية، كما أدّى موت روبسبير إلى نهاية المرحلة الديناميكية من الثورة الفرنسية. لو مات هتلر في منتصف الثلاثينيات لتعرضت النازية، تحت قيادة جورنج، لتغييرات رئيسية في مسارها، ولكان بالإمكان تفادي قيام الحرب العالمية الثانية. إلا أنه من الناحية الأخرى ربما استطاع ضريح هتلر مؤسس الديانة النازية، أن يثير من الشرور ما يفوق بكثير فظائع الحرب العالمية الثانية والدمار الذي سببته.

١٢٣

تؤثر الطريقة التي تبدأ بها الحركة الجماهيرية في مدتها وكيفية انتهاء مرحلتها الديناميكية. عندما نرى أن حركة الإصلاح البرتستانتي والثورة الإنجليزية والثورتين الأمريكية والفرنسية وكثيرًا من الثورات الوطنية انتهت، بعد مدة ديناميكية قصيرة، بنظام اجتماعي يتميز بالمزيد من الحريات الفردية، فإن لنا أن نرجع السبب إلى تحقيق المثل والأهداف التي سادت خلال المرحلة الأولى من المرحلة. بدأت جميع هذه الحركات بتحدي نظام قائم مستقر

وإزاحته. تمت إزاحة النظام بسرعة، وبقيت ذكرى الأيام الأولى للحركة حيّة في أذهان الناس، ولهذا كانت النتيجة النهائية ظهور الحريات الفردية. وعلى النقيض، لم يكن هنالك هدف محدد يتجه إليه التحدّي عند ظهور المسيحية، لم تبدأ بإزاحة ملك، أو نظام، أو دولة، أو كنيسة. كان هناك قديسون، ولكنهم (لم يكونوا ثوارًا يتحدون سلطة قائمة باسم شعوب العالم كلها)[٢٣٦]، ولهذا السبب، ربما، ظل النظام السلطوي الذي أدخلته المسيحية قائمًا بلا تحدّ عبر ألف وخمس مئة سنة. ولم يكن تحرير العقل المسيحي الذي تم في نهاية الأمر مستلهمًا مر الأيام الأولى للمسيحية، ولكن من نماذج الاستقلال المثيرة في التاريخ اليوناني / الروماني. والقومية الألمانية، بدورها، على خلاف القوميات في معظم الدول الغربية، لم تبدأ بعمل مثير يتحدى السلطة القائمة، بل انطوت منذ بدايتها تحت جناح الجيش الروسي. تجلت بذرة الحرية الفردية في ألمانيا في الثورة البروتستانتية لا في القومية. من ناحية أخرى بدأت حركة الإصلاح البروتستانتي، والثورات الأمريكية والفرنسية والروسية، ومعظم الحركات الوطنية، بتحدٍّ مثير مذهل عبّر عنه الأفراد، وظلت ذكراه حية في العقول.

وبهذا المعيار، فعودة الحريات الفردية في روسيا ليست بالأمر المستحيل[٢٣٧].

حركات جماهيرية نافعة

١٢٤

---

[236] Sir J. R. Seeley, Lectures and Essays (London: Macmillan, 1895), p. 81

[٢٣٧] غني عن الذكر أن نبوءة المؤلف تحققت بانهيار النظام الشيوعي في روسيا (المترجم).

يبدو الرجال الذين لا يعتنقون قضايا مقدّسة في عيون المؤمنين الصادقين رجالا يفتقرون إلى الصلابة والشخصية مستعدين لاتباع الرجال المؤمنين. ومن ناحية أخرى، يشعر المؤمنون الصادقون من كل الأطياف بقوة خصومهم ويحترمونهم برغم ما يشعرون به نحوهم من كراهية وبرغم استعدادهم للاشتباك معهم. اعتبر هتلر الشيوعيين أندادا له وأعطى تعليمات بضم الشيوعيين السابقين إلى الحزب النازي بلا تردد. كما رأى ستالين، بدوره، أن الألمان واليابانيين هما الأمتان الوحيدتان الجديرتان بالاحترام. يقول دوستويفسكي على لسان الأسقف يتهون: (إن الإلحاد الواضح جدير بالعناية والاهتمام أكثر من مجرد التشكك... إن الملحد الحقيقي قد لا تفصل بينه وبين الإيمان سوى درجة واحدة... أما المتشكك الذي لا يعبأ بشؤون العقيدة فلا يوجد لديه أي نوع من أنواع الإيمان، بل يوجد الخوف المفرط)[٢٣٨].

كل المؤمنين الصادقين في أيامنا، سواء كانوا شيوعيين، أو نازيين، أو فاشيين، أو يابانيين أو كاثوليكًا، أدانوا في الماضي (والشيوعيون حتى الوقت الحاضر) خواء الديمقراطيات الغربية اتهموا الشعوب الديمقراطية بالترف والشغف بالملذات والأنانية على نحو أفقدها القدرة على الموت في سبيل الأمة أو اللهّ أو القضية المقدّسة. يصور هذا العزوف عن التضحية على أنه دليل على تفسخ من الداخل، على انحلال أخلاقي وجسدي. وتصور الديمقراطيات الغربية على أنها كيانات قديمة فاسدة ومنحلة. والنتيجة هي أن الديمقراطيات عاجزة عن

[238] Fedor Dostoyevsky, The Possessed, Modern Library Edition (New York: Random House 1936) p. 698

أن تهزم جموع المؤمنين الصادقين المستعدين للعمل الجماعي والموت، والتي توشك أن ترث الأرض.

في هذه الاتهامات قليل من الحق وكثير من الباطل. إن الاستعداد للعمل الجماعي والتضحية بالنفس خصيصتان من خصائص الحركة الجماهيرية، كما أوضحنا فيما سبق. من ناحية أخرى، تتكون الديمقراطيات، في الظروف الطبيعية، من أنظمة مؤسسية تضم أفرادًا أحرارًا على نحو أو آخر. إلا أنه عندما يتعرض وجود الدولة الديمقراطية للخطر ويجب عليها أن توحد شعبها وتغذي فيه روح التضحية بالنفس، فإنها تتحوّل إلى كيان يشبه الكنيسة المتشددة أو الحزب الثوري. وعملية «القدسنة» هذه لا تحمل معها، برغم بطئها وصعوبتها، تغييرات جذرية عميقة. حتى المؤمنون الصادقون لا يزعمون أن انحلال الديمقراطيات انحلال عضوي دائم. كانت ألمانيا طبقا للمحللين النازيين، منحلة في العشرينيات، وعادت إلى العنفوان في الثلاثينيات. لا شك أن عقدًا واحدًا لا يكفي لإحداث تغييرات بيولوجية أو ثقافية جذرية في شعب من الملايين.

يبقى من الصحيح، مع ذلك، أن القدرة على إيجاد حركة جماهيرية في وقت قصير، في مدة كفترة هتلر، أمر بالغ الأهمية. إن قدرة القائد في المجتمع الديمقراطي على «قدسنة» القضايا أمر ضروري، حتى عندما لا تظهر الحاجة إلى ممارسة «القدسنة» فعليًّا. ولعله من الصحيح أيضا أن الفكر الفلسفي المتعمق، أو الواقعية التي يتصف بها رجال الأعمال، تحول بين الإنسان وبين موقع القيادة الوطنية. بالإضافة إلى هذا، قد تكون هنالك صفات معينة في المجتمع الديمقراطي تسهل عملية «القدسنة»، وتطلق العنفوان الوطني. لا يمكن قياس

العنفوان في أمة ما إلا بقياس مخزون تطلعاتها. وما قاله هيركاليتس: (ليس من صالح البشر أن يعطوا جميع ما يطلبونه) ينطبق على الدول، كما ينطبق على الأفراد. يضعف عنفوان الأمة عندما تكف عن التطلع بلهفة إلى أشياء تريدها وتكف عن توجيه طاقاتها إلى أهداف ملموسة محددة. لا تبقى الأمة في حالة عنفوان دائم إلا وهي تسير خلف هدف يقود بدوره إلى هدف جديد، حتى عندما تكون قد أشبعت حاجاتها المادية.

ليس من الضروري أن يكون الهدف ساميًا. إن التطلع إلى ارتفاع مستمر في مستوى المعيشة هو الذي حفظ للأمة الأمريكية عنفوانها. عندما يكون الهدف متواضعًا، ويصبح الإنجاز المطلوب نموذج (الجنتلمان الريفي) في بريطانيا و(المالك المتقاعد) في فرنسا، فإنه يصعب الاحتفاظ باندفاع الأمة وحيويتها. من الناحية الأخرى، فالأهداف المتجددة غير المحددة، تبقي الاندفاع قائمًا في دول مثل أمريكا وروسيا وألمانيا.

١٢٥

يمكن للحركة الجماهيرية، كما سبقت الإشارة، أن تكون عاملا في نهضة مجتمع جامد وتحديثه. وبرغم أنه لا يمكن القول: إن الحركات الجماهيرية هي الوسيلة الوحيدة لإحياء المجتمع، فإنه قد يكون من الصحيح في المجتمعات الكبيرة غير المتجانسة مثل روسيا والهند والصين أن عملية الإحياء تعتمد على وجود حماسة متدفقة بين أفراد المجتمع قد لا تتوافر في غياب الحركة الجماهيرية.

وعندما يكون من الضروري أن يتم التحديث في مدة زمنية قصيرة، فقد تكون الحركات الجماهيرية ضرورية حتى في المجتمعات الصغيرة المتجانسة. وهكذا يمكن أن يكون العجز عن إيجاد حركة جماهيرية في ظروف معينة عيبًا في النظام الاجتماعي. ولعله من سوء حظ الصين أن حركتيها الجماهيريتين خلال القرن الأخير (تمرد تايبنج وثورة سن يات سن) تبعثرتا أو قضى عليهما في وقت مبكر. لم تستطع الصين أن تنتج قائدًا مثل ستالين أو غاندي، أو حتى مثل أتاتورك، يستطيع الإبقاء على حركة جماهيرية مدة تكفي لتحقيق الإصلاحات المنشودة. ويرى المفكر الأسباني أورتيجا ياجاست أن عدم قدرة دولة ما على إنتاج حركة جماهيرية قد يرجع إلى أسباب عرقية. يقول أورتيجا عن وطنه أسبانيا: (كان الذكاء الأسباني الجماعي، دوما، قاصرًا ولم يتح له أن ينمو نموا طبيعيًا)[239][240].

قد يكون التحرك الشعبي الحقيقي عملية نهضوية تحديثية عندما تترك الحكومات لتموت موتا طبيعيًا بطيئا فإن النتيجة، عادة، هي الجمود والتفسخ على نحو قد لا يمكن علاجه. وبالنظر إلى أن رجال الكلمة يؤدون دورًا كبيرًا في قيام الحركة الجماهيرية، كما سبق أن رأيت، فإن وجود أقلية متعلمة تستطيع التعبير عن نفسها أمر ضروري لاستمرار الحيوية في المجتمع.

---

[239] Jose Ortega Y. Gasset, The Modern Theme, (New York: W. W. Norton & Company 1931) p. 128.

[240] أستغرب ملاحظة المفكر الأسباني ومؤلف الكتاب، حول عدم قابلية العرق الأسباني لاحتضان حركة جماهيرية، فقد كان كل من اليسار واليمين اللذين اشتبكا في الحرب الأهلية الأسبانية، التي بدأت في سنة ١٩٣٦ م، يشكل حركة جماهيرية حقيرة (المترجم).

سبق أن ناقشنا التأثير الثوري للمؤسسات التعليمية التي أقامتها الدول الغربية المستعمرة — وللمرء أن يتساءل: هل لظهور قادة مثل غاندي ونهرو أسباب تتعلق بطبيعة المجتمع الهندي، أو أن السبب، وهذا ما أرجحه، حول طول بقاء الاستعمار البريطاني. يبدو أن النفوذ الأجنبي عامل مهم في حركات الإحياء الوطني. نلاحظ خلال نهضة أوروبا من جمود القرون الوسطى تأثيرات أجنبية مهمة يونانية/ رومانية، وعربية. وكان النفوذ الغربي عاملا حاسمًا في نهضة روسيا واليابان وعدد من الدول الآسيوية. والنقطة المهمة هنا هي أن التأثير الأجنبي لا يعمل بطريقة مباشرة. لا يكفي دخول أشياء أجنبية مثل الموضات والعادات وطرق التفكير والتصرف.

إن التأثير الحقيقي للنفوذ الأجنبي يتجلى في إيجاد أقلية متعلمة لم تكن موجود من قبل، أو في حرمان أقلية مؤثرة موجودة من مزايا النظام القائم. هذه الأقلية المؤثرة هي التي تبدأ عملية الإحياء بإطلاق حركة جماهيرية. إن التأثير الأجنبي، بعبارة أخرى، هو الحلقة الأولى من العملية، أما الحلقة الأخيرة فتتخذ، عادة شكل حركة جماهيرية. وهذا ما حدث في أوروبا: سهّل التأثير الأجنبي اليوناني/ الروماني والعربي ظهور رجال كلمة لم يكن لهم ارتباط بالكنيسة، وأبعد عددًا من رجال الكلمة التقليديين من معسكر النظام الكاثوليكي القائم. كانت النتيجة حركة الإصلاح البروتستانتي التي أيقظت أوروبا من غفوتها. وفي روسيا أدى النفوذ الغربي (الذي يشمل النظرية الماركسية) إلى زعزعة ولاء المثقفين للنظام القيصري وإلى الثورة البلشفية التي لا تزال تحكم الأمبراطورية الشيوعية. أما في اليابان فلم يؤثر النفوذ

الأجنبي على رجال الكلمة، وإنما على مجموعة استثنائية من الرجال، منهم الأمبرطور ميجي والمحيطون به.

امتلك هؤلاء الرجال العمليون الواقعيون، الرؤية التي افتقر إليها بيتر الكبير، برغم أنه كان بدوره من الرجال العمليين الواقعيين، ولهذا نجحوا حيث فشل هو. أدرك هؤلاء القادة اليابانيون أن مجرد إدخال العادات والآلات الأجنبية لن يغير مسيرة الحياة في اليابان ولن يدفعها إلى التخلص من التخلف الذي سيطر عليها عبر قرون طويلة. أدركوا أن (القدسنة) عملية لا بد منها في هذه المحاولة النهضوية الشاملة، ولهذا أطلقوا واحدة من أكثر الحركات الجماهيرية فاعلية في العصور الحديثة. أشرنا في أماكن عديدة من هذا الكتاب إلى شرور هذه الحركة، ومع ذلك فإن من المشكوك فيه أن أي وسيلة أخرى ذات طبيعة مختلفة كانت تستطيع إنجاز التحديث المذهل الذي حققته اليابان. وفي تركيا، بدورها، أثر النفوذ الأجنبي على أتاتورك، الذي كان من الرجال العمليين، وكانت النتيجة النهائية نشوء حركة جماهيرية.

يعدّ المفكر ج. بي.س هالدين التطرف ضمن أربعة مخترعات بالغة الأهمية فيما بين سنتي ٣٠٠٠ ق.م و١٤٠٠م[٢٤١] ويعدّه اختراعًا يهوديا/ مسيحيًا.

ومن الغريب أن هذا الداع النفسي المخيف، قد يتحول، في سياق حركة جماهيرية إلى عامل يستطيع إيقاظ المجتمعات من الركود وتحديثها.

---

[241] J. B. S. Haldane. The Inequality of Man (New York: Famous Books, Inc., 1938), p. 49